



عناصر الموضوع



مفهوم الاستعاذة

أولًا: المعنى اللغوي:

الاستعاذة: مصدر استعاذ، وهي قول القائل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وأعوذ فعل مضارع يصلح للحال والاستقبال، وهو مشتق من العوذ؛ وهو الالتجاء إلى الشيء، ثم يحمل عليه كل شيء لصق بشيء أو لازمه[(١)]. وعلى هذا فإن العوذ له معنيان:

أحدهما: الالتجاء إلى الشيء، والانحياز له، والاستجارة به.

يقال: عذت بالشيء أعوذ عوذًا وعياذًا إذا لجأت إليه، وهو عياذي: أي ملجئي[(٢)].

قال ابن منظور: «عاذ به يعوذ عوذًا وعياذًا ومعاذًا: لاذ به ولجأ إليه واعتصم»[(٣)].

والثاني: الالتصاق، يقال: أطيب اللحم عوذه، وهو ما التصق منه بالعظم[(٤)].

فعلى الوجه الأول: معنى قوله: أعوذ بالله: أي ألتجئ إلى رحمة الله وعصمته، ومنه: العوذة، وهو ما يعاذ به من الشر، وقيل للرقية والتميمة- وهو ما يعلق على الصبي-: عوذة وعوذة[(٥)]. وعلى الوجه الثاني: معناه: التصق نفسي بفضل الله ورحمته[(٦)].

قال ابن القيم: «والقولان حق، والاستعاذة تنتظمهما معًا»[(٧)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معنى الاستعاذة الاصطلاحي كثيرًا عن المعنى اللغوي.

عرفها ابن كثير بقوله: «هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل شر، والعياذة تكون لدفع الشر، و اللياذة تكون لطلب الخير»[(٨)].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٨٣.
(٢) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٨٣٣، الصحاح، الجوهري ١/ ٤٧٣، تهذيب الأسماء واللغات، النووي ص٣٢٩.
(٣) لسان العرب ٩/ ٤٦٤.
(٤) انظر: المصدر السابق ٩/ ٤٦٥.
(٥) انظر: المصدر السابق ٩/ ٤٦٥، الدر المصون، السمين الحلبي ١/ ٧.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي١/ ٦٤، بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٧١.
(٧) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٧١.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٦.



الاستعاذة في الاستعمال في القرآن

وردت مادة (عوذ) في القرآن (١٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر:٢٧]
الفعل المضارع	٩	﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة:٦٧]
فعل الأمر	٤	﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف:٢٠٠]
المصدر الميمي	٢	﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣]

وجاءت الاستعاذة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: الالتجاء إلى الغير والتعلق به[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم ص٨٤٢-٨٤٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٩٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الدعاء:

الدعاء لغة:

مأخوذ من مادة (د ع و) التي تدل في الأصل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومن هذا الأصل: الدعاء في معنى الرغبة إلى الله عز وجل ، وهو واحد الأدعية، والفعل من ذلك: دعا يدعو، والمصدر: الدعاء والدعوى[(١)].

الدعاء اصطلاحًا:

هو سؤال العبد ربَه حاجتَه.

الصلة بين الاستعاذة والدعاء:

بالتأمل نجد أن الدعاء أعم من الاستعاذة، فهو لجلب الخير أو دفع الشر، والاستعاذة دعاء لدفع الشر.

٢ الاستعانة:

الاستعانة لغة:

الاستعانة: مصدر استعان، وهي: طلب العون، يقال: استعنته واستعنت به فأعانني[(٢)].

الاستعانة اصطلاحًا:

لا يخرج عن المعنى اللغوي، فالاستعانة بالله سبحانه وتعالى: طلب العون من الله، والاستعانة بالمخلوق: طلب العون من المخلوق فيما يقدر عليه من الأمور.

الصلة بين الاستعاذة والاستعانة:

الاستعانة أعم من الاستعاذة، فإنهما يجتمعان في طلب كف الشر، وبذلك: فالاستعاذة صورة من صور الاستعانة، وتزيد الاستعانة بأنها تكون في تحصيل الخير. فكل استعاذة استعانة، وليس كل استعانة استعاذة.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٠، الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٧.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٢٩٨.



٣ الاستغاثة:

الاستغاثة لغة:

مصدر استغاث، وهو مأخوذ من الغوث بمعنى: الإغاثة والنصرة عند الشدة[(١)].

الاستغاثة اصطلاحًا:

طلب الغوث في الشدائد والأزمات[(٢)].

الصلة بين الاستعاذة والاستغاثة:

عرفنا في تعريف الاستغاثة أنها طلب الغوث والتخليص من الشدة والنقمة، أو طلب العون على فكاك الشدائد، والاستعاذة هي الالتجاء وطلب العون، ففي كل منهما طلب العون والمدد، إلا أن طلب العون في الاستغاثة قيد بحالة الشدة والنقمة والكرب ونحوها، ولم يقيد ذلك في الاستعاذة.

وعليه، فالاستغاثة تكون برفع الأمر بعد وقوعه، أما الاستعاذة فالأصل أن تكون بدفع الأمر قبل وقوعه.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٢٤٩، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٠٠، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٣٣١٢.

(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص١٥٩.

منزلة الاستعاذة وآثارها

أولًا: الاستعاذة مظهر من مظاهر التوحيد:

الاستعاذة نوع من أنواع العبادات القولية التي يجب أن تصرف لله وحده دون ما سواه من المخلوقين؛ تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ولا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه؛ بل هو يعيذ المستعيذين، ويعصمهم، ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

وقد أمر الله نبيه بالاستعاذة به دون ما سواه في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١ - ٢].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٤].

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم (الرب) و(الملك) و(الإله)، وجاءت الربوبية فيهما مضافة إلى (الفلق) وإلى (الناس)، ولابد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها[(١)].

وكلما كان توحيد المسلم لله أكمل؛ كان حفظ الله له أتم.

قال ابن القيم: «التوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين. قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء»[(٢)].

ثانيًا: الاستعاذة من هدي الأنبياء والصالحين:

الاستعاذة بالله من هدي الأنبياء والصالحين، وقد أمرنا الله بالاقتداء بهم.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهذا نبي الله نوح عليه السلام يستعيذ بالله من أن يسأله ما ليس به علم عندما سأله نجاة أهله.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

فاستجار بالله أن يتكلف مسألته مما قد استأثر الله بعلمه، وطوى علمه عن خلقه، وكذلك سأل الله أن يغفر زلته في سؤاله نجاة ابنه، وأن الله إن لم يغفر له ويرحمه ليكونن من الذين غبنوا أنفسهم حظوظها

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٧٤.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢٠٩.

فهلكوا[1].

وهذا موسى عليه السلام استعاذ بالله من أن يرجمه قومه.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

الرجم الذي استعاذ موسى عليه السلام بربه منه قيل: هو الشتم باللسان، وقيل: هو الرجم بالحجارة، وقيل: المراد بالرجم: القتل.

قال ابن جرير: «والصواب أن يقال: استعاذ موسى بربه من كل معاني رجمهم الذي يصل منه إلى المرجوم أذى ومكروه، شتمًا كان ذلك باللسان، أو رجمًا بالحجارة باليد»[2].

وهذا نبي الله يوسف عليه السلام يستعيذ بالله من الوقوع في الفاحشة.

قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وهذا في غاية النزاهة والطهر؛ يستعيذ بالله -مع قوة الداعي- من أن يقع في هذا الفعل القبيح؛ لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيده الذي أكرم مثواه[3]، وسيده الحق جل جلاله قد أحسن مثواه بما سخر له، فكيف يخونه بما حرم عليه[4]، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لايفلح.

وهذه امرأة عمران حين وضعت مريم عليها السلام طلبت من الله أن يعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فاستجاب الله لها، فأعاذها الله وذريتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليها سبيلًا[5].

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، إلا ابن مريم وأمه)[6].

قال القرطبي: «قال علماؤنا: أفاد هذا الحديث أن الله تعالى استجاب دعاء أم مريم؛

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٦٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٥/ ١٤٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١١٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٦٩. وانظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢١٦، وهو قول أكثر المفسرين.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤١٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٣٣.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٧٩.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم)، ٧/ ١٣٨، رقم ٣٤٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، ١٥/ ١١٩، رقم ٦٠٨٦.

فإن الشيطان ينخس جميع ولد آدم، حتى الأنبياء والأولياء، إلا مريم وابنها»[1].

ثالثًا: آثار الاستعاذة:

مما يبين لنا أهمية الاستعاذة ذكر آثارها على المستعيذين:

قال الله تعالى -حكاية عن نوح عليه السلام أنه قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

فأعطاه الله نعمتين: السلام، والبركات.

قال تعالى: ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨].

وقال يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٢٣].

فأعطاه الله نعمتين: صرف السوء عنه والفحشاء.

وقال أيضًا: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٩].

فأعطاه الله نعمًا كثيرة، منها: نعمة العدل، وكشف الأمور، وظهور البراءة، ورفع أبويه على العرش، وسجودهم له.

وحكى عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

فأعطاه الله نعمتين: إزالة التهمة له بالجهل، وإحياء القتيل.

وحكى عن موسى عليه السلام أيضًا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

فأعطاه الله نعمتين: أفنى عدوه، وأورثهم أرضهم وديارهم.

وحكى عن أم مريم أنها قالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فأعطاها الله نعمتين: تقبل مريم منها بقبول حسن، وأنبتها نباتا حسنا، وهو قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ۝٣٧﴾ [آل عمران: ٣٧]

ومريم عليها السلام لما رأت جبريل عليه السلام في صورة بشر يقصدها ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

فوجدت نعمتين: ولدًا من غير أب، وتبرئة الله إياها بلسان ذلك الولد عن السوء؛ وهو قوله تعالى: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠][2].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٧٠.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١/ ١٠٥-١٠٦.

أنواع الاستعاذة

أولًا: الاستعاذة المشروعة:

هي الاستعاذة التي تكون بالله، والمستعاذ به هو الله وحده رب الفلق، ورب الناس، وملك الناس، وإله الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه؛ بل هو يعيذ المستعيذين ويمنعهم، ويعصمهم من شر ما استعاذوا من شره[1].

والاستعاذة به سبحانه مما لا يقدر عليه سواه من مقتضيات التوحيد ولوازمه، فلا يستعاذ من ذلك بغيره. ثم الاستعاذة تكون بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا،وأكثر ما وردت به نصوص القرآن الاستعاذة باسم (الله)؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [غافر: ٥٦].

وقال سبحانه عن موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

ومن الكثير أيضًا الاستعاذة باسم(الرب)، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١].

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٧٣ .

وقوله عز وجل عن موسى عليه السلام ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

أو بالضمير العائد إلى الرب؛ كقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧].

وقوله سبحانه عن امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

أما اسم (الرحمن) فلم ترد الاستعاذة به في القرآن إلا مرة واحدة؛ في قوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨][2].

فنستنتج مما سبق: أن الاستعاذة المشروعة تكون بالله أو أسمائه أو صفاته، ويجوز الاستعاذة بالإنسان فيما هو داخل تحت قدرته وإرادته، كأن يستجير به من حيوان مفترس، أو إنسان يريد الفتك به[3].

ثانيًا: الاستعاذة المحرمة:

هي الاستعاذة التي تكون بغير الله؛ كالاستعاذة بالجن والشياطين والأموات

(٢) انظر: مسائل في الاستعاذة، عبد العزيز الخضيري، مجلة الدراسات القرآنية، عدد ٥، ص٣٣.

(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية ٤/ ٥.

والأصنام وغيرهم، فهي لا تزيد المستعيذ بها إلا رهقًا، ولاشك أن ذلك كفر أو شرك.

قال تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

والرهق في كلام العرب: الإثم والخطيئة وغشيان المحارم[1]، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانًا لما كان محظورًا من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن[2]. وكان أول من تعوذ من الجن قوم من أهل اليمن، ثم من بني حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم[3].

قال ابن عباس: كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي، فزادهم ذلك إثمًا[4].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٤٥.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٣٠/ ١٣٠، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٤٠٢.
(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٧٤.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٣.
(٣) تفسير مقاتل ٣/ ٤٠٦.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٩/ ١٢٨.

المستعاذ منه

ما يستعاذ منه أمور كثيرة، منها:

أولًا: من شر شياطين الإنس والجن ومن شر كل مخلوق:

أمرنا الله تعالى بالاستعاذة من شياطين الإنس والجن في عدة مواضع من كتابه، فأمر الله بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل؛ ليرده عما هو فيه من أذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن؛ لأنه لا يقبل رشوة، ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع، ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وورد هذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن[5]:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

هذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

أي: يصيبك ويعرض لك من الشيطان نزغ فاستجر بالله.

قال ابن جرير: (وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهلين، ويحملك على مجازاتهم؛ فاستجر بالله من نزغه؛ فإنه سميع لجهل

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٤.



الجاهل عليك، عليم بما يذهب عنك الشيطان»[1].

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦- ٩٨].

قال ابن عطية: «والنزغات وسورات الغضب من الشيطان، وهي المتعوذ منها في الآية. وهمزات الشيطان: خطراته التي يخطرها بقلب الإنسان»[2].

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٥- ٣٦].

قال ابن عباس: «قوله: ادفع بالتي هي أحسن قال: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم»[3].

ثم أمر الله نبيه بأنه إذا حمله الشيطان على مجازاة المسيء بالإساءة؛ بالاستجارة منه والاعتصام بالله من خطراته؛ إن الله هو ﴿السَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك منه، واستجارتك به من نزغاته ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما ألقى في نفسك من نزغاته، وحدثتك به نفسك ومما يذهب ذلك عن قلبك»[4].

وأمر الله في سورة الفلق بالاستعاذة من شر ما خلق، ويدخل فيه شياطين الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١ - ٢].

قال ابن القيم: «فالاستعاذة من شر ما خلق تعم شر كل مخلوق فيه شر، وكل شر في الدنيا و الآخرة، وشر شياطين الإنس والجن، وشر السباع والهوام ، وشر النار والهواء، وغير ذلك»[5].

وكذلك أمر الله في سورة الناس بالاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٦].

قال قتادة: «إن من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين، فتعوذ بالله من شياطين الإنس والجن»[6].

(١) انظر: جامع البيان، ٩/ ١٨٥.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٥٥.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٤ / ١٣٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٣٩.
(٥) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم٢/ ١٨٤.
(٦) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ٢/ ٣٣٥.

ثانيًا: الجهل والسفه:

استعاذ نبي الله موسى عليه السلام من الجهل والسفه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

والجهل خلاف العلم[1]. والجاهل: هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه.

فهذا موسى عليه السلام استعاذ بالله أن يكون من الجاهلين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

والخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل؛ فاستعاذ منه عليه السلام؛ لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء، والجهل نقيض العلم، فاستعاذ من الجهل كما جهلوا في قولهم: أتتخذنا هزوًا لمن يخبرهم عن الله تعالى ؟! وظاهر هذا القول يدل على فساد اعتقاد من قاله، ولا يصح إيمان من قال لنبي ذلك.

قال القرطبي: «وفي الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه ، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحق للوعيد»[2].

ثالثًا: تسلط الجبابرة والمتكبرين:

استعاذ نبي الله موسى عليه السلام بالله من كل متكبر على الله، تكبر عن توحيده، والإقرار بألوهيته وطاعته، وأنكر اليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

قال ابن جرير: «وإنما خص موسى صلوات الله وسلامه عليه الاستعاذة بالله ممن لا يؤمن بيوم الحساب؛ لأن من لا يؤمن بيوم الحساب مصدقًا لم يكن للثواب راجيًا ولا للعقاب خائفًا؛ لذلك كانت استجارته من هذا الصنف من الناس خاصة»[3].

وكذلك استعاذ بالله من أن يرجم في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

قال ابن عطية: «هذا كلام قاله موسى عليه السلام لخوف لحقه من فرعون وملئه»[4]، فكأنهم توعدوه بالقتل، فاستجار بالله من ذلك[5].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ١٢٥، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٤٠٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٤٨٤. وانظر: معالم التنزيل، البغوي ١ / ٨٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٥ .

(٣) انظر: جامع البيان، ابن جرير ٢٤/ ٦٨.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٧١.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

وكذلك أمر الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الذي يجادل في آيات الله بغير علم، ويتكبر عن قبول الحق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

أي: فاستجر بالله يا محمد من شر هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان؛ لأن في صدورهم كبرًا، أي: عظمة[(١)] يتعاظمون بها عن اتباعك وقبول الحق منك؛ حسدًا منهم على الفضل الذي آتاك الله، والكرامة التي أكرمك الله بها من النبوة[(٢)].

مواطن الاستعاذة

أولًا: عند قراءة القرآن:

أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه إذا ابتدأ قراءة القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

قال ابن كثير: «ومن لطائف الاستعاذة: أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطيب له، وهو لتلاوة كلام الله، وهي استعانة بالله، واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني، الذي لايقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه»[(٣)].

وأجمع العلماء على أن الاستعاذة ليست من القرآن؛ ولكنها تطلب لقراءته؛ لأن قراءته من أعظم الطاعات، وسعي الشيطان للصد عنها أبلغ. وأيضًا القارئ يناجي ربه بكلامه والله سبحانه وتعالى يحب القارئ الحسن التلاوة، ويستمع إليه، فأمر بالاستعاذة لطرد الشيطان عند استماع الله سبحانه وتعالى له[(٤)].

وذهب الجمهور إلى أنها سنة[(٥)]، وأن

---

(١) الصحاح، الجوهري ١/ ٦٤٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٨٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٦.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٢٢، الموسوعة الفقهية الكويتية ٤/ ٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٠٨، ١٦/ ١١٨.

محلها قبل القراءة[1]، ويستحب الجهر بها عند افتتاح القرآن، وعند ابتداء كل قارئ بعرض أو درس أو تلقين في جميع القرآن[2].

ووردت صيغ للاستعاذة:

الأولى: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) كما ورد في سورة النحل من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وهو المختار لجميع القراء، قال السخاوي: (إن إجماع الأمة عليه)[3].

قال في النشر: وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم التعوذ به للقراءة ولسائر التعوذات[4].

الثانية: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم)، ويدل لها قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وهذه الصيغة مروية عن الإمام أحمد وبعض الشافعية وطائفة من القراء[5].

الثالثة: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم)، ودليلها الجمع بين الصيغتين الأولى والثانية، وقد قرأ بها نافع وابن عامر والكسائي[6].

الرابعة: (اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفثه ونفخه)[7]، ويدل لها حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفثه ونفخه)[8][9].

ثانيًا: عند همزات الشياطين ونزغاتهم:

أرشد الله في كتابه الكريم المسلم إذا ثارت به ثورة الغضب ونزغه الشيطان[10] أن يستعيذ به من الشيطان الرجيم.

المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٢٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٢١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٤٥.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٨٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٢٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٥.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٤/ ٧.

(٣) انظر: جمال القراء، السخاوي ص ٥٨٠.

(٤) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٢٤٣.

(٥) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٤٩.

(٦) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٥٠.

(٧) همز الشيطان: الموتة، وهي: الخنق، نوع من الجنون والصرع. ونفخه: الكبر، ونفثه: الشعر.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٧٥-٧٧، ٢٣٦.

(٨) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٣٨٠، رقم ٣٨٣٠، وابن ماجه في سننه، ١/ ٢٦٦، رقم ٨٠٨.

(٩) انظر: مسائل في الاستعاذة، عبدالعزيز الخضيري، مجلة الدراسات القرآنية، عدد ٥، ص/ ٣٠.

(١٠) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٧.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وكذلك أمر الله المسلم بالاستعاذة به عند حصول الوسوسة له من الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ الشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ - ٩٨].

همزات الشياطين هي: نزغاته ووساوسه.

وقيل: نفخه ونفثه.

وقال أهل المعاني: دفعهم بالإغواء إلى المعاصي، وأصل الهمز: شدة الدفع[١].

وأمره أيضًا بأن يستعيذ به من حضور الشياطين في أمر من أموره؛ وإنما ذكر الحضور لأن الشيطان إذا حضره يوسوسه[٢].

قال ابن عطية: «والنزغات وسورات الغضب من الشيطان، وهي المتعوذ منها في الآية»[٣].

ثالثًا: عند مواجهة الجاهلين:

أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يستعيذ به عند مواجهة الجاهلين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

أي: استعذ بالله من الكبر الذي يوجب التكبر عن الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور[٤].

قال ابن عطية: «أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة بالله في كل أمره من كل مستعاذ منه؛ لأن الله يسمع أقواله وأقوال مخالفيه، وهو بصير بمقاصدهم ونياتهم، ويجازي كلًا بما يستوجبه، كأنه قال: هؤلاء لهم كبر لا يبلغون منه أملًا؛ فاستعذ بالله من حالهم. وظاهر الاستعاذة هنا العموم في كل مستعاذ منه»[٥].

رابعًا: عند الخوف من الضرر:

يشرع للمسلم أن يستعيذ بالله من كل شيء يخاف ضرره، فهذا موسى عليه السلام استعاذ بالله من فرعون لما هدده بالقتل.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

أي من كل متعظم عن الإيمان بالله،

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٦٦.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣١٦.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ٤ / ١٥٥ .
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٤٠.
(٥) المحرر الوجيز، ٥/ ٥٦٥.

وصفته أنه لا يؤمن بيوم الحساب[1].

وكذلك استعاذ بالله من بني إسرائيل أن يقتلوه قال تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

وهذه مريم عليها السلام استعاذت بالله من الملك عندما خافت ضرره.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

أي ممن يتقي الله[2].

وكذلك طلب الله من عبده أن يستعيذ به من كل ما فيه شر.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١ - ٥].

فأمر الله هنا بالاستعاذة من عموم الشر الذي خلقه في المخلوقات من حيوان أو غيره، ثم بين بعد ذلك أهم ما يستعاذ به من هذه الشرور؛ وهو الاستعاذة من الليل إذا أظلم، والسبب الذي من أجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل؛ لأن فيه تتسلط شياطين الإنس والجن وتنتشر. وأمره كذلك بالاستعاذة من ﴿شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، وهذا الشر هو شر السحر؛ فإن النفاثات في العقد هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر.

والنفث: هو النفخ مع ريق[3]. وأمره أيضًا بالاستعاذة من شر الحاسد إذا حسد، وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذي المحسود، فنفس حسده شر يتصل بالمحسود من نفسه وعينه، وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، فحقق الشر منه عند صدور الحسد[4].

وكذلك شرع الله الاستعاذة من شياطين الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

وأمر الله المستعيذ أن يتعوذ بالله رب كل شيء ومليكه وإلهه من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الرجيم، الذي يزين للإنسان المعاصي ويثبطه عن الطاعات، وهذا معنى الوسواس، ووصفه الله بوصف آخر؛ وهو الخناس الذي إذا ذكر العبد ربه

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٦٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٨٦.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٥٧، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٢٣.
(٤) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٨٤- ١٩٥.

خنس أي: كف وانقبض[1] وولى هاربًا؛ لأنه جبان وضعيف يهرب عن ذكر الله. ثم عمم الله في نهاية السورة بالأمر بالاستعاذة من شياطين الإنس والجن.

وقد تضمنت المعوذتان الاستعاذة من جميع الشرور التي تصيب الإنسان، وهي لا تخلو من قسمين: إما ذنوب وقعت منه، وهذا راجع إلى الإنسان نفسه، وتسمى بالمعائب، وإما شر يقع بالإنسان من غيره من حيوان أو إنسان أو جآن، وتسمى بالمصائب.

فسورة الفلق تضمنت النوع الثاني؛ وهو الاستعاذة من شر المصائب. أما سورة الناس فتضمنت الاستعاذة من شر المعائب؛ وهو الوسوسة الناجمة عن الشيطان، وهو شر داخل تحت التكليف ويتعلق به النهي[2]؛ لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط ؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»[3].

ثمرات الاستعاذة وآثارها

١. حفظ النفس والمال من تسلط الشياطين.

شرع الله للمسلم أن يستعيذ به لحفظ نفسه وماله. قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧- ٩٨].

قال السعدي: «أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسهم، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم ، وهذه استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان ومن مسه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه؛ سلم من كل شر، ووفق لكل خير»[4].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

قال ابن عاشور: «إن الله ضمن لمن استعاذه أن يعيذه؛ لأنه هو الذي أمر بذلك»[5].

وفي الحديث القدسي: «لئن استعاذني لأعيذنه»[6].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٢٣.
(٢) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢١٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين ٦/ ٨٠، رقم ٨١٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٠٨.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ٢٥/ ٦١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق،

وقال في موضع آخر: «العلة من الاستعاذة أنها تمنع تسلط الشياطين على المستعيذ؛ لأن الله منعهم من التسلط على الذين آمنوا المتوكلين، والاستعاذة منهم شعبة من شعب التوكل على الله؛ لأن اللجأ إليه توكلٌ عليه»[1].

وهذه امرأة عمران تطلب من الله أن يعيذ ابنتها مريم عليها السلام وذريتها من الشيطان الرجيم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦].

وكذلك شرع للمسلم أن يتعوذ بالمعوذتين دبر كل صلاة مرة واحدة ماعدا صلاة الفجر والمغرب فإنه يكررهما ثلاثًا. وشرع كذلك له أن يتعوذ بهما في الصباح والمساء وغير ذلك من المواضع؛ لما لهما من أثر عظيم في حفظ الإنسان من جميع الشرور؛ خاصة في دفع السحر والعين.

قال ابن القيم: «وإن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس»[2].

٢. الهداية إلى الحق.

الاستعاذة بالله سبيل إلى هداية الإنسان إلى طريق الحق، فالشيطان حريص على تلبيس الأمور لدى المؤمن، فيقع محتارًا في الوصول إلى الحق، فإذا استعاذ بالله من الشيطان في ذلك الموقف فإنه بإذن الله تنجلي له الأمور، ويهدى إلى سواء السبيل؛ ولذلك أمر الله عز وجل نبيه أن يستعيذ بالله من حال أولئك الكفار الذين يجادلون في آيات الله، ويصدون عن قبول الحق؛ بسبب كبر في نفوسهم عن اتباع الحق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]. أي: فاستعذ بالله أي من حالهم.

وكذلك استعاذ نبي الله يوسف من أن يأخذ البريء بالمذنب.

قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف: ٧٩].

يقول: إن أخذنا غير الذي وجدنا متاعنا عنده إنا إذا نفعل ما ليس لنا فعله ونجور على الناس[3].

٣. الوقاية من الوقوع في الفعل القبيح.

أرشد الله عز وجل في كتابه الكريم إلى أن الاستعاذة به سبيل إلى الوقاية من الوقوع في الفواحش.

باب التواضع، ١٣/ ١٤٢، رقم ٦٥٠٢.

(١) انظر: المصدر السابق ١٣/ ٢٢٤.

(٢) انظر: بدائع الفوائد ٢/ ١٧٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣ / ٤١ .

قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٢- ٢٣].

فأعاذه الله من ذلك.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

قال ابن عادل في تفسيره: «ذكر يوسف عليه السلام في الجواب في كلامه ثلاثة أشياء:

أحدها: قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

والثاني: قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾.

والثالث: قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

فما وجه تعلق هذه الجوابات بعضها ببعض؟

والجواب: هذا الترتيب في غاية الحسن؛ لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكاليفه أهم الأشياء؛ لكثرة إنعامه وألطافه في حق العبد، فقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أن حق الله يمنع من هذا العمل.

وأيضًا حقوق الخلق واجبة الرعاية، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي؛ فيقبح معاملة إنعامه بالإساءة.

وأيضًا: صون النفس عن الضرر واجب، وهذه اللذة قليلة ، ويتبعها خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة ، وهذه اللذة القليلة إذا تبعها ضرر شديد؛ ينبغي تركها والاحتراز عنها؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

فهذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب»[(١)].

٤. حفظ الأجر والبركة في العمل.

شرع الله للمسلم إذا ابتدأ قراءة القرآن أن يستعيذ بالله؛ سواء في الصلاة أو خارجها؛ حتى لا يصده الشيطان عن تدبر القرآن والعمل بما فيه، فيحفظ له بذلك الأجر، ويبارك الله له في العمل.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

قال الطاهر بن عاشور: «إنما شرعت الاستعاذة عند ابتداء القراءة إيذانًا بنفاسة القرآن ونزاهته؛ إذ هو نازل من العالم القدسي الملكي، فجعل افتتاح قراءته بالتجرد عن النقائص النفسانية التي هي من عمل الشيطان، ولا استطاعة للعبد أن يدفع تلك النقائص إلا أن يسأل الله أن يبعد الشيطان عنه بأن يعوذ بالله»[(٢)].

موضوعات ذات صلة:

الاستعانة، الدعاء، الذكر

---

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ٥٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٢٢.





عناصر الموضوع



مفهوم الاستعانة

أولًا: المعنى اللغوي:

مصدر استعان، وهو من العون بمعنى المعاونة والمظاهرة على الشيء، يقال: فلان عوني، أي: معيني وقد أعنته، والاستعانة: طلب العون.

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

والعون: الظهير على الأمر، الواحد والاثنان والجمع والمؤنث فيه سواء، وقد حكي في تكسيره أعوان، والمعونة: الإعانة، ورجل معوان حسن المعونة، وكثير المعونة للناس. وكل شيء أعانك فهو عون لك، كالصوم عون على العبادة[(١)].

وبذلك نجد أن الاستعانة في لغة العرب بمعنى طلب العون.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لم تخرج الاستعانة في معناها الاصطلاحي عن المعنى اللغوي لها، فالاستعانة في الاصطلاح: طلب الإعانة من الغير[(٢)].

والأصل أن تكون هذه الاستعانة بالله، فهي طلب العون من الله، وتكون الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه.

قال ابن تيمية رحمه الله: «الاستعانة: طلب العون من الله، ويطلب من المخلوق ما يقدر عليه من الأمور»[(٣)].

وبذلك نستطيع أن نقول: إن الاستعانة هي طلب العون؛ لإزالة العجز.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٢٢، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣١٧٩، تاج العروس، الزبيدي ٣٥/ ٤٢٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٣٨.

(٢) انظر: التوقيف، المناوي ص٤٨، زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٢١٨.

(٣) مجموع الفتاوى ١/ ١٠٣.



الاستعانة في الاستعمال في القرآن

وردت مادة (عون) في القرآن (١٠) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان:٤]
الفعل المضارع	١	﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥]
فعل الأمر	٦	﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥]
الاسم المفعول	٢	﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف:١٨]

وجاءت الاستعانة في القرآن بمعناها اللغوي: طلب العون.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٩٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الدعاء:

الدعاء لغة:

مأخوذ من مادة (د ع و) التي تدل في الأصل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومن هذا الأصل: الدعاء في معنى الرغبة إلى الله عز وجل ، وهو واحد الأدعية، والفعل من ذلك دعا يدعو، والمصدر الدعاء والدعوى[(١)].

الدعاء اصطلاحًا:

هو سؤال العبد ربه حاجته.

الصلة بين الاستعاذة والدعاء:

بالتأمل نجد أن الاستعانة أعم من الدعاء، فالدعاء صورة من صور الاستعانة، والاستعانة تكون بالدعاء وبغيره. فكل دعاء استعانة، وليس العكس.

٢ الاستعاذة:

الاستعاذة لغة:

مصدر استعاذ، وهي من مادة (ع وذ) التي تدل على الالتجاء إلى الشيء، ثم يحمل على ذلك كل شيء لصق بشيء أو لازمه[(٢)].

الاستعاذة اصطلاحًا:

هي اللجوء والاعتصام، وطلب كف الشر[(٣)].

الصلة بين الاستعانة والاستعاذة:

الاستعانة أعم من الاستعاذة، فإنهما يجتمعان في طلب كف الشر، وبذلك فالاستعاذة صورة من صور الاستعانة، وتزيد الاستعانة بأنها تكون في تحصيل الخير. فكل استعاذة استعانة، وليس كل استعانة استعاذة.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٠.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٦٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٨٣، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣١٦٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٤.

٣ الاستغاثة:

الاستغاثة لغة:

مصدر استغاث، وهو مأخوذ من الغوث بمعنى: الإغاثة والنصرة عند الشدة[١].

الاستغاثة اصطلاحًا:

طلب الغوث في الشدائد والأزمات[٢].

الصلة بين الاستعاذة والاستغاثة:

بينهما عموم وخصوص من وجه؛ فكل استغاثة استعانة، وليست كل استعانة استغاثة، فالاستغاثة خاصة بالشدائد والمكروبات، والاستعانة عامة فيها وفي غيرها.

٤ التوكل:

التوكل لغة:

مصدر توكل يتوكل، وهو مأخوذ من مادة (و ك ل) التي تدل على اعتماد على الغير في أمر ما، ومن ذلك التوكل وهو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك[٣].

التوكل اصطلاحًا:

صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح ودفع المضار[٤].

الصلة بين الاستعانة والتوكل:

التوكل: هو تفويض الأمر، والاستعانة لا يلزم منها هذا التفويض، وبذلك تكون الاستعانة أعم من التوكل.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٢٨٩، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٠٠، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٣٣١٢.

(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص١٥٩.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٣٦، المفردات، الراغب ص ٥٣١.

(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٧٤.

اقتران الاستعانة بالعبادة

المتمعن في نصوص القرآن يرى اقتران الصلاة بالصبر في عدة مواضع منه؛ كما يلحظ اقتران العبادة بالاستعانة؛ للإشارة إلى الصلة الوثيقة بين هذه الأمور.

وفيما يلي بيان لبعض الحكم من اقتران هذه الأمور ببعضها:

أولًا: اقتران الصبر والصلاة بالاستعانة:

قرن الله بين الصبر والصلاة في موضوع الاستعانة في بعض الآيات.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والمتأمل في اقتران الصبر والصلاة في موضوع الاستعانة، يجد حكمًا كثيرة[١]، منها:

١. الصبر والصلاة يمدان المؤمن بالقوة التي تعينه على احتمال تكاليف العبادة، ومشقة الجهاد، ومدافعة شهوات النفس وأهوائها.

أما الصبر فهو قهر النفس على احتمال المكاره في ذات الله تعالى ، وتوطينها على تحمل المشاق وتجنب الجزع، ومن حمل نفسه وقلبه على هذا التذليل سهل عليه فعل الطاعات، وتحمل مشاق العبادات، وتجنب المحظورات.

والصلاة صلة بين العبد وربه، وهي من أكبر العون على الثبات في الأمر، وأما الاستعانة بها فلأنه يجب أن تؤدى على طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص له، ويجب أن يوفر همه وقلبه عليها، وعلى ما يأتي فيها من قراءة، فيتدبر الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ومن سلك هذه الطريقة في الصلاة فقد ذلل نفسه لاحتمال المشقة فيما عداها من العبادات؛ ولذلك قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

٢. الصبر أشد الأعمال الباطنة على البدن. إذ فيه ضبط النفس، وسيطرة الإرادة على الهوى، وسيطرة العقل على الشهوة، والصلاة أشد الأعمال الظاهرة على البدن؛ إذ فيها خضوع واستسلام لله، وتوجه بالقلب إليه، واستشعار لعظمة الخالق، فجمع بينهما في الاستعانة تنبيهًا على أن الإنسان إذا أتى بهما على وجههما كان متمًا لما عداهما من التكاليف.

٣. الاستعانة بالصبر والصلاة طريق تحقيق

(١) انظر في هذه الحِكَم: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٤٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٢٤، التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٥٥.

الإيمان والذكر والشكر.

قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

[البقرة: ١٥٢ - ١٥٣].

فلما أمر بالذكر والشكر حث على الاستعانة بالصبر والصلاة؛ تنبيهًا على أنه بهما يتوصل إلى الإيمان، فإن الصبر مبدأ الإيمان، والشكر منتهاه.

٤. الطاعات والاستقامة عليها، لها أعباؤها التي تحتاج إلى قوة احتمال ومجاهدة.

ولكي يقوى الإنسان على حمل هذه الأعباء، كان لا بد له من زاد يعينه، ويمسك عليه عزمه ومضاءه.

والصبر والصلاة هما خير ما يتزود الإنسان به؛ لكي يجد من نفسه القدرة على الوفاء ببعض حق الله عليه.

وإذا استعان المؤمن بالصبر والصلاة التي تملأ القلب خشية وخشوعا لله، وتبعد النفس عن الفواحش والمنكرات، هانت عليه المصاعب، وتحمل كل شدة ومشقة، وقاوم كل عناء وكرب.

٥. إطاعة الأوامر الإلهية وعدم مخالفتها تتطلب الصبر.

ومن صبر عن المعاصي فقد صبر على الطاعة، ومن أخص حالات الصبر: الصلاة، فالصلاة فيها سجن النفوس، وجوارح الإنسان فيها مقيدة بها عن جميع الشهوات، فكانت الصلاة أصعب على النفس، وكانت مكابدتها أشق.

٦. الاستعانة بالصبر والصلاة الطريق الأمثل لمواجهة محن الدعوة، من شبهات الأعداء، والصبر على الاستشهاد في الجهاد.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والملاحظ أن هذه الآيات وردت في سياق الحديث عن تحويل القبلة، والاستشهاد في الجهاد، فبعد أن ذكر سبحانه افتتان الناس بتحويل القبلة، وأقام الحجة على المشاغبين.

وبين فوائد التحويل للمؤمنين، ومن أهمها: البشارة، وكون ذلك طريقا للهداية، لما في الفتن من تمييز الخبيث من الطيب، والمسلم من المنافق، ثم قفى على ذلك بالأمر بذكره وشكره على هذه النعم، ليستبين للناس أن تحويل القبلة الذي صوره السفهاء بصورة النقمة هو نعمة كبرى، ومنة عظمى.

بين في هذه الآيات أن هذه النعم التي يجب ذكرها وشكرها تقرن بضروب من البلاء وألوان من المصائب، من أعظمها ما

يلاقيه أهل الحق من مقارعة أشياع الباطل، ومفارقة الحياة استشهادًا في سبيل الله؛ لهذا كله أمر عباده أن يستعينوا على مقاومة ذلك كله بالصبر والصلاة، فبهما يستسهل العبد في سبيل الله كل صعب، ويستخف بكل كرب، ويحتمل كل بلاء، ويقاوم كل عناء.

ثانيًا: اقتران العبادة بالاستعانة:

قرن سبحانه بين العبادة والاستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

واقتران العبادة بالاستعانة وراءه حكم كثيرة[1]، منها:

١. الجمع بين الوسيلة والغاية.

فالعبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، فجمع سبحانه بين أشرف غاية ووسيلتها.

٢. الإشارة إلى كمال التوحيد المطلوب من العباد.

فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تبرؤ من الشرك، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل، فجمع بينهما سبحانه تنبيهًا لعباده إلى كمال التوحيد المطلوب منهم.

٣. بيان أن الاستعانة هي ثمرة التوحيد، واختصاص الله تعالى بالعبادة.

٤. الإشارة إلى أن لزوم الاستعانة في العبادة سبيل السعادة الأبدية.

فالعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة. والاستعانة هي: الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما.

٥. بيان احتياج العباد الدائم إلى الاستعانة بالله في العبادة.

فالله ذكر الاستعانة بعد العبادة، مع دخولها فيها؛ لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى ؛ فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي.

فالاستعانة هي نوع من استصغار العبد حاله بجوار عظمة الله تعالى ، وافتقاره إليه تعالى، وأنه محتاج إليه دائمًا، ولا يركبه غرور الحياة والضلال في أن يقر بنفسه الغرور، وهو استجابة وفهم لقوله تعالى:

(١) انظر في هذه الحكم: مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢١٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٤، فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي ١/ ٤٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي ١/ ٧، الوسيط، طنطاوي ١/ ٢١.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

٦. الإشارة إلى أن الاستعانة لا تكون إلا بمن يستحق العبادة.

فقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة؛ لأن غيره ليس بيده الأمر.

٧. الجمع بين شكر الألوهية والربوبية.

فعبادة الله تعالى هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لألوهيته، واستعانته هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لربوبيته، أما الأول فظاهر؛ لأنه هو الإله الحق فلا يعبد بحق سواه، وأما الثاني: فلأنه هو المربي للعباد، الذي وهب لهم جميع ما تكمل به تربيتهم.

٨. القضاء على الكبر والعجب عند الإنسان.

فإن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يقتضي حصول رتبة عظيمة للنفس بعبادة الله تعالى، وذلك يورث العجب، فأردف بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليدل ذلك على أن تلك الرتبة الحاصلة بسبب العبادة ما حصلت من قوة العبد، إنما حصلت بإعانة الله.

فالمقصود من ذكر قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إزالة العجب، وإفناء الكبر.

الله سبحانه وتعالى هو المستعان

إن المؤمن الذي يريد أن يرتقي في أشرف منازل الآخرة، لا يستطيع أن يرتقي إلا بعد عون الله وتوفيقه له؛ لذلك فالله هو المستعان على الحقيقة دون غيره من الخلق؛ لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل.

وحاجة العبد إلى الاستعانة بالله تعالى لا تعدلها حاجة، بل هو مفتقر إليه في جميع حالاته، فهو محتاج في كل أحواله إلى الهداية والإعانة عليها، ومحتاج إلى تثبيت قلبه على الحق، ومغفرة ذنبه، وستر عيبه وحفظه من الشرور والآفات وقيام مصالحه، وغير ذلك من الحاجات التي لا تنفك عنها لحظة من لحظات حياته، وغيرها كثير مما يكثر احتياجه إليه وافتقاره إلى الإعانة عليه.

والعبد يجد في قلبه كل وقت مطلوبًا من المطلوبات يحتاج إلى الإعانة على تحقيقه.

والله تعالى هو المستعان الذي بيده تحقيق النفع ودفع الضر، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو سبحانه.

وهذا أمر تكرر تأكيده في القرآن العظيم في مواضع كثيرة:

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ

﴿... شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠ - ٢١].

والمقصود: أنه لا يحصل لعبد نفع في أمر من أمور دينه ودنياه إلا بالله، فهو المستعان وحده على كل ذلك.

وكل سبب من الأسباب التي يبذلها العبد لتحقيق النفع أو دفع الضر لا يستقل بالمطلوب، فلا يوجد سبب مستقل بالمطلوب، بل لا بد أن يكون معه سبب مساعد، ولا بد معه أيضًا من انتفاء المانع، ولا يكون كل ذلك إلا بإذن الله.

فالاستعانة بالله تعالى من أجل العبادات وأفضلها، والتي أمر الله بها عباده للحصول على عطائه وكرمه، لذلك كان من أعظم الكلمات التي أمرنا الله بها إذا وقفنا بين يديه في كل ركعة من ركعات صلاتنا أن نقول مخاطبين إياه تبارك وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ما أجمل هذا الدرس العظيم الذي تلقيه علينا الآية الكريمة التي ترشدنا إلى أنه لا يليق بالمسلم أن يغفل عن بارئه طرفة عين في كل شؤونه الدينية والدنيوية.

فالله تبارك وتعالى هو المستعان، الغني عن الظهير والمعين، والشريك والوزير، فلا يحتاج إلى أحد.

وهو سبحانه المستعان الذي لا يطلب العون من أحد، بل كل عبد يطلب منه العون على فعل الطاعات واجتناب المحرمات، وجلب المنافع، ودفع المضار. وهو سبحانه الغني المستعان، والخلق كلهم فقراء إليه، عبيد لديه.

وهو الملك القادر على كل شيء، الذي ليس له شريك في الملك، ولا في الخلق، ولا في الأمر، ولا في الأسماء، ولا في الصفات.

وهو سبحانه الحي القيوم المستعان، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه، بل الخلائق كلها بحاجة إلى الاستعانة به، بل لا قيام ولا حياة ولا وجود لهم إلا به، وبقدرته وقوته وإعانته وحده لا شريك له.

وقد أرشدتنا الآية إلى أن الله هو المستعان في كل الأمور الدينية والدنيوية، فقد «حذف متعلق ﴿نَسْتَعِينُ﴾ الذي حقه أن يذكر مجرورًا بعلى، وقد أفاد هذا الحذف الهام عموم الاستعانة المقصورة

على الطلب من الله؛ تأدبًا معه تعالى»[1].

فلم يذكر المستعان عليه من الأعمال، ليشمل الطلب كل ما تتجه إليه نفس الإنسان من الأعمال الدينية والدنيوية.

وفي اقتران العبادة بالاستعانة في الآية دليل على أن الإنسان لا يقوى على أن يعبد الله إلا إذا أعانه الله تبارك وتعالى.

والملاحظ في آية الفاتحة أنه «قدم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾» وكرر؛ للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين»[2].

وتكرير الضمير المنصوب للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة، ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب.

وقد ذكر الله الاستعانة في الآية بعد العبادة مع دخولها فيها «لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى. فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي»[3].

وقد بين لنا ربنا في كتابه أن أنبياءه ورسله كانوا على يقين بأن الله هو المستعان لا غيره، فقد أخبر عن نبيه يعقوب عليه السلام، لما أتاه بنوه يخبرونه أن يوسف قد مات عليه السلام، فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

فأخبرهم أنه لا يستطيع ولا يطيق أن يتحمل وقع هذه الكلمات، أو يتحمل أثر هذه الكلمات، أو يتحمل فقدان هذا الوليد الحبيب إلى قلبه عليه السلام إلا بأن ينزل عليه العون والتأييد والتثبيت من الله تبارك وتعالى، فكان من يعقوب عليه السلام التسليم لأمر الله تعالى وتوكلٌ عليه.

وقد جمع يعقوب عليه السلام بين الصبر والاستعانة، وهذا «دال على أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى؛ للتغلب على الجزع أو الحزن بسبب الدواعي القوية إليه»[4].

وأخبر الله سبحانه عن نبيه صلى الله عليه وسلم أنه: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

وقبل هذه الآية بيان لسبب هذه المقولة، فقال الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١٧٧، وانظر: الوسيط، طنطاوي ١/ ٢١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٩٤.

﴿لَكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨-١١٢].

فهذه الأوصاف التي يطلقونها على الله تبارك وتعالى انتقاصًا لحقه، والتي يطلقونها على رسول الله صلى الله عليه وسلم تكذيبًا له ورميًا له بالجنون، ورميًا له بالكهانة والشعر والسحر، لا يستطيع قلبه الطاهر صلى الله عليه وسلم أن يتحملها إلا إذا تغمده الله عز وجل بعونه وتأييده وتوفيقه، فقال: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: نسأل ربنا الرحمن، ونستعين به على ما تصفون، من قولكم سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم، فنحن في هذا لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن، الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعناه به.

«وتعريف ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ لإفادة القصر، أي: لا أستعين بغيره على ما تصفون، إذ لا ينصرنا غير ربنا»[(١)].

وكما كانت هذه عقيدة الأنبياء في ربهم، فقد حرصوا على إرسائها في قلوب أقوامهم، فها هو موسى عليه السلام يخاطب بني إسرائيل قائلًا: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فأمرهم بالاستعانة بالله في رد عدوان فرعون وملئه.

وفي ديننا نبدأ كل سور القرآن بالبسملة، وهذا بمثابة الدرس التطبيقي للمسلمين أن يربطوا كل أمورهم بالله، فمنه يستمدون العون، ويستلهمون السداد في القول، والإصابة في العمل، وعليه يتوكلون في كل ما يأتون من أعمال، فلا حول ولا قوة لهم إلا بالله.

فالله سبحانه وتعالى هو المستعان على كل أمرٍ من أمور الخير يجلبها، وعلى كل أمرٍ من أمور الشر يدفعها، على كل أمرٍ من أمور الطاعة يوفق لها، وعلى كل أمرٍ من أمور المعصية يدرأها ويباعد عنها.

قال ابن تيمية رحمه الله: «إن العبد محتاج في كل وقت إلى الاستعانة بالله على طاعته وتثبيت قلبه، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[(٢)].

وقال ابن رجب رحمه الله: «العبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها في الدنيا، وعند الموت، وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٧٥.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/ ٤٥٦.

فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه الله، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به، فصار مخذولا، وهو كذلك في أمور الدنيا؛ لأنه عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه جميعا إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله الله فهو المخذول»[1].

انواع الاستعانة

أولًا: الاستعانة المشروعة

الاستعانة منها ما هو مشروع، وما هو ممنوع، والاستعانة المشروعة منها استعانة بالله، واستعانة بالأعمال الصالحة التي شرعها الله، والتي أمر الله عباده بالاستعانة بها، والحديث هنا عن صور الاستعانة المشروعة:

١ . الاستعانة بالله.

الاستعانة بالله واجبة في كل وقت وحين، وليس لصورها حصر ولا عدد، والحديث هنا عن أهم صور الاستعانة بالله:

- الاستعانة بالله على الطاعة.

إن من أعلى أبواب الاستعانة، الاستعانة بالله تعالى على طاعته، من أداء الواجبات والقيام بفروض الله تعالى.

ولو نظر كل منا في حاله في أمور دينه لوجد أنه يحتاج إلى عون الله تعالى، فلا يستطيع أحد القيام بحق الله تعالى إلا بالاستعانة به على ذلك. قال شيخ الإسلام: «وكل عملٍ لا يعين الله العبد عليه فإنه لا يكون ولا يقع، فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا يدوم ولا ينفع، فلذلك أمر العبد أن يقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

(١) جامع العلوم والحكم ص١٨٢ بتصرف.

[الفاتحة: ٥]، في كل صلاة»[1].

فكل الطاعات التي يقوم بها المسلم هي محض الفضل الإلهي الذي من الله به عليه. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

فكل صلاة نصليها هي بمدد منه، وكذلك كل ذكر نذكره، وكل صالح نقوله، وكل خير نفعله، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]

فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها، في الدنيا وعند الموت وبعده، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه.

وقد أرشد الله عباده إلى الاستعانة به في كل أمورهم، ومنها الطاعات، فقال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وإطلاق الاستعانة من غير متعلق بذكر المستعان عليه من الأمور دال على أنه يستعين الله تعالى في كل أمور حياته، فلم يذكر المستعان عليه من الأعمال؛ ليشمل الطلب كل ما تتجه إليه نفس الإنسان من الأعمال الدينية والدنيوية.

فـ«بعد تقرير الاتجاه إلى الله وحده بالعبادة والاستعانة، يبدأ في التطبيق العملي لها بالتوجه إلى الله.

وفقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل، ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته.. فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته. والتوجه إلى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين. وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه. فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين»[2].

وقد حقق الأنبياء والرسل درجة الاستعانة بالله في أمور دينهم على أفضل صورة وأحسن مثال، فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

إنه يعلن أن الذي يعصم من عبادة الأوثان هو الله، فيلجأ إليه طالبًا منه المعونة على اجتنابها وعدم عبادتها.

وها هو يوسف عليه السلام يستعين بربه على كيد النسوة فيقول: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

فقد استجار بربه واستعان به ليصرف عنه السوء.

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٧٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٥ بتصرف.

ونبينا صلى الله عليه وسلم أفضل المستعينين، وسيد المتوكلين على ربه، كانت حياته كلها استعانة بالله في طاعاته وشؤون دنياه، يرشد صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه فيقول له: «يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعنَ في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»[(١)].

إن هذا التعليم النبوي كما أنه يشي بحاجة العبادة والطاعة إلى العون والمدد الإلهي، فهو يحمل في ثناياه الإعلان عن العجز والضعف البشري أمام القيام بشيء من حق الله تعالى. إن العبد مهما بلغ من قوة، ومهما اجتمع له من نشاط فهو عاجز عن مواصلة الطريق إلى الله إلا بالعون الذي يتنزل عليه من ربه، فلا يغتر بجهده، ولا يدلي بعمله.

إن أعظم الكرامة أن يأتيك مدد ربك، الذي يدفعك لمزيد القرب منه، فتدخل في عبادته -ليس نشيطًا فحسب- بل مشتاقًا لها تجد أنسك فيها.

أما حين لا يكون عون الله، وإنما يوكل العبد إلى نفسه، فإنه يوكل إلى ضعف وعجز وخور ومهانة.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب أبواب فضائل القرآن. باب في الاستغفار، رقم ١٥٢٢، ٢/ ٨٦.
وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

حين لا يعان العبد فإنه يقعد به العجز والكسل عن الكمالات، وتتطامن نفسه إلى الدون، ولا يكون منه شيء نافع، بل تذهب أيامه ولياليه دون شيء يذكر.

نحتاج العون من الله على الذكر وإلا أصاب الألسن خرس عما ينفع، نحتاج العون من الله على الشكر وإلا بطرت النعم ثم محقت، نحتاج العون من الله على حسن العبادة وإلا تحولت عبادتنا إلى صورة لا معنى لها، وإلى مظهر بلا مخبر، فصارت وبالًا على العبد لا له.

إن العبد حين لا يعان على الذكر تغلفه الغفلة، فيترك القرآن أيامًا لا يتلوه، وربما أتى إلى المسجد مبكرًا- لحاجة- فعجزت يده أن تمتد للمصحف الذي لا يبعد عنه غير متر واحد، ويعجز لسانه أو يغفل عن تسبيحٍ هو من أخف الأعمال وأيسرها على اللسان وأثقلها في الميزان، في حين لا يعجز عن ترديد الأغاني، ولا ينقطع صوته عن الحديث في المجالس بما لا فائدة منه!.

وحين لا يعان العبد على الشكر فإنه لا يرى النعم، ولا يحس بقيمتها؛ فلذلك يبطرها، فلا عين تحفظ عن حرام، ولا لسان يحفظ عن رديء الكلام، ولا رجل تمشي إلى صلاة، ولا يدٌ تمتد بالصدقة أو ترفع للدعاء.

وحين لا يعان على حسن العبادة فإنه

يأتيه ما يشغله عن تحسينها والعناية بها، فينشغل ذهنه بما يوهنه، فإن قام إلى الصلاة نقرها نقر الغراب، والتفت فيها التفات الثعلب، وانتهى منها لا يدري ما قرأ، فخرج من صلاته لم يكتب له منها إلا ما عقل، واقتصرت نفسه على الفريضة- على ضعف فيها- فإن صلى نافلة لعظيم الفضل واجتماع الناس عليها- كالتراويح- فإنه يعجز عن الاستمرار إلى آخر الشهر، أو يطلب من يأتي بها على عجل.

فالعبد يحتاج إلى عون الله وفضله؛ لأداء حقه على الوجه الذي يرضيه، ولا يكون ذلك إلا بالاعتماد على الله في جميع طاعاته، والشعور بالحاجة والفقر له، وأن الأمر منوط بتوفيق الله أو الخذلان، والشعور بالضعف والحاجة والفقر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

قال ابن القيم: «﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]، متضمن لكنز من الكنوز؛ وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه»[1].

والخلاصة: أن أعلى الناس قدرًا في أمر الاستعانة هو من يستعين بالله على عبادته، على طاعته؛ لأنه يعلم أنه لا يقدر على الطاعة إلا بتوفيق الله سبحانه وتعالى.

❁ الاستعانة بالله على الأمور الدنيوية.

جميع العباد فقراء إلى الله الغني الحميد، فهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وخزائن العالم بأسرها بيديه، والعبد لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولو ترك لنفسه لحظة ضاع وهلك؛ ولهذا فالعبد في كل لحظة بحاجة إلى ربه ومولاه.

في حاجة إلى الاعتماد على الله في جميع شؤون الحياة، فالله عز وجل هو الذي خلقنا من العدم، وتولى سبحانه وتعالى نشأتنا والقيام على شؤوننا، وأعطانا ما أعطانا من الأسباب التي تمكننا من العيش في الحياة.

هذه الأسباب من سمع، وبصر، وعقل، وأجهزة وأعضاء، لا يوجد لديها قدرة ذاتية للقيام بوظائفها، فالله عز وجل هو الذي يمدها بهذه القدرة لحظة بلحظة ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣].

وهذه هي الحقيقة، فهو سبحانه الذي أضحك وأبكى، وأقام وأقعد، وهو الذي حرك وسكن، ولا غنى لأحد عن الله طرفة عين.

فالحقيقة التي لا مراء فيها أننا جميعًا من الله خلقًا وإيجادًا، وبالله رعاية وإعدادًا

---

(١) الفوائد، ابن القيم ص٢٠٢.

وإمدادًا، فلا حول ولا قوة إلا بالله سبحانه ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل: ٥٣].

وتأسيسًا على ما سبق فالعباد في حاجة إلى عون ربهم على كل شؤون حياتهم الدنيوية، وقد أمر الله عباده بالتوجه إليه، والاستعانة به في أمورهم الحياتية، مبينًا أن ذلك بيده، وليس بيد غيره، فقال في الحديث القدسي: (يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم)[١].

ويظهر من الحديث ضرورة افتقار العبد إلى ربه ومولاه، ووجوب استعانته به في جميع شؤونه الحياتية، وأنه لولا الله لهلك جميع العباد، كما يدل الحديث على أن الله يحب من العباد أن يسألوه مصالح دينهم ودنياهم.

وفي سورة الفاتحة إرشاد إلى استعانة العباد بربهم في جميع شؤونهم، حيث قال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

والمعنى: لك يا ربنا وحدك نخشع ونذل ونستكين، فقد توليتنا برعايتك وغمرتنا برحمتك، فنحن نخصك بطلب الإعانة على طاعتك وعلى أمورنا كلها الدينية والدنيوية، ولا نتوجه بهذا الطلب إلى أحد سواك، فأنت المستحق للعبادة، وأنت القدير على كل شيء، والعليم ببواطن الأمور وظواهرها، لا تخفى عليك طوية، ولا تتوارى عنك نية.

فآية الفاتحة أرشدت إلى الاستعانة بالله في جميع الأمور الدينية والدنيوية، ويظهر ذلك من إعادة الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ مع الفعل الثاني ﴿نَسْتَعِينُ﴾ يفيد أن كلا من العبادة والاستعانة مقصود بالذات، فلا يستلزم كل منهما الآخر؛ ذلك بأن الاستعانة بالله تعالى يجب أن تكون عامة في كل شيء.

والخلاصة: أن «التوكل على الله والاستعانة به خلق جليل يضطر إليه العبد في أموره كلها، دينيها ودنيويها؛ لأنه وإن كان الله تعالى قد أعطى العبد قدرة وإرادة تقع بها أفعاله الاختيارية، ولم يجبره على شيء منها، فإنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، فإذا اعتمد بقلبه اعتمادًا كليًا قويًا على ربه في تحصيل وتكميل ما يريد فعله من أمور دينه ودنياه، ووثق به أعانه وقوى إرادته وقدرته، ويسر له الأمر الذي قصده، وصرف عنه الموانع أو خففها، وتضاعفت قوة العبد وازدادت قدرته؛ لأنه استمد من قوة الله التي لا تنفد ولا تبيد»[٢].

❁ الاستعانة بالله على مواجهة الظالمين.

من الأمور المسلمة أن النصر بيد الله.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧، ٤/ ١٤٩٤.

(٢) فتح الرحيم، السعدي ص١١٧.

قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

والإنسان المسلم في مواجهته مع الظالمين في حاجة إلى عون الله على هؤلاء الطغاة، بأن ينصره ويسدده ويثبته على عقيدته.

وقد اشتمل القرآن على نماذج من الاستعانة بالله على مواجهة الظالمين، منها:

ما أرشد إليه موسى عليه السلام قومه في مواجهتهم مع فرعون وقومه: فلما قال الملأ من قوم فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وأرشدهم موسى عليه السلام فقال: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فههنا أمرهم موسى بشيئين وبشرهم بشيئين: أما اللذان أمر موسى عليه السلام بهما، فالأول: الاستعانة بالله تعالى. والثاني: الصبر على بلاء الله.

وإنما أمرهم أولًا بالاستعانة بالله لأن من عرف أنه لا مدبر في العالم إلا الله تعالى، انشرح صدره بنور معرفة الله تعالى، وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء تعالى وتقديره، واستعداده بمشاهدة قضاء الله خفف عليه أنواع البلاء.

وأما اللذان بشر بهما:

فالأول: قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهذا إطماع من موسى عليه السلام قومه في أن يورثهم الله تعالى أرض فرعون بعد إهلاكه.

والثاني: قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فقيل: المراد أمر الآخرة فقط، وقيل: المراد أمر الدنيا فقط، وهو: الفتح والظفر والنصر على الأعداء، وقيل: المراد مجموع الأمرين.

وقوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى أن كل من اتقى الله تعالى وخافه فالله يعينه في الدنيا والآخرة[1].

فالآيات ترشد إلى أنه ليس لأصحاب الدعوة إلى رب العالمين إلا ملاذ واحد، وهو الملاذ الحصين الأمين، وإلا ولي واحد، وهو الولي القوي المتين. وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي بالنصرة في الوقت الذي يقدره بحكمته وعلمه.

ومن نماذج الاستعانة أيضًا: قصة مؤمن آل فرعون، فقد ذكر الله سبحانه قوله لقومه: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

فبعد أن نصحهم بطاعة الله، والإيمان

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٤٢.

به والدار الآخرة، وخوفهم وحذرهم، لم يطيعوه، فقال لهم: «فستذكرون أني نصحت لكم وذكرتكم، وسوف تندمون حيث لا ينفع الندم، وألجأ إلى الله، وأعتصم به، وأتوكل عليه. إن الله سبحانه وتعالى بصير بأحوال العباد، وما يستحقونه من جزاء، لا يخفى عليه شيء منها»[1].

وكانت نتيجة استعانته بالله، ما ذكره ربنا سبحانه في قوله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

فهذا بيان للعاقبة الطيبة التي أكرمه الله سبحانه بها، بعد صدوعه بكلمة الحق أمام فرعون وجنده. أي: فكانت نتيجة إيمان هذا الرجل، وجهره بكلمة الحق، ونصحه لقومه، واستعانته بالله؛ أن وقاه الله تعالى ما أراده الظالمون به من أذى وعدوان ومن مكر سيئ، ونزل وأحاط بفرعون وقومه سوء العذاب؛ بأن أغرقهم الله تعالى في اليم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

ومن نماذج الاستعانة بالله في مواجهة الظالمين، ما ذكره ربنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم في دعوته قريشًا، فالله أمره أن يبلغهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٨- ١١١].

فبعد أن أورد سبحانه الحجج والبراهين، لإقناع الكافرين بأن رسالة الرسول حق، حتى لم يبق فى القوس منزع، وبلغ الغاية التي ليس بعدها غاية، وبين أن هذا الرسول رحمة للعالمين، وهداية للناس أجمعين، وأن من اتبعه سلك سبيل الرشاد، ومن نأى عنه ضل وسار فى طريق الغواية والعناد- أردف ذلك ما يكون إعذارا وإنذارا، فى مجاهدتهم والإقدام على مناوأتهم، بعد أن أعيته الحيل، وضاقت به السبل، ولم تغنهم الآيات والنذر، فتمادوا في غوايتهم، ولجوا في عنادهم، وأصبح من العسير إقناعهم وهدايتهم.

وبعد هذا البلاغ والبيان أرشده بقوله: ﴿قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

أي: نسأل ربنا الرحمن، ونستعين به على ما تصفون، من قولكم سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم، فنحن في هذا، لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن، الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعناه به.

«وتعريف ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ لإفادة القصر،

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٤٧٢.

أي لا أستعين بغيره على ما تصفون، إذ لا ينصرنا غير ربنا»[١].

وإنما ختم الله هذه السورة بقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ لأنه عليه السلام كان قد بلغ في البيان الغاية لهم، وبلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه، فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفًا أن المقصود مصلحتهم، فإذا أبوا إلا التمادي في كفرهم، فعليك بالانقطاع إلى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق، إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره، وإما بتأخير ذلك، فإن أمرهم -وإن تأخر- قريب[٢].

والخلاصة: أن عقيدة المؤمن الصادق الإيمان لها محوران في مواجهة الأزمات مع الكفار:

المحور الأول: هو تفويض الأمر إلى الله وتوقع الفرج من عنده، وهذا ما أمر به الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وانصرني عليهم.

المحور الثاني: هو الاستعانة بالله القوي الغالب، وهذا ما ختمت به السورة: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي ما تصفونه من الكفر والتكذيب، والطمع في الغلبة على أهل الإيمان.

٢. الاستعانة بالأعمال الصالحة.

من صور الاستعانة المشروعة، الاستعانة بالأعمال الصالحة التي شرعها الله، وإذا تأملنا القرآن وجدنا أن الله أمر عباده بالاستعانة ببعض الأعمال الصالحة، ومنها الصبر والصلاة، فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

فالصبر والصلاة هما الزاد الذي يمد المؤمن بالقوة التي تعينه على احتمال تكاليف العبادة، ومشقة الجهاد ومدافعة شهوات النفس وأهوائها. وهناك أمور يتأكد عندها أهمية الاستعانة بالصبر والصلاة، منها:

- حين يتعرض المؤمنون للبلاء: في دينهم وأنفسهم، في أموالهم أو أعراضهم، فحينئذ يتأكد عليهم الفرار إلى الله عز وجل والاستعانة به، وأعظم ما يتم به هذا الفرار هو الاستعانة بالصبر والصلاة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

بعد هذه الآية ذكر الله أعظم شيء يستعان

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٧٥.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٩٦.

عليه بذلك، وهو القتل في سبيل دعوة الحق وحمايته، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

أي: استعينوا على إقامة دينكم والدفاع عنه، وعلى سائر ما يشق عليكم من مصائب الحياة، بالصبر وتوطين النفس على احتمال المكاره، وبالصلاة التي تكبر بها الثقة بالله عز اسمه، وتصغر بمناجاته فيها كل المشاق.

وإنما خص الصبر والصلاة بالذكر، لأن الصبر أشد الأعمال الباطنة على البدن، والصلاة أشد الأعمال الظاهرة عليه، إذ فيها خضوع واستسلام لله، وتوجه بالقلب إليه، واستشعار لعظمة الخالق.

وقد امتثل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هذا الأمر الإلهي، فقد ورد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[1].

وورد أن ابن عباس رضي الله عنهما «نعي إليه أخوه قُثَم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحى عن الطريق، فأناخ، فصلى ركعتين، أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾»[2]

❁ عند مواجهة الفتن الكثيرة: من شهوات الدنيا، وحب الرياسة والظهور.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

والخطاب هنا لبني إسرائيل لما أعرضوا عن قبول رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، فأرشدهم الله إلى علاج ذلك بالصبر والصلاة، أي استعينوا على ترك ما تحبون من شهوات الدنيا، والدخول فيما تستثقله نفوسكم من قبول الإسلام، والتقيد بتكاليفه بفضيلة الصبر التي تحجز أنفسكم من غشيان الموبقات، وبفريضة الصلاة التي تنهاكم عن الفحشاء والمنكر.

❁ عند مواجهة شبهات الأعداء.

والخلاصة: أن الله خص الاستعانة بالصبر والصلاة لما فيهما من المعونة على العبادات، وتحمل المشاق.

ثانيًا: الاستعانة الممنوعة:

الاستعانة هي طلب العون من الله جل وعلا في الحصول على المطلوب والنجاة من المرهوب.

والاستعانة عبادة يجب صرفها لله وحده، وهي التي يصحبها معانٍ تعبدية تقوم

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٣٢٩٧، ٣٨/ ٣٣٠، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، رقم ١٣١٩، ٢/ ٣٥.
وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٥٣.

في قلب المستعين من المحبة والخوف والرجاء والرغب والرهب، فهذه عبادة لا يجوز صرفها لغير الله، ومن صرفها لغيره فهو مشرك. وقد قال الله تعالى فيما علمه عباده المؤمنين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وتقديم المعمول يفيد الحصر، فيستعان بالله وحده، ولا يستعان بغيره.

فإذا استعان الإنسان بغيره بهذه المعاني المذكورة فإنه يكون قد دخل في الاستعانة الممنوعة، وهذه الاستعانة الممنوعة لها صور عديدة، وهي:

١ . الاستعانة بالأموات والمعبودين من دون الله.

الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ممنوعة، كإجابة الدعاء وكشف البلاء، والهداية، والإغناء، ونحو ذلك، فالله تعالى هو المتفرد بذلك، والقرآن من أوله إلى آخره مليءٌ بالنصوص الدالة على أن الله وحده هو الذي بيده الخفض والرفع، والضر والنفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والهداية والإضلال.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ جدًا.

وقد أمر الله عباده أن يدعوه وحده، ولم يجعل بينه وبينهم واسطةً في الدعاء، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وبين تعالى ضلال من دعا غيره فقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦].

ونحن في كل ركعةٍ من ركعات الصلاة نفرد الله بالاستعانة به على كل أمورنا، ونخصه بذلك في قولنا ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وقد وصى النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه عبد الله بن عباس بوصيةٍ جامعة، وكان من بين جملها الرائعة: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»[(١)].

وقد بين القرآن أن المعبودات من دون الله لا تملك أي وسيلة من وسائل الإدراك أو النفع أو دفع الضر عن نفسها، فضلًا عن عابديها، فكيف يعبدونها من دون الله تعالى؟!

فنفى القرآن العقل صراحة عن الآلهة التي عبدها المشركون من دون الله، ونفي العقل عنها هو بيت القصيد، والأصل لما

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٥٩، رقم ٢٥١٦، ٤/ ٦٦٧.
وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

بعده؛ إذ ما فائدة السمع والبصر والنطق من غير العقل؟!

فهو وحده كافٍ في نفي ألوهية هذه الأوثان، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣].

وهنا «يقول تعالى ذاما المشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالًا من الحيوان بكثير»(١).

ونفى القرآن عن الأوثان أيضًا السمع والبصر والنطق، ومن ثم فلم يكن لديها أي سبب من أسباب العبادة، فعلام يعكف هؤلاء الوثنيون على عبادتها ودعائها من دون الله تعالى؟!

وأكثر القرآن الكريم من وصف المعبودات بأنها لا تملك لعابديها دفع ضر أو جلب نفع، حتى أربت مواطن الحديث عن هذا الوصف على عشرة مواطن، وتنوعت فيها الأساليب، فمنها ما ورد بصيغة الخبر، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

ومنها ما ورد بصيغة النفي، مثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

ومنها ما ورد بصيغة النهي، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

أما ما ورد بصيغة السؤال فكثير، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]. وغيرها من الآيات.

ومن الصفات التي وصف بها القرآن المعبودات من دون الله: أنها لا تستطيع أن تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة لله رب العالمين، فهي لا تستطيع أن تخلق شيئًا على الإطلاق، ولا تملك مثقال ذرة من ذلك، فكيف تملكه لعابديها! وجاء هذا الرد في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٠٢.

تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

والآيات في هذا الشأن وفيرة ومتنوعة.

ومن الأدلة الظاهرة الواضحة على أن الأموات لا يملكون نفعًا ولا ضرًا: قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه للعباس عندما وقع الجدب: كنا إذا أجدبنا توسلنا بدعاء نبينا، فقم يا عباس! وادع الله لنا، فقام العباس ودعا[1]، ولم يذهب هو أو عمر إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيقول: يا رسول الله! أجدبنا فاستسق لنا؛ لأنهم يعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يملك ضرًا ولا نفعًا، فهذه دلالة على أن الأموات لا يملكون شيئًا.

وبناء على ما سبق فالاستعانة بالأموات والمعبودات من دون الله في قضاء الحوائج وسؤالهم والاستعانة بهم كما يفعله عباد القبور والأولياء شرك أكبر؛ فإنه يقوم في قلوبهم من العبوديات لمن يدعونهم ويستعينون بهم ويستعيذون بهم ويستغيثون بهم ما هو من أعظم الشرك والكفر بالله، وهذا شرك أكبر يخرج من الملة؛ لأن الاستعانة بالله تعظيم لله، فمن استعان بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله، فقد ساواه بالله تعالى في التعظيم، وهذا شرك أكبر.

قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

والموتى والمقبورون وإن كانوا من الأولياء الصالحين، بل من الأنبياء المقربين فإن صلاحهم لأنفسهم ونفع تقواهم لهم، أما أن يستعان بهم في كشف الكروب ودفع الخطوب، فهذا ما كان أهل الجاهلية يفعلونه حين يصرفون لهم الدعاء، بزعم أنهم يقربونهم إلى الله، وأن الله لا يرد شفاعتهم لصلاحهم.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

يقول ابن القيم عن هذا المظهر من مظاهر الشرك -أي طلب الحوائج من الموتى والاستعانة بهم، والتوجه إليهم-: «وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضرًا

---

(١) انظر: المجالسة، الدينوري، رقم ٧٢٧.

ولا نفعًا، فضلًا عمن استعان به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها. والميت محتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له، كما أوصانا النبي صلى الله عليه وسلم إذا زرنا قبور المسلمين (أن نترحم عليهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة)[1]. فعكس المشركون هذا، وزاروهم زيارة العبادة، واستقضاء الحوائج، والاستعانة بهم، وجعلوا قبورهم أوثانًا تعبد»[2].

وخلاصة القول: أن من استعان بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فقد كفر بالله جل في علاه؛ لأنه أنزل المخلوق منزلة الخالق.

٢. الاستعانة بالمخلوق في أمور غيبية.

المراد بالغيب: ما غاب عن الناس من الأمور المستقبلة والماضية وما لا يرونه. وقد اختص الله تعالى بعلمه.

قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

فلا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وحده، فلا يعلم الغيب ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلًا عمن هو دونهما.

وقد يطلع الله عز وجل رسله على ما شاء من غيبه لحكمة ومصلحة.

قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

أي: لا يطلع على شيء من الغيب إلا من اصطفاه لرسالته، فيظهره على ما يشاء من الغيب؛ لأنه يستدل على نبوته بالمعجزات؛ التي منها الإخبار عن الغيب الذي يطلعه الله عليه، وهذا يعم الرسول الملكي والبشري، ولا يطلع غيرهما؛ لدليل الحصر.

وقد قسم العلماء الغيب إلى قسمين:

الأول: الغيب المطلق أو الحقيقي: وهو أن يغيب عن الحواس والعقول معا، وهو المقصود عند الإطلاق، مثل الأمور الخمسة الواردة في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة

(١) فقد ورد عن بريدة،رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية».
أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم ٩٧٥، ٢/ ٦٧١

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٥٣.

إلا الله»[1].

الثاني: الغيب النسبي أو المقيد: وهو ما يغيب عن بعض المخلوقين دون بعض، كالذي يعلمه الملائكة عن أمر عالمهم دون البشر، وكالذي يعلمه بعض البشر دون بعض، مثل: العلم بالأقطار النائية والطبقات الأرضية، والأمور الطبية، ونحو ذلك، ومن ذلك: أن يغيب الشيء عن حس الناس جميعًا، ولكنه يكون في متناول عقولهم، إما بالتجربة أو المقايسة، كعلم ما سيقع في المستقبل من الكسوف والخسوف، والشروق والغروب، ومنازل القمر، ونحو ذلك، استنباطًا من التجارب الكونية والسنن الربانية.

فمن ادعى علم الغيب بأي وسيلة من الوسائل غير من استثناه الله من رسله، فهو كاذب؛ سواء ادعى ذلك بواسطة قراءة الكف أو الفنجان، أو الكهانة، أو السحر، أو التنجيم، أو غير ذلك، وهذا الذي يحصل من بعض المشعوذين والدجالين؛ من الإخبار عن مكان الأشياء المفقودة والأشياء الغائبة، وعن أسباب بعض الأمراض، فيقولون: فلان عمل لك كذا وكذا فمرضت بسببه، وإنما هذا لاستخدام الجن والشياطين.

وقد يكون إخبارهم بذلك عن طريق التنجيم، وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر، وتغير الأسعار، وغير ذلك من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها وافتراقها. ويقولون: من تزوج بنجم كذا وكذا، حصل له كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا حصل له كذا، ومن ولد بنجم كذا وكذا حصل له كذا؛ من السعود أو النحوس، كما يعلن في بعض المجلات الساقطة من الخزعبلات حول البروج؛ وما يجري فيها من الحظوظ[2].

وقد يذهب بعض الجهال وضعاف الإيمان إلى هؤلاء المنجمين، فيستعين بهم ويسألهم عن مستقبل حياته، وما يجري عليه فيه، وعن زواجه وغير ذلك.

ومن ادعى علم الغيب أو صدق من يدعيه، فهو مشركٌ؛ لأنه يدعي مشاركة الله فيما هو من خصائصه، والنجوم مسخرة مخلوقة، ليس لها من الأمر شيء، ولا تدل على نحوس، ولا سعود، ولا موت، ولا حياة، وإنما هذا كله من أعمال الشياطين الذين يسترقون السمع.

وقد ورد النهي عن ذلك في بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، منها:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التوحيد. باب قول الله: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا)، رقم ٧٣٧٩، ٩/ ١١٦.

(٢) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٠/ ٢٣١-٢٣٢، فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٢١٧.

عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء فصدقه، لا تقبل له صلاة أربعين يومًا»(١).

وعن عمران بن حصين مرفوعًا: «ليس منا من تَطير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهن له، أو سَحر أو سُحر له، ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم»(٢).

وأما حكم هؤلاء الدجالين والمشعوذين، ومن يدعون علم الغيب، ومن يذهب إليهم، فحكمهم فيما يلي(٣):

أن الذين يدعون علم الغيب: إن كانوا من أولياء الشيطان الذين تتنزل عليهم الشياطين فهم كفار.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣].

وقد نص القرآن على أن الذين تنزل عليهم الشياطين هم أولياء الشياطين ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ومن كان وليًا للشيطان لا يمكن أن يكون وليًا للرحمن ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

وإن كان من أدعياء الغيب الذين يدجلون على الناس، ويقولون بالخرص والتخمين، ولكنهم يخدعون الناس زاعمين أن لديهم القدرة على الاطلاع على الغيب من خلال الخط بالرمل، والنظر في اليد والفنجان وما أشبه ذلك؛ فهؤلاء ضالون يستحقون التأنيب والتعزير، ولا نحكم عليهم بالكفر ما لم يعتقدوا حل ذلك.

ومثل هذا يقال في الذين يأتون الكهان، فإن كانوا جازمين باستباحة ذلك، وصدقوهم فيما يدعون فهذا كفر؛ لأن هؤلاء كذبوا الله في خبره أنه وحده عالم الغيب ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[النمل: ٦٥].

وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

وقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام: ٥٩].

وقد سئل الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى عن قوله صلى الله عليه وسلم:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، رقم ٢٢٣٠، ٤/ ١٧٥١.

(٢) أخرجه البزار في مسند، ٩/ ٥٢. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥/ ٢٢٨.

(٣) انظر: شرح السنة، البغوي ١٢/ ١٨٣، مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٣٥/ ١٩٢.

«من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد». هل هذا الكفر ناقل عن الملة ؟ فأجاب «اختلف أهل العلم فيه، فقيل: إنه لا يخرجه من الإسلام، بل هو من العصاة من أهل الإسلام المتغلظة معاصيهم، وإلا لو كان كافرًا لما قيد الوعيد بأربعين، يعني قوله: «لم تقبل له صلاة أربعين يوما».

وقيل: إن هذا الحديث من أحاديث الوعيد فيُمَرُّ كما جاء، ولا يتعرض له بتأويل، وهذا قول أحمد وعامة السلف؛ لأن ذلك أبلغ في الردع عن الجرائم. فالأول ليس من التأويل، وهو تأدب في المعنى مع اللفظ، والثاني تأدب مع اللفظ، وكلٌ مصيب»[1].

والراجح أن أحاديث الوعيد تُمَرُّ كما جاءت، ولا يتعرض لها بتأويل؛ لأن ذلك أبلغ في الردع عن الجرائم.

وكذلك المنجم والضارب بالحصى والودع، لكن عدم كفر الواحد منهما ما لم يعتقد إباحته، فإن اعتقد إباحته فهو مرتد.

وخلاصة القول: إن الواجب على كل مسلم أن يحذر من الدجاجلة والكذابين المدعين لعلم الغيب، المفترين على الله، الذين ضلوا في أنفسهم وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل، كالسحرة والكذابين والمنجمين، وقارئي الفناجين، وضاربي الرمل ونحو ذلك ممن يدعون قراءة الكف والأبراج وغيرهم، فلا يستعين بهم في أمر من الأمور، وخاصة الغيبية.

٣. الاستعانة بالجن:

جعل الله بحكمته الباهرة بين الثقلين حواجز، ومخاوف، واختلافًا بين الطبيعتين؛ ليعبد كل منهما ربه كما شرع له، من غير استعانة بالآخر، وإذا ما استعان أحدهما بالآخر ففي حدود ضيقة بما شرع لهما، وبضوابط دقيقة لا يحسنها إلا أهل العلم الراسخون فيه حتى لا يقع منكر، إلا أن الشياطين من الجن والإنس خالفوا أمر ربهم، وقالوا وعملوا ما لم يشرعه لهم، وحرص إبليس وجنوده على هذه المسألة؛ لأنها من أعظم طرقهم في الإضلال والتلبيس.

ولهذا التجاوز للمشروع حصل كثير من المنكرات العظيمة في هذين البابين، ووقع في الشرك والكفر بسبب هؤلاء الشياطين - وهم كفرة الجن- أو فساقهم أكثر الخلق من قديم الزمان- نسأل الله العافية-كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠- ٢١]

ويتأمل كلام أهل العلم في مسألة

(١) مجموع فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ١/ ١٦٤.

الاستعانة بالجن نجد أنها أربعة أنواع، ولكل نوع حكم خاص[(١)]:

النوع الأول: استعانة بالجن تفضي إلى وقوع الشرك الأكبر من أحد الطرفين، وهذا كفر لا نزاع فيه، وهي مثل أن يستعين بهم الإنسي أو يستغيث فيما لا يقدر عليه إلا الله، وهذا شرك ممنوع باتفاق المسلمين.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قال أبو جعفر بن جرير: «يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هؤلاء النفر: وأنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال من الجن في أسفارهم إذا نزلوا منازلهم، وكان ذلك من فعلهم فيما ذكر لنا».

ثم روى عن ابن عباس أنه قال: كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي، فزادهم ذلك إثمًا.

وروى عن الحسن أنه قال: كان الرجل منهم إذا نزل الوادي فبات به قال: أعوذ بعزيز هذا الوادي من شر سفهاء قومه[(٢)].

وقد بين تعالى أن هذه الاستعانة كانت سببًا للخلود في النار، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

النوع الثاني: استعانة بهم هي تعاون على الإثم والعدوان لا تصل إلى الكفر، كأن يقدم أي طرف منهما للآخر أي شيء فيه معصية، فهو محرم بالاتفاق أيضًا.

ومثال هذا النوع، أن يسرق له الجني مالًا، أو يتعاونا على أكل أموال الناس بالباطل بأي نوع من أنواع الحيل أو غيرها، أو في الفواحش.

يقول شيخ الإسلام: «وآخرون شر من هؤلاء يستخدمون الجن في أمور محرمة، من الظلم والفواحش، فيقتلون نفوسًا بغير حق، ويعينونهم على ما يطلبونه من الفاحشة، كما يحضرون لهم امرأة أو صبيًا أو يجذبونه إليه. وآخرون يستخدمونهم في الكفر، فهذه الأمور ليست من كرامات الصالحين، وأما استخدامهم في المحرمات فهو حرام»[(٣)].

النوع الثالث: أن يستعين الإنسي بهم على مباحات وبسبب مباح، ولكن استعانة تفضي إلى محرم أو شرك، فهو حرام أيضًا أو شرك أصغر؛ لأن «الوسائل لها حكم المقاصد»، فيمنع من ذلك بناءً على القاعدة

(١) انظر في هذه الأنواع: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٣/ ٩١-٩٢، ١١/ ٣٠٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٢٢.
(٣) النبوات، ابن تيمية ص١٢٥.

المتينة الأصيلة قاعدة «سد الذرائع»، وقواعد درء المفاسد الراجحة أو المساوية للمصلحة، فما أفضى إلى محرم فهو محرم على التحقيق، وإن كان في الأصل مباحًا.

النوع الرابع: الاستعانة بهم على مباحات، وبأسباب مباحة، ولا يفضي ذلك إلى محرم، وليس ذريعة إليه؛ كالاستعانة بالجن في الرقية والعلاج ونحو ذلك، فهذه التي حصل فيها النزاع بين أهل العلم ما بين مجيز بضوابط[1] ومانع[2].

والراجح في هذه المسألة أن الاستعانة بالجن في الرقية والعلاج ونحو ذلك محرمة ويجب المنع منها والتحذير، وعدم التهاون فيها؛ لأنها شديدة الخطورة، وإفضاؤها إلى المحرم قريب، وخاصة في هذه الأزمان، وأما في غير ذلك من المباحات فبالضوابط التي ذكرها المجيزون، ويكون الحكم: إما الكراهة الشديدة، وإما التحريم على القول الآخر.

وأختم هذه المسألة بقول سيد قطب رحمه الله عند كلامه على قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢].

فعندما أسلم نفر من الجن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾.

«فهم يعرفون قدرة الله عليهم في الأرض، ويعرفون عجزهم عن الهرب من سلطانه سبحانه والإفلات من قبضته، والفكاك من قدره. فلا هم يعجزون الله وهم في الأرض، ولا هم يعجزونه بالهرب منها. وهو ضعف العبد أمام الرب، وضعف المخلوق أمام الخالق، والشعور بسلطان الله القاهر الغالب. وهؤلاء الجن هم الذين يعوذ بهم رجال من الإنس! وهم الذين يستعين بهم الإنس في الحوائج! وهم الذين جعل المشركون بين الله سبحانه وبينهم نسبًا! وهؤلاء هم يعترفون بعجزهم وقدرة الله، وضعفهم وقوة الله، وانكسارهم وقهر الله، فيصححون، لا لقومهم فحسب بل للمشركين كذلك، حقيقة القوة الإلهية الغالبة على هذا الكون ومن فيه»[3].

ثالثًا: الاستعانة المباحة:

من الأسباب التي شرع الله الأخذ بها الاستعانة بالمخلوق الحاضر القادر على أمر يقدر عليه، وهذه على حسب المستعان عليه، فإن كانت على بر أو مباح فهي جائزة للمستعين مشروعة للمعين.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١١/ ٣٠٧، المدخل، ابن بدران ص٤٣٨، القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ٢/ ٥٠.

(٢) انظر: الأحكام السلطانية، أبو يعلى الفراء ص٣٠٨، المغني، ابن قدامة ١٢/ ٣٠٤.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٧٣٢.

وهذه الاستعانة تكون في الأمور الدينية والدنيوية، فالاستعانة الدينية: كأن يستعين بمن تقدمه في طلب العلم أن يتعلم منه، أو يستعين بالقارئ المتقن أن يضبط له الحروف ويضبط له القراءات، أو يستعين بالمفتي أن يفتي له، أو يستعين بالحاج العالم في مناسك الحج أن يبين له مناسك الحج.

وأما الاستعانة في الأمور الدنيوية: كأن يقترض قرضًا، أو يأخذ مالًا، أو هبة من أخيه، فهذه الاستعانة تجوز، وليس فيها ثمة شيء.

والدليل على ذلك عموم قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

فهذه استعانة أباحها الله جل في علاه في كتابه، وأيضًا عموم قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»[١]. وهذه كأنها أمر من النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء»[٢]. فهذه أيضًا من باب التعاون على البر والتقوى.

ومما ذكره القرآن من أمثلة على الاستعانة في أمور البر بالحي القادر: ما جاء في قول موسى عليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه: ٢٩-٣١].

قال مقاتل بن سليمان: «﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ يقول: اشدد به ظهري، وليكون عونًا لي، وأشركه في أمري الذي أمرتني به، يتعظون لأمرنا، ونتعاون كلانا جميعًا»[٣].

وقال السعدي: «علم عليه الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان، ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل، وغيره من أنواع العبادات»[٤].

وقال المراغي: «أي أحكم به قوتي، واجعله شريكي في أمر الرسالة؛ حتى نتعاون على أدائها على الوجه الذي يؤدي إلى أحسن الغايات، ويوصل إلى الغرض على أجمل السبل»[٥].

وكذلك ما قصه القرآن عن ذي القرنين.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنملة، رقم ٢١٩٩، ٤/ ١٧٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، رقم ١٤٣٢، ٢/ ١١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام، رقم ٢٦٢٧، ٤/ ٢٠٢٦.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٢٦.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٠٤.

(٥) تفسير المراغي ١٦/ ١٠٧.

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ [الكهف: ٩٣- ٩٥].

بعد أن ساهم ذو القرنين في نهوض الشعوب البدائية الفقيرة وتنويرها في أقصى الغرب والشرق، توجه بهذا الخير إلى موضع عبر عنه القرآن بأنه بين السدين، منطقة يحيط بها جبلان شاهقان وعران، حيث يتسلل المفسدون من قوم يأجوج ومأجوج إلى البلاد المجاورة، ينهبون ثرواتها ويعيثون فيها فسادًا، فطلب أولئك المستضعفون المنكوبون من ذي القرنين أن يحميهم من أولئك المعتدين، واقترحوا عليه أن يبني سدًا منيعًا يحجزهم، على أن يجمعوا له ما يشاء من أموال وثروات، فقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾.

أجابهم هذا القائد الزاهد والإمام الراشد إلى مطلبهم دون مقابلٍ، فهو صاحب رسالة إصلاح يؤديها في ربوع الكون، فهل يطمح إلى أعراض الدنيا الزائلة أم يجنح إلى همم قاصرة؟ وقد وهبه الله تعالى من العلم والتمكين والفهم والتوفيق ما زاده طاعة وانقيادًا، وعزمًا واجتهادًا؛ في غرس بذور الخير أينما حل.

«قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني من السد بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطأه لي، وقواني عليه، خيرٌ من جعلكم، وأجرتكم التي تعرضونها علي لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، أعينوني بفعلة وصناعٍ يحسنون العمل والبناء»[1].

«وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين في هذه المحاورة؛ فإن القوم لو جمعوا له خرجًا لم يعنه أحد ولوكلوه إلى البنيان، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل، وربما أربى ما ذكروه له على الخرج»[2].

ومن صور الاستعانة المباحة في أمور البر التي وردت بها السنة: دعاء الصالح الحي، فقد ثبت في صحيح مسلم أن أهل الكوفة وفدوا إلى عمر، وفيهم رجل ممن كان يسخر بأويس، فقال عمر: هل هاهنا أحد من القرنيين؟ فجاء ذلك الرجل، فقال عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال: «إن رجلًا يأتيكم من اليمن يقال له أويس، لا يدع باليمن غير أم له، قد كان به بياض، فدعا الله فأذهبه عنه، إلا موضع الدينار أو الدرهم، فمن لقيه منكم فليستغفر لكم»[3].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١١٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٦٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل أويس القرني، رقم ٢٥٤٢،

وورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للعباس عندما وقع الجدب: كنا إذا أجدبنا توسلنا بدعاء نبينا، فقم يا عباس! وادع الله لنا، فقام العباس ودعا[1].

خلاصة القول: إن الاستعانة المباحة هي: استعانة بالآخرين فيما يقدرون عليه، ولابد من ثلاثة شروط فيمن يستعان بهم: أن يكون حيًا حاضرًا قادرًا، فلو تخلف واحد من الثلاثة فهي استعانة شركية محرمة.

أقسام الناس في الاستعانة

الناس في الاستعانة على أقسام، وبيانها فيما يلي[2]:

الأول: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها:

أفضل أنواع الاستعانة وأكملها وأحبها إلى الله: الاستعانة بالله على طاعة الله، وكلما كان المؤمن أشد حبًا لله، ورجاء في فضله، وخوفًا من سخطه وعقابه كان على هذا الأمر أحرص، وعرف أن حاجته إليه أشد.

والمؤمن مأمور بأن يستعين الله تعالى في جميع شؤونه، حتى في شسع نعله، فإنه إذا لم ييسره الله لم يتيسر.

وهذا هو دأب الصالحين، ودأب خيار الناس، ودأب الصلحاء من البشر الذين استعانوا بربهم على إقامة الدين، وهؤلاء البشر هم الأنبياء والمرسلون الذين استعانوا بربهم، وأظهروا لنا هذه العبادة الجليلة.

فهذا خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام كان يقول: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وأيضًا قال نوح عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ

---

(١) انظر: المجالسة، الدينوري، رقم ٧٢٧.

(٢) انظر في هذه الأقسام: مدارج السالكين ١/ ٩٠- ٩٤.

٤/ ١٩٦٨.

﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس:٧١].

لا يقول لهم: كفوا عني أو ابتعدوا عني، ولا تؤذوني، وإنما يقول لهم: اجمعوا كل ما عندكم أنتم وشركاؤكم، وكيدوني بكل ما تقدرون عليه من كيد ولا تؤخروني لحظة، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن عليكم أمركم غمة، لا ترددوا ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ لأنه توكل على الله عز وجل ، واستعان بربه سبحانه وتعالى.

وقال هود عليه السلام مثلها حين قال قومه له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥].

﴿فَكِيدُونِى﴾ أي اجتمعوا على كيدي ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي لا تؤخروني ولا تعطوني مهلة، لماذا؟

﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

سبحان الله! هذا القدر العظيم من التوكل على الله والاستعانة بالله جعله يحثهم -استهتارًا بمكرهم واستهانة بملكهم وتخطيطهم- يحثهم على أن يكيدوا له، وأن يجتمعوا على ذلك؛ لأنه متوكل على من خلقهم ومستعين بمن نواصيهم بيده ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾.

وهذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أكثر ما يكون في حياته اليومية أنه يستعين بالله، وكان دائمًا يقول كما في الترمذي بسند صحيح: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[(١)].

لذلك فما من نبي وما من صالح إلا قد استعان بالله على طاعة الله.

وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على غرس هذه المعاني العظيمة في قلوب أصحابه وأمته، فقد قال في الوصية الجامعة لابن عباس: «وإذا استعنت فاستعن بالله»[(٢)].

وقال صلى الله عليه وسلم: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز»[(٣)].

فالحرص على ما ينفع عام في أمور الدين والدنيا.

والاستعانة بالله تكون بطلب عونه وتأييده وتحقيق ما ينفع.

والعجز هو ترك بذل السبب مع إمكانه؛ فنهي عنه.

وقد رتب النبي هذه الكلمات الثلاث

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم ٢٦٦٤، ٤/ ٢٠٥٢.

ترتيبًا بديعًا لتوافق الحال؛ فإن معرفة المطلوب ومعرفة نفعه والحرص عليه متقدمة على الاستعانة على تحقيقه، وبعده الاستعانة؛ فيطلب العون من ربه على تحقيق ما ينفعه، وأن يهديه لكيفية تحصيله، ثم يبذل الأسباب التي أذن الله بها.

فالاستعانة بالله لا تعني إهمال الأخذ بالأسباب، ولا التعلق بالأسباب على أنها الفاعلة، إنما القلب يتعلق بالله، والجوارح تعمل بالأسباب التي هيأها الله في الكون.

وخلاصة القول: إن أفضل الخلق هم الذين أخلصوا العبادة والاستعانة لله تعالى، فحققوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وهؤلاء بأفضل المنازل؛ فإنهم استعانوا بالله تعالى على عبادة الله، وحققوا المعنى الحقيقي للاستعانة، وذلك بأمرين:

أحدهما: التجاء القلب إلى الله تعالى، والإيمان بأن النفع والضر بيده، وأنه مالك الملك ومدبر الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه سميع عليم وقريب مجيب، فيستعين به راجيًا إعانته.

والآخر: بذل الأسباب التي هدى الله إليها وبينها، فيبذل في كل مطلوب ما أذن الله تعالى به من الأسباب.

الثاني: أهل الإعراض عن العبادة والاستعانة به في مرضاته:

من الناس من يغلب عليه الاستعانة بالله لتحقيق المطالب الدنيوية حتى تشغله عن المطالب الأخروية، فإن تحقق له ما يطلب من أمور الدنيا فرح به، وإن حرمه ابتلاء واختبارًا جزع وسخط؛ فهذا النوع في قلوبهم عبودية للدنيا، وقد تعجل لهم مطالبهم فتنة لهم، ثم تكون عاقبتهم سيئة؛ فإنهم شابهوا الكفار فيما ذمهم الله به.

فقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾

[الإسراء: ١٨ - ٢١].

وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا

﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥- ١٦].

وأصل بلاء الكفار إيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦- ١٧].

وقال: ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢- ٣].

وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۝ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧- ٣٩].

فهذا القسم هم الذين استعانوا بربهم، لكن ما استعانوا على العبادة، وإنما استعانوا على رغيف العيش، واستعانوا على الدرهم والدينار، واستعانوا على الدنيا، فهؤلاء ما استعانوا الاستعانة الحقة، فالاستعانة الحقة: أن يستعين بقدرة الله على عبادة الله جل في علاه، والله قد تكفل لهم بهذا الرزق، لكنهم لما جهلوا جهلًا مركبًا قالوا: الاستعانة نأخذ بها على أمر الدنيا لا على أمر الآخرة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها)[1]. فأنت قد تكفل الله لك بالرزق الذي خلقه لك، فانشغل أنت بما خلقت له وهي العبادة.

الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، أو باستعانة ناقصة:

وهم المبتدعة الضالة -وهم أهل عبادة- وهم: القدرية والمعتزلة، فهؤلاء يجتهدون في العبادة لله، لكنهم لا يستعينون بالله على أداء هذه العبادة؛ لأنهم يعتقدون أن الله لا يخلق أفعال العباد، والعبادة أفعال تخرج منهم، وهذه الأفعال هم يخلقونها، لكنهم لا ينكرون فضل الله عليهم كاملًا، فهم يقولون: إن الله خلق لنا آلات نستعين بها على العبادات، كالسمع فنسمع القرآن، ونسمع الأذان فنذهب نصلي، وكالبصر فنقرأ القرآن ونعقل عن الله أوامره، ونقرأ أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وكالماء خلقه الله لنتوضأ، وكالطعام نستعين به على الطعام، فهم يريدون الاستعانة بأنفسهم، وجعلوا أنفسهم خالقين مع الله تعالى، ولذلك قال بعض علمائنا: إن المعتزلة أصحاب أجرة، يقولون: الجنة لنا بأعمالنا وليست برحمة الله جل في علاه، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يدخل أحدكم الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته)[2].

(١) أخرجه الشافعي في مسنده ص٢٣٣.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٦/ ٨٦٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم ٥٦٧٣، ٧/ ١٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب

فهؤلاء قد ضلوا في باب الاستعانة، وما حققوا قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فما سددوا وما وفقوا، بل خسروا كثيرًا، ونسأل الله جل وعلا أن يهدينا وإياهم سواء السبيل.

وخلاصة القول: إن العباد كلهم مجبولون على الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه في شؤونهم، ولكن حسن الاستعانة والتوكل يختلفان من قلب إلى قلب، ومن شخص إلى شخص، فبقدر قوة الإيمان واليقين عند العبد بقدر ما يقوي عامل الاستعانة بالله، وحسن الظن به، وتسليم الأمر له؛ لعلم القلب بحاجته إلى فضل الله تعالى وتيسير أمره.

صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، رقم ٢٨١٦، ٤/ ٢١٦٩.

مجالات التعاون بين الخلق

مجالات التعاون بين الخلق كثيرة ومتنوعة، منها ما هو مشروع، ومنها ماهو ممنوع محرم، وبيانها فيما يلي:

أولًا: التعاون المشروع وفوائده:

من القيم الإنسانية الرائعة والأسس الحضارية الرصينة للمجتمع المسلم التعاون الإنساني، فالتعاون ضرورة من ضرورة الحياة، ولولاه لما استقامت، فالإنسان لا ينهض وحده بكل متطلبات الحياة، بل جعل الله الناس متفاوتين متفاضلين؛ ليكمل بعضهم بعضًا، ويخدم بعضهم بعضًا، هذا على مستوى الأفراد والشعوب، كذلك على مستوى الأمم.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

«﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أي أسباب معيشتهم في الحياة الدنيا قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح، ولم نفوض أمرها إليهم، علمًا منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق وسائر مبادئ المعاش ﴿دَرَجَاتٍ﴾ متفاوتة بحسب القرب والبعد،

حسبما تقتضيه الحكمة فمن ضعيفٍ وقوي، وفقير وغني، وخادم ومخدوم، وحاكم ومحكوم؛ ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ ليصرف بعضهم بعضًا في مصالحهم، ويستخدموهم في مهنهم، ويسخروهم في أشغالهم؛ حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى مرافقهم»[1].

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ «أي ليستعمل بعضهم بعضًا في مصالحهم، ويستخدموهم في مهنهم، ويسخروهم في أشغالهم، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قومٌ دون آخرين، فجعل البعض محتاجًا إلى البعض؛ لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا، ويحتاج هذا إلى هذا وبالعكس، ويصنع هذا لهذا، ويعطي هذا لهذا؛ حتى يتعايشوا، ويترافدوا، ويصلوا إلى مرافقهم»[2].

«فالناس بحكم هذا الاختلاف القائم بينهم، وبحسب استعدادهم الفطري، وحكم ظروفهم وأحوالهم هم جميعًا مسخرون، أي يخدم بعضهم بعضًا، ليس فيهم خادم ومخدوم، بل كلهم يخدم ويخدم، ويستوي في هذا العالم والجاهل، والزارع، والصانع، والقوي والضعيف، والحاكم والمحكوم، إنهم جميعًا أشبه بالآلة الميكانيكية، لا تكون آلة عاملة، ذات قوة محركة، إلا إذا عمل كل جزء من أجزائها، أيًا كان وضعه فيها، وأيًا كانت قيمته الذاتية بين أجزائها، بل إنهم أشبه بالجسد الإنساني في تجاوب أعضائه جميعًا في العمل على كل ما من شأنه أن يحفظ عليه حياته، ويوفر له أمنه وسعادته»[3].

عن قتادة قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ «فتلقاه ضعيف الحيلة، عيي اللسان، وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاه شديد الحيلة، سليط اللسان، وهو مقتور عليه.

قال الله جل ثناؤه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كما قسم بينهم صورهم وأخلاقهم، تبارك ربنا وتعالى»[4].

لقد عرف الناس هذه الحقيقة منذ كان لهم وجود اجتماعي، بل إن هذا الوجود الاجتماعي نفسه إنما دعتهم إليه حاجة بعضهم إلى بعض، وخدمة بعضهم لبعض.. وهذا ما يشير إليه المعري بقوله[5]:

والناس بالناس من حضرٍ وباديةٍ
بعضٌ لبعضٍ، وإن لم يشعروا خدم

والتعاون بين البشر من فطرة الله التي

---

(1) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٤٦.
(2) الأنوار الساطعات لآيات جامعات، عبدالعزيز السلمان ص٤٩٧.
(3) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/ ٣٧٥.
(4) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٩٥.
(5) انظر: ديوان أبي العلاء المعري ١/ ١٢٠٣.



فطر الناس عليها.

يقول ابن خلدون في مقدمته: «الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته، من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك، وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به؛ لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه، والاجتماع المهيء لذلك التعاون، وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى والعمل به، واتباع صلاح أخراه»[(١)].

وقال: «قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل لتحصيل حاجاته في معاشه، وأنهم متعاونون جميعًا في عمرانهم على ذلك، والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تشتد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافًا، فالقوت من الحنطة مثلًا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه، وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد، ونجار للآلات، وقائم على البقر، وإثارة الأرض، وحصاد السنبل، وسائر مؤن الفلح، وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت، فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرات، فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم»[(٢)].

ولقد دعا القرآن إلى التعاون بين الأفراد والمجتمعات والأمم.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة: ٢].

«وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى، أي: ليعن بعضكم بعضًا، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى، واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه، وامتنعوا منه»[(٣)].

قال ابن كثير: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم»[(٤)].

وقال الماوردي: «ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له؛ لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته»[(٥)].

وقال السعدي: «فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٢٩ .
(٢) المصدر السابق ص٣٦٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٦ .
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٢ .
(٥) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص١٨٢ .

والتقوى»[1].

وسئل سفيان بن عيينة عن قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ فقال: «هو أن تعمل به، وتدعو إليه، وتعين فيه، وتدل عليه»[2].

وقال ابن القيم رحمه الله في تلك الآية: «اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق، فأما ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاونًا على مرضاة الله وطاعته، التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه، ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى اللذان هما جماع الدين كله»[3].

ثم بين أهمية التعاون على البر والتقوى وأنه من مقاصد اجتماع الناس فقال: «والمقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم هو التعاون على البر والتقوى، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علمًا وعملًا، فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه؛ فاقتضت حكمة الرب سبحانه أن جعل النوع الإنساني قائمًا بعضه ببعضه، معينًا بعضه لبعضه»[4].

وهذا الكلام يدل قطعًا على أن توزيع المهمات لإنجاز الأعمال من التعاون المطلوب، وأن هذا التعاون بين الأفراد ينتقل بعمل كل منهم؛ ليصبح وظيفة عامة اجتماعية، تكفل العيش لعدد كبير من المجتمع، فالتعاون بين الأفراد وتقسيم العمل ظاهرتان ملازمتان للإنسان، ولا غنى له عنهما، وأن تعاون المجموعة لا ينتج ما يكفيهم فقط، وإنما يزيد ويفيض.

وهذا كلام عام في الأمور الدينية والدنيوية، فأما بالنسبة للتعاون الشرعي فإن الأسباب الدافعة لدى المسلم للتعاون على البر والتقوى والمشاركة في الخير عديدة، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فلقد كان يشارك أصحابه مشاركة فعالة في السلم والحرب.

فعن سهل بن سعدٍ الساعدي رضي الله عنه: **(كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخندق، وهو يحفر ونحن ننقل التراب، ويمر بنا، فقال: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة)**[5].

فالإسلام ينظر للتعامل والعلاقات

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٤١.
(٢) حلية الأولياء، الأصفهاني ٧ / ٢٨٤
(٣) الرسالة التبوكية، ابن القيم ص٦ - ٧.
(٤) المصدر السابق ص ١٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الصحة والفراغ وأن لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم ٦٠٥١.

بين الناس على أنها قائمة على المشاركة والتعاون والتنافس، لا على الصراع كما يصور الماديون من الفلاسفة والحاقدون من المتعصبين، بل الحياة مشاركة وتعاون اجتماعي ودولي، فالتعاون من أجل الصالح للإنسانية، بينما يريدها أعداء الإسلام صراعًا بين البشر، وعراكًا بين الطوائف والأمم، من أجل الاستئثار والانفراد وتحقيق المكاسب المادية، وترويج السلع ونشر الثقافات على حساب الآخرين، وإلحاق الخسائر المادية والأدبية، وهذا لا يتفق مع مبدأ التعاون الإنساني الذي يقوم على أساس مد يد العون للآخرين، وتبادل المنافع ومراعاة المصالح، أما فكرة الصراع فهي فكرة خبيثة أفرزتها المذاهب المادية النفعية، والفلاسفة الماديون أصحاب الأفكار الهدامة والمتناقضة، كهيجل وماركس وغيرهم ممن نفقت مذاهبهم في الغرب.

فاللبنات المتناثرة هنا وهناك لا قيمة لها، لكن حين يبنى بها جدار متين فترى البنيان مرصوصًا، تدرك أهمية التماسك، ومتانة الترابط، وقوة التعاون.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٤].

وتلك صورة من صور التعاون في حالة الحرب.

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا) وشبك بين أصابعه**[١].

فالتعاون من أصول البناء والتواصل الحضاري بين الأفراد وبين الأمم والشعوب.

ومن أبرز صور التعاون في المجتمع المسلم الأول:

ما في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: **(تزوجني الزبير رضي الله عنه، وما له في الأرض من مالٍ، ولا مملوكٍ، ولا شيءٍ غير ناضحٍ، وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأستقي الماء، وأخرز غربه وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جاراتٌ لي من الأنصار، وكن نسوة صدقٍ، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخٍ، فجئت يومًا والنوى على رأسي، فلقيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفرٌ من الأنصار، فدعاني، ثم قال: (إخ إخ)؛ ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس، فعرف رسول الله صلى الله عليه**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، رقم ٢٣١٤، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٢٥٨٥.

وسلم أني قد استحييت، فمضى، فجئت الزبير، فقلت: لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رأسي النوى، ومعه نفرٌ من أصحابه، فأناخ لأركب، فاستحييت منه وعرفت غيرتك. فقال: والله لحملك النوى كان أشد علي من ركوبك معه.

قالت: حتى أرسل إلي أبو بكرٍ بعد ذلك بخادمٍ يكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني)[1].

وفي هذا الحديث: دليل على ما تحلى به هذا المجتمع النبوي من تراحم وتعاطف وتعاون وتكافل، فالمرأة تقف بجوار زوجها تساعده في حقله، والرجل يساعد المرأة في شؤون البيت، والجارة تكفي جارتها بعض الأعمال، والمجتمع يقف مع المرأة، ويمد لها يد العون، ويراعي ما جبلت عليه من حياءٍ وخجلٍ، والمرأة تراعي مشاعر زوجها، والرجل يشفق على زوجته، والأب يتفقد أحوال ابنته المتزوجة، ويسعى إلى التخفيف عنها ما أمكنه ذلك، نماذج رائعة تتجلى لنا من خلال هذا الحديث: الزوجة الصالحة التي تبذل ما في وسعها؛ لرعاية زوجها وبيتها، وتتجشم الصعاب وتواجه الأعباء بصبرٍ ورضا، فتكافح مع زوجها، وتعمل في البيت والحقل أعمالًا ليست باليسيرة، لكنها تصبر وتحتسب، والجيران الصادقون المتعاونون، وللتعاون بين الجيران أثرٌ عظيم في تخفيف الأعباء وتذليل الصعوبات، والمجتمع الذي تسوده المروءة والشهامة، فيساند البيت المسلم ويدعمه، ويرعاه ويصونه، والزوج الغيور المشفق على أهل بيته، والأب الذي لم تنته مهمته مع ابنته بزواجها، بل يتفقد أحوالها ويسعى لتوفير سبل الراحة لها، وفي هذا الجو الإيماني وجدت المرأة الأمن والأمان، والسعادة والطمأنينة، والحب الصادق: بيت صالح، وزوج كريم، وأب حنون، وجيران صدق، ومجتمع متراحم متعاطف، يا لها من سعادةٍ غامرةٍ وحياةٍ طيبة، وإن كانت صعبةً.

وبالتعاون والتضامن بنى ذو القرنين أعظم سدٍ في التاريخ.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الغيرة، رقم ٤٩٢٦، ٣/ ٤٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق، رقم ٢١٨٢، ٤/ ١٧١٦.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ [الكهف: ٩٣ - ٩٧].

فوائد التعاون المشروع[1]:

١. استفادة كل فرد من خبرات وتجارب الأفراد الآخرين في شتى مناحي الحياة.
٢. إظهار القوة والتماسك.
٣. يزيد في الإخلاص في العمل.
٤. تنظيم الوقت وتوفير الجهد.
٥. ثمرة من ثمرات الأخوة الإسلامية.
٦. حماية الفرد، ورفع الظلم عمن وقع عليه.
٧. تقاسم الحمل وتخفيف العبء.
٨. سهولة التصدي لأي أخطار تواجه الإنسان ممن حوله.
٩. سهولة إنجاز الأعمال الكبيرة التي لا يقدر عليها الأفراد.
١٠. القضاء على الأنانية وحب الذات.
١١. من أهم ركائز النجاح والتفوق.
١٢. نيل محبة الله ورضاه وتأييده.
١٣. يجعل الفرد يشعر بالسعادة.
١٤. إزالة الضغائن والحقد والحسد من القلوب.
١٥. مساعدة الفرد على بذل المزيد من الجهد والقوة.
١٦. المساعدة على سرعة التنفيذ.
١٧. الإسراع من عجلة التطور العلمي والتقدم التكنولوجي.
١٨. اكتساب حب الخير للآخرين.
١٩. يجدد طاقة الفرد وينشطها ويحقق أكبر الاستثمارات
٢٠. استغلال الملكات والطاقات المهدرة الاستغلال المناسب لما فيه مصلحة الفرد والمجتمع.

(١) انظر: موسوعة الأخلاق الإسلامية، الخراز ص١٣٢، نضرة النعيم، مجموعة باحثين ٣/ ١٠٢٧.

ثانيًا: التعاون المحرم وعاقبته:

بالتعاون تتكامل الجهود و تتآزر على تحقيق الهدف، سواء كان هذا الهدف خيرًا أم شرًا، وتعاون الناس في مجتمع ما على البر والتقوى يتحقق به الخير والصلاح في مجتمعهم، ويكثر ويمتد ويتسع، حتى يشمل مختلف جوانب حياته، بينما ينحسر الشر عنها، ويقل ويتضاءل أو يختفي.

وينعكس الأمر عندما يتعاون الناس على الإثم والعدوان، إذ ينحسر الخير والصلاح، ويمتد الشر والفساد ويستشري ويتعاظم خطره.

فما كان لفرعون أن يستبد ويظلم ويطغى لو لم يجد من يتعاون معه على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨].

وقد نهى الله عباده عن التعاون على

الإثم والعدوان فقال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

أي لا تتعاونوا على ارتكاب الآثام، ولا على الاعتداء على حدوده، فإن التعاون على الطاعات والخيرات يؤدى إلى السعادة، أما التعاون على ما يغضب الله تعالى فيؤدى إلى الشقاء.

قال ابن القيم رحمه الله في بيان معنى الإثم والعدوان: «أن كلا منهما (الإثم والعدوان) إذا أفرد تضمن الآخر، فكل إثم عدوان؛ إذ هو فعل ما نهى الله عنه أو ترك ما أمر الله به. فهو عدوان على أمره ونهيه، وكذلك كل عدوان إثم؛ فإنه يأثم به صاحبه.

هذا ولكن عند اقترافهما يكونان شيئين بحسب متعلقهما. فالإثم: ما كان محرم الجنس، كالكذب والزنا وشرب الخمر، ونحو ذلك. والعدوان: ما كان محرم القدر والزيادة. فالعدوان تعدي ما أبيح منه إلى القدر المحرم، كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه، إما بأن يتعدى على ماله أو بدنه أو عرضه، فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلا داره، وإذا أتلف عليه شيئا أتلف عليه أضعافه، وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها، فهذا كله عدوان وتعد للعدل»[١].

وقال القرطبي: «العدوان: تجاوز الحد، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وقيد الوعيد بذكر العدوان والظلم ليخرج منه فعل السهو والغلط»[٢].

وقال ابن عاشور: «﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ تأكيد لمضمون ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ لأن الأمر بالشيء، وإن كان يتضمن النهي عن ضده، فالاهتمام بحكم الضد يقتضي النهي عنه بخصوصه»[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تذييل قصد به إنذار الذين يتعاونون على الإثم والعدوان. أي: اتقوا الله- أيها الناس- واخشوه فيما أمركم ونهاكم، فإنه سبحانه شديد العقاب لمن خالف أمره، وانحرف عن طريقه القويم[٤].

وقد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم صورًا من التعاون على الإثم والعدوان، فمن ذلك: ما رواه ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أتاني جبريل فقال: يا محمد، إن الله عز وجل لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وساقيها، ومستقيها»[٥].

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص٢٢٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٥/ ١٠٣.

(٣) التحرير والتنوير ٦/ ٨٨.

(٤) الوسيط، طنطاوي ٤/ ٣٣.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٩٠٠، ٣/ ٢٧٨.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٤٩٤.

ولعن الرسول صلى الله عليه وسلم آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه[1].

ففي هذه الصور تتكامل الجهود والأدوار بين أطراف متعددة على إحداث فساد أو منكر، وكل طرف ما كان له أن يمارس منكره أو فساده لو لم تتعاون معه الأطراف الأخرى.

فشارب الخمر محتاج إلى عاصرها ومعتصرها، وهما محتاجان إلى حاملها والمحمولة إليه.

وفي الصورة الثانية تتكامل أدوار آكل الربا ومؤكله وشاهديه، وكل واحد من هؤلاء مكمل لدور الآخر في إحداث المنكر وإشاعته وتعزيزه.

فعاصر الخمر لن يعصرها إذا انعدم المعتصر والشارب، والمتعامل بالربا سيتوقف عنه مالم يجد من يتعامل معه به أو يعينه عليه، والمؤسسات الربوية ستغلق أبوابها وتختفي من مجتمعات المسلمين في حال عدم التعامل معها.

ثم إن صور التعاون على الإثم والعدوان لا تنحصر في هذه الصور؛ لأنه يعم كل تعاون على ظلم أو فساد ومنكر.

فكل ما نراه من مظاهر وأشكال الظلم والفساد والمنكر في مجتمعات المسلمين وانتشارها وتجذرها ما كان له أن يكون لو لم يكن هناك تعاون على الإثم والعدوان، فلعل الكثير لا يدرك خطورة ما يقوم به من دور أو يقدم من مساعدة قولية أو فعلية في هذا السياق.

فلابد إذًا من تنبيه المسلمين إلى خطورة التعاون على الإثم والعدوان، وتبصيرهم بصوره وأشكاله، وأن التعاون على الإثم والعدوان منكر من أعظم المنكرات وأخطرها، إذا لم يكن هو أخطرها وأعظمها على الإطلاق.

إن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عد الراضي بالمنكر كفاعله، وشريك له في إثمه، وما يترتب عليه من ظلم وفساد، كما يعتبر المعاون لفاعل المنكر بأي عون قولي أو فعلي مادي أو معنوي شريكًا له في إثمه وظلمه.

عاقبة التعاون المحرم[2]:

١. استحقاق العذاب من الله.
٢. المساعدة في تقلب نظام المجتمع، وفساد الذمم.
٣. فتح أبواب الشر، وطمس معالم الحق ليرتع الباطل.
٤. ينبيء عن خسة صاحبه ودناءة نفسه.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله، رقم ١٥٩٨، ٣/ ١٢١٩.

(٢) انظر: نضرة النعيم، مجموعة باحثين ٩/ ٤٢٠٧.

٥. دليل كامل على ضعف الإيمان وقلة المروءة.

٦. يبشر صاحبه بعاقبة وخيمة.

٧. ينبذ صاحبه، ويهمل شأنه إذا كان المجتمع صالحًا.

٨. يساعد على طغيان الحاكم ويرخص له الظلم.

٩. إذا تحقق في مجتمع كان سببًا في خرابه.

١٠. ضياع الحقوق، ووصولها لغير أهلها ومستحقيها.

أثر الاستعانة على الفرد والمجتمع

الاستعانة لها آثار عظيمة على الأفراد والمجتمعات، وهذه الآثار لا حصر لها[١]، ومن أهمها:

١ . الاستعانة بالله من مظاهر عبادته وتوحيده.

فالعبد إذا حقق الاستعانة بالله كان ذلك دليلًا على عبوديته لربه، وتحقيقه المعنى الحقيقي للتوحيد؛ لذلك جمع الله بين العبادة والاستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، إشارة إلى هذا المعنى، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تبرؤ من الشرك، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل، فجمع بينهما سبحانه تنبيهًا لعباده إلى كمال التوحيد المطلوب منهم.

٢ . لزوم الاستعانة سبيل السعادة الأبدية.

فالعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة. والاستعانة: هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع

(١) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢٤٠.

الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما.

٣. صلاح قلبه وسد خلة روحه.

فالمستعين بالله تعالى تحصل له طمأنينة القلب، وراحة البال، وانشراح الصدر فإنه لا يلقي للدنيا بالًا، ولا يكترث لهم، ولا يعبأ بمخوف، وكيف يكترث لحوادث الأيام ونوائب الدنيا وهو يعلم أن الله معه فيكفيه ما أهمه وغمه.

فالاستعانة تحتها سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ولا يسكن إلا بالوصول إلى الله، فمن كانت محبته ورغبته ورهبته وطلبه الله سبحانه، واستعانته به ظفر بنعمته ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد[(١)].

٤. الاستعانة بالله تجعل الفرد المسلم وثيق الصلة بربه يجيبه إذا سأله، ويفرج عنه كربه، ويغفر له ذنبه.

إذا طلب الإنسان عون الله عز وجل، فإن عون الله عز وجل قريب، ويقدر استعانته بالله تكون كفايته وحصول مطلوبه.

ففي حادثة الإفك[(٢)] أن عائشة رضي الله عنها: (لما بلغها ما يقول الناس في عرضها، جعلت تبكي أيامًا وليالي متواصلة، لا يرقأ لها دمع، ولا تجف لها عبرة، حتى أتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أبيها رضي الله عنه، فقال: (يا عائشة، إنه قد بلغني ما يقول الناس عنك، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تبارك وتعالى، وإن كنت ألممت بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه).

فلم تستطع عائشة أن تجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثقل على قلبها أن تكون محل شكٍ وريبة من صدقها ومن براءتها ومن طهارتها في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشارت إلى أبيها، قالت: يا أبت أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبوبكر: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فالتفتت إلى أمها فقالت: يا أم، أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قولي شيئًا. قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقالت عائشة: والله إن الله يعلم أني بريئة، وإن قلت لكم: أني بريئة فإنكم لا تصدقوني - وقع في قلوبكم الشك والريبة من كلام الناس الذي سمعتم -. وإن قلت لكم: أني فعلت فإنكم تصدقونني.

(١) انظر: الفوائد، ابن القيم ص٢٠٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، رقم ٢٦٦١، ٣/ ١٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم ٢٧٧٠، ٤/ ٢١٢٩.

ثم قالت: والله ما حالي وحالكم إلا كما قال أبو يوسف - أي: يعقوب عليه السلام- ونسيت اسمه من وقع الهم والحزن على قلبها-: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]).

فلم تنته من هذه الكلمات إلا وأنزل الله عز وجل براءتها من فوق سبع سماوات، حينما ذكرت هذه الكلمات، حينما ذكرت استعانتها بالله عز وجل، وأنها ليس لها معين، وليس لها ناصر، ولن يبرئها إلا هو تبارك وتعالى، فما استتمت هذه الكلمات ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ حتى أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

٥. بالاستعانة بالله يواجه الإنسان الأخطار المحدقة به.

٦. شعور المسلم بالقوة؛ لأنه لا يواجه المشاكل وحده، بل معه ربه.

٧. نزع شعور العجز من نفسه.

٨. الاستعانة بالله سبب محبة الله ورضاه.

٩. الاستعانة تذلل الصعاب، وتقوي المرء مع إخوانه على ما لا يستطيعه بمفرده.

١٠. الاستعانة المباحة تزيل الضغائن والحقد والحسد من القلوب.

١١. الاستعانة بين أفراد المجتمع تحقق معاني الأخوة الإسلامية.

وما ذكرته ينطبق على الفرد، ولا شك أن الفرد لبنة من لبنات المجتمع، فبصلاحه واستقامته صلاح المجتمع واستقامته، كذلك في أمنه وطمأنينته أمن وطمأنينة للمجتمع، وفي توفيقه وسداده توفيق وسداد للمجتمع.

موضوعات ذات صلة:

الاستعاذة، الدعاء، الذكر





عناصر الموضوع



مفهوم الاستغفار

أولًا: المعنى اللغوي:

الاستغفار مصدر قولهم: استغفر يستغفر، وهو مأخوذ من مادة (غ ف ر) التي تدل على الستر في الغالب، فالغفر: الستر[(١)]، يقال: غفره يغفره غفرًا: ستره، وغفر المتاع في الوعاء غفرًا: أدخله وستره[(٢)]، وتأتي كلمة (غفر) بمعنى ترك المؤاخذة بالذنب[(٣)].

قال ابن منظور: أصل الغفر التغطية والستر.

و(استغفر): أي طلب المغفرة، واستغفر الله ذنبه: طلب منه غفره[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي للاستغفار هو ذات المعنى اللغوي؛ إذ إن الاستغفار بالمعنى الاصطلاحي: هو الطلب من الله سبحانه أن يستر الذنوب، وأن لا يعاقب عليها[(٥)].

وبهذا فإن الاستغفار في معناه الاصطلاحي يتمثل في طلب أمرين في آنٍ واحد، هما: ستر الذنوب، وعدم العقوبة عليها.

قال ابن تيمية: «المغفرة شيء زائد عن الستر؛ لأن المغفرة معناها: وقاية شر الذنب؛ بحيث لا يعاقب عليه العبد، وأما مجرد ستر الذنوب فهذا لا يستلزم إسقاط العقوبة، فالله سبحانه قد يستر على من يعاقب ومن لا يعاقب»[(٦)].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٣٨٥.
(٢) انظر: المحكم، ابن سيده، ٥/ ٤٩٩.
(٣) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٣/ ١٦٦.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٢٧٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٨٥، روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٧.
(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ١٨٥.



الاستغفار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غفر) في القرآن الكريم (٢٣٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٩	﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء:٦٤]
الفعل المضارع	٦٠	﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال:٣٣]
الفعل الأمر	٣٦	﴿قَالُوا يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ [يوسف:٩٧]
اسم الفاعل	٣	﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران:١٧]
صيغة المبالغة	٩٦	﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣]
مصدر سماعي	١	﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥]
مصدر ميمي	٢٨	﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة:٢٦٨]
مصدر	١	﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة:١١٤]

وجاء الاستغفار في القرآن بمعناه في اللغة وهو طلب المغفرة، وأصل الغفر: التغطية والستر، وغفر الله ذنوبه أي: سترها[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٩٩-٥٠٣.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٢٥-٢٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ التوبة:

التوبة لغةً:

مأخوذة من (توب)، التاء والواو والباء: كلمة واحدة تدل على الرجوع، وتاب إلى الله سبحانه من كذا وعن كذا يتوب توبًا وتوبة ومتابًا: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة، فهو تائب وتواب[(١)].

التوبة اصطلاحًا:

التوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة[(٢)].

الصلة بين التوبة والاستغفار:

هما بنفس المعنى؛ فإذا ذكر أحدهما عني به الآخر، فالاستغفار إذا أطلق وحده أريد به التوبة، والتوبة إذا أطلقت وحدها أريد بها الاستغفار.

أما إذا قرن بينهما في الكلام فإن لكل منهما معنىً مختلفًا.

قال ابن القيم: «فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله»[(٣)].

٢ العفو:

العفو لغةً:

العفو مصدر عفا يعفو عفوًا، والعفو يطلق على معنيين أصليين: أحدهما: ترك الشيء، والآخر: طلبه[(٤)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٥٧، لسان العرب، ابن منظور، ٢/ ٦١.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٦٩.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٣٠٨.
(٤) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد، ٢/ ٩٣٨، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٥٦.

العفو اصطلاحًا:

هو التجافي عن الذنب، ومن ذلك قولهم في الدعاء: أسألك العفو والعافية. أي: أسألك ترك العقوبة، وأسألك السلامة[١].

وقيل: كف الضرر مع القدرة عليه، وكل من استحق عقوبة فتركها، فقد عفا[٢].

الصلة بين طلب العفو والاستغفار:

الاستغفار أعم وأشمل من طلب العفو؛ إذ أن طلب العفو هو طلب ترك العقوبة فقط، أما الاستغفار فهو يشمل مع طلب ترك العقوبة طلب الستر على الذنب.

وقد بين المفسرون أن من الفروق بين العفو والمغفرة في الآية أن العفو أن يسقط الله سبحانه عن العبد العقاب، أما المغفرة فهي أن يستر عليه جرمه صونًا له من عذاب التخجيل والفضيحة، كأن العبد يقول: أطلب منك العفو، وإذا عفوت عني فاستره علي، فإن الخلاص من العذاب إنما يطيب إذا حصل عقبه الخلاص من عذاب الفضيحة[٣].

٣ الرحمة:

الرحمة لغةً:

قال ابن فارس: الراء والحاء والميم أصلٌ واحدٌ يدل على الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذلك: رحمه يرحمه، إذا رق له وتعطف عليه[٤].

«ورحمة الله: عطفه وإحسانه ورزقه»[٥].

الرحمة اصطلاحًا:

صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك ودفع المضار عنك[٦].

والرحمة هي السبب الذي بين الله وبين عباده؛ بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه،

---

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٣٩.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي، ص ٥٣، ٥٩٨.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١١٦.
(٤) مقاييس اللغة ٢/ ٤٩٨.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٦١٢.
(٦) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٧٤.

وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم، وبها أنعم عليهم[1].

الصلة بين طلب الرحمة والاستغفار:

مما سبق يتبين أن طلب الرحمة يشمل معانٍ أوسع وأعم من الاستغفار، إذ من مقتضيات رحمة الله سبحانه للعبد أن يغفر له ذنبه؛ فالرحمة أوسع من المغفرة.

وقد ذكر بعض المفسرين فرقًا آخر بين الرحمة والمغفرة، وهو: أن المغفرة ترك العقوبة على ما مضى من الذنب، والرحمة أن يعصمه من الوقوع في الذنب في المستقبل.

قال ابن كثير: «الغفر: هو الستر وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل»[2].

٤ التكفير:

التكفير لغةً:

مشتق من (كفر) بمعنى ستر وغطى، والكفر في اللغة: التغطية، والكافر ذو كفر: أي ذو تغطية لقلبه بكفره، ومن ذلك: الكافر بمعنى الزراع؛ لستره البذر بالتراب، والكفار الزراع، وسميت الكفارات بذلك لأنها تكفر الذنوب: أي تسترها، مثل كفارة الأيمان، وكفارة الظهار والقتل الخطإ[3].

التكفير اصطلاحًا:

تكفير الله سبحانه لذنوب العباد معناه سترها ومحو أثرها، وعدم مؤاخذتهم عليها[4].

الصلة بين الاستغفار وطلب التكفير:

ذهب بعض المفسرين إلى أن تكفير السيئات هو نفسه مغفرة الذنوب، وأن العطف في الآية للمبالغة والتأكيد. قال القرطبي: «تأكيد ومبالغة في الدعاء. ومعنى اللفظين واحد؛ فإن الغفر والكفر: الستر»[5].

وذهب بعض العلماء إلى أن لفظ المغفرة يتضمن الوقاية والحفظ، ولفظ التكفير يتضمن الستر والإزالة، وعند الإفراد: يدخل كل منهما في الآخر[6].

(١) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٠٢.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٨٩٧-٣٩٠٠.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٥٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٧٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣١٧.
(٦) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣١٢.

منزلة الاستغفار وحكمه وصيغه

بين الوحي الإلهي أهمية الاستغفار ومنزلته، وسوف نتناول ذلك بالبيان في النقاط الآتية:

أولًا: أهمية الاستغفار ومنزلته في ضوء القرآن الكريم:

تنوعت دلالات نصوص القرآن المبينة لأهمية الاستغفار؛ فجاء في بعضها الاقتران بالتوحيد وشعائر الدين العظام، وفي بعضها الأمر به، والحث عليه، وفي بعضها الثناء على أهله ومدحهم، وفي بعضها الآخر بين الله مدى ضرورته للعبد وعدم استغنائه عنه، وإليك تفصيل ذلك:

١ . اقترانه بالتوحيد وشعائر الدين العظام.

- اقترانه بالتوحيد.

مما يبين عظم شأن الاستغفار ورفعة مكانته أنه كثيرًا ما يأتي في النصوص مقرونًا بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) التي هي خير الكلمات وأفضلها وأجلها على الإطلاق، فالتوحيد هو أساس العبادات كلها، وقاعدتها الصلبة التي يقوم عليها؛ فلا تستقيم عبادة العبد واستغفاره حتى يصلح توحيده[١].

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود: ٢-٣].

فأول ما أمر الله به في هاتين الآيتين هو توحيده، وإفراده بالعبادة دون سواه، والاستقامة على ذلك، ثم التوجه إليه بالاستغفار.

فالتوحيد هو أصل الدين، والاستغفار كماله؛ ولهذا نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع بين التوحيد والاستغفار في كثير من أدعيته؛ منها: قوله صلى الله عليه وسلم: **(سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)**[٢].

فهذا الحديث لما كان جامعًا بين التوحيد بأنواعه الثلاثة، والاستغفار؛ فاق سائر صيغ الاستغفار في الفضيلة وارتفع عليها.

(١) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، ١٢/ ٣٧٥، رقم ٦٣٠٦.

قال ابن تيمية: «فالتوحيد يذهب أصل الشرك، والاستغفار يمحو فروعه، فأبلغ الثناء لا إله إلا الله، وأبلغ الدعاء قول: أستغفر الله»[(١)].

❁ اقترانه بشعائر الدين العظام.

مما يدل على عظم شأن الاستغفار وأهميته في كمال عبادة المسلم: أن الله سبحانه قرنه بكثير من العبادات؛ كالصلاة وقيام الليل والحج، حيث أمر عباده أن يختموا تلك العبادات بالاستغفار؛ لجبر ما يحصل من النقص، ولصون النفس عن اعتقاد الكمال، ورؤية الأعمال، والإعجاب بها، واعتقاد قبولها ضرورة، والدل بها على الله.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

أمر الله عباده في هذه الآية بالاستغفار بعد الإفاضة من عرفات جبرًا لما يحصل من التقصير منهم، ومنعًا من إعجابهم بأنفسهم، فإن هم امتثلوا ما أمروا به كان ذلك أحرى بقبول عبادتهم، وحصول المغفرة لهم، وتوفيقهم لأعمال أخرى[(٢)].

وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا، ثم قال: (اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام)[(٣)].

وأثنى الله سبحانه على عباده المستغفرين بالأسحار؛ حيث قال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

أي: يطلبون المغفرة وقت السحر، فهؤلاء المتقون أحيوا ليلهم بالقيام، فلما كان وقت السحر ختموه بالاستغفار[(٤)].

وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار[(٥)].

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ١-٣].

قالت عائشة رضي الله عنها: (ما صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا يقول فيها: سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)[(٦)].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوي، ابن تيمية ١١/ ٦٩٧.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، ١/ ٤١٤، رقم ٥٩١.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٨٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤١١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٧٩.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١١/ ١٤١.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان،

٢. أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم ومدح به الأنبياء قبله.

مما يدل على أهمية الاستغفار: الأمر الصريح للنبي صلى الله عليه وسلم بالاستغفار، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

وفي هذا الأمر لنبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار أمر لأمته بالتبع[1].

وكذلك أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لأصحابه؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٦٢].

وأثنى الله سبحانه على الأنبياء من قبله في مسارعتهم إلى الاستغفار في أحوالهم كلها، وشؤونهم جميعها، وذكر الله جملة من استغفاراتهم في أحوال متعددة، ومناسبات متنوعة؛ ومن ذلك:

١. ما ذكره الله سبحانه عن آدم وزوجه عليهما السلام بعد وقوعهما في المعصية ومسارعتهما بطلب المغفرة والرحمة. قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف: ٢٣].

٢. ذكر سبحانه تضرع نبيه نوح عليه السلام مستغفرًا بقوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ٢٨].

٣. أخبر الله سبحانه عن استغفار إبراهيم عليه السلام. وهكذا من يتأمل القرآن الكريم يجد فيه من استغفار الأنبياء ومسارعتهم إلى طلب المغفرة في جميع أحوالهم -عليهم صلوات الله وسلامه- شيئًا كثيرًا.

٣. جعله الله شعارًا لعباده المتقين، وأثنى عليهم به.

ورد ثناء الله على عباده المتقين به في عدة مواضع من كتابه الكريم، وفي ضمن ثنائه عليهم بالاستغفار تلويح بالأمر به؛ كما قيل: إن كل شيء أثنى الله على فاعله فهو آمر به، وكل شيء ذم فاعله فهو ناهٍ عنه[2]؛ ومن ذلك:

باب الدعاء في الركوع، ٢/ ٥٣٧، رقم ٧٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ٤/ ٤٢٤، رقم ١٠٨٥.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٦٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٨٩.

(٢) انظر: الموافقات، الشاطبي ٣/ ١٤٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٨.

١. قال تعالى: ﴿الصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

٢. قال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

فأثنى الله سبحانه في هاتين الآيتين على عباده المتقين الذين من أجل صفاتهم وأرفعها: طلبهم لمغفرة الله؛ وخاصة وقت السحر، مما يدلنا على أهمية الاستغفار، ومزيد فضله في هذا الوقت؛ حيث يكون التنزل الإلهي، وإجابة السائلين، وحصول المغفرة للمستغفرين، كما قال صلى الله عليه وسلم: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له)[١].

٤. ضرورته للعبد وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

إن العبد دائمًا دائر بين نعمة من الله سبحانه يحتاج معها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى الاستغفار، وكل من هذين الأمرين من الأمور اللازمة للعبد[٢].

قال بعض العلماء: العبد بين ذنب ونعمة؛ لا يصلحها إلا الحمد والاستغفار[٣].

قال ابن تيمية: «والعارف بالله في كل يوم؛ بل في كل ساعة؛ بل في كل لحظة يزداد علمًا بالله وبصيرة في دينه وعبوديته؛ بحيث يجد ذلك في طعامه وشرابه ونومه ويقظته وقوله وفعله، ويرى تقصيره في حق ربه سبحانه ؛ سواء في القيام بعبادته حق القيام، أم في شكر نعمته؛ ولهذا كان محتاجًا إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار؛ بل هو مضطر إليه دائمًا في الأقوال والأفعال وسائر الأحوال؛ لما فيه من المصالح، وجلب الخيرات، ودفع المضرات»[٤].

وليس لأحد أن يظن استغناءه عن التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب؛ بل كل أحد محتاج إلى ذلك دائمًا.

فالإنسان ظالم جاهل، وغاية المؤمنين والمؤمنات التوبة والاستغفار، فهي من أسباب حصول المغفرة من العزيز الغفار[٥].

وقد أمر الله في كتابه بالمسارعة إليها.

قال عز من قائل: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله)، ٩/ ١٤٣، رقم ٧٤٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، ٦/ ٢٧٩، رقم ١٧٦٩.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٥٦.
(٣) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ١/ ١١٣.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٦٩٦.
(٥) المصدر السابق ١١/ ١٤٢.

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣].

والمسارعة إليها تكون بالإتيان بأسبابها، ومن أعظم أسبابها التوبة والاستغفار.

فهؤلاء الملائكة عليهم السلام الذين يحملون عرش الرحمن عز وجل كان من بين مهامهم التي لا يغفلون عنها: استغفارهم للمؤمنين، وهذا أمر له دلالته وأبعاده التي تدل على أن خير ما يعطاه المؤمن المغفرة من ربه؛ لأنها سبيل إلى كل نجاة، وإذا صحت المغفرة للعبد فما بعدها أيسر منها.

فحري بالمسلم إذا عرف أهمية الاستغفار وعظيم مكانته عند الله أن يكثر منه، وألا يقنط من رحمة ربه؛ وإن عظمت ذنوبه وكثرت وتنوعت؛ فإن باب التوبة والمغفرة والرحمة واسع.

ثانيًا: حكم الاستغفار:

الاستغفار نوع من أنواع الدعاء؛ إذ هو طلب العبد من ربه غفران ذنوبه؛ وذلك بسترها والتجاوز عنها، والأصل في حكم الاستغفار أنه مطلوب على سبيل الاستحباب في أحوال وأوقات كثيرة، منها: وقت السحر.

قال القرطبي: «الاستغفار مندوب إليه»[١].

وقال النووي رحمه الله : «واعلم أن المذهب المختار، الذي عليه الفقهاء والمحدثون، وجماهير العلماء من الطوائف كلها من السلف والخلف، أن الدعاء مستحب»[٢].

ويمكن أن يقسم الاستغفار إلى:

١ . استغفار واجب.

اتفق العلماء على أن الاستغفار واجب بعد الذنب، سواء كان بترك واجب أو فعل محرم.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود: ٣].

والأمر هنا للوجوب؛ إذ لا صارف له[٣].

وجاء في قصة الإفك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة: (وإن كنت ألممت[٤] بذنب فاستغفري الله، وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب تاب الله عليه)[٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٣٩.

(٢) الأذكار، النووي ص٣٥٣.

(٣) إرشاد الفحول، الشوكاني ص١٤٣، مذكرة في أصول الفقه، الشنقيطي ص٢٢٩.

(٤) ألممت: أصل اللمم: الاقتراب من الشيء، وحقيقته: وقوع الفعل من الشخص على خلاف العادة.

انظر: النهاية، ابن الأثير ٤/ ٢٣٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قال تعالى: (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا)، ٩/ ٣٨٥، رقم ٤٧٥٠.

قال ابن القيم: «فإن من الدعاء ما هو واجب؛ وهو الدعاء بالتوبة والاستغفار من الذنوب والهداية والعفو وغيرها»[١].

٢ . استغفار مستحب.

يشرع ويستحب للمسلم طلب المغفرة من ربه في أوقات وأماكن وأحوال كثيرة حث الله سبحانه رسوله على طلب المغفرة فيها.

- من الأوقات الفاضلة: وقت السحر، وآخر ساعة من يوم الجمعة، وفي ليلة القدر، ويوم عرفة.
- ومن الأماكن: البلد الحرام، والمشاعر المقدسة للحاج بها، والمساجد.
- ومن الأحوال: الاستغفار في الصلاة، وعند الصباح والمساء، وعند ركوب الدابة، وبعد قضاء الحاجة، وعند النوم، وفي خواتيم الأعمال، وغير ذلك من الأحوال الفاضلة التي يستحب للمسلم اغتنامها، وطلب المغفرة فيها.

٣ . استغفار محرم.

ذلك التحريم تارة يتعلق بالاستغفار نفسه، وتارة يتعلق بالمستغفر له:

- **التحريم المتعلق بالاستغفار.**

وذلك بالشرك في الاستغفار؛ كالتوجه بطلب المغفرة من غير الله، من بشر أو حجر أو شجر، أو الابتداع فيه.

- **التحريم المتعلق بالمستغفر له.**

كالاستغفار للكفار بعد موتهم[٢]، وهذا منهي عنه.

وقد نهى الله سبحانه في كتابه الكريم نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن الاستغفار للمشركين، نهيًا تتجلى فيه صورة البراءة من الشرك والمشركين؛ مهما كانت صلتهم بالمؤمن، وحبهم له، وحرصهم على سلامته، والدفاع عنه.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[التوبة: ١١٣].

ونهى الله عز وجل عن الاستغفار للمنافقين.

وقد كان فريقٌ من المنافقين يطمعون في استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم؛ مع علمهم بكفر بواطنهم، ليموهوا على المسلمين أنهم مسلمون مؤمنون، فأعلن الله سبحانه أن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلًا للاستغفار، وأنه صلى الله عليه وسلم لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم.

قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا

(١) جلاء الأفهام، ابن القيم ص٢٧٣.

(٢) انظر: الفروق، القرافي ٤/ ٢٦٠.



﴿يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

٤ . الاستغفار المكروه.

يكره الاستغفار لأسباب عديدة؛ منها:

- الأماكن: كالاستغفار في الكنائس، والحمامات، ومواضع النجاسات والقاذورات.
- الهيئات: كالاستغفار مع النعاس، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة والاستغفار في مثل هذه الحالة، ومن الهيئات التي يكره فيها الاستغفار أيضًا: مدافعة الأخبثين، أو ملامسة النجاسة[1].
- أن تكون صيغته مكروهةً: كأن يقول: اللهم اغفر لي إن شئت[2].
- أن يشتمل على اعتداء مكروه: كرفع الصوت بالاستغفار، وعدم التضرع فيه، وكذلك من الاعتداء المكروه: أن يشتمل على السجع المتكلف، وغير ذلك من أنواع الاعتداء.

ثالثًا: صيغ الاستغفار:

ورد الاستغفار في القرآن الكريم بصيغ عديدة جاءت على ألسنة الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وهي تندرج تحت ثلاث صيغ عامة؛ وهي:

١ . الصيغة الأولى: الطلب الصريح المجرد.

نحو: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٩].
﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ [الأعراف: ١٥١].

وهذه الصيغة أظهر الصيغ من جهة القصد والإرادة[3].

وقد وردت في خمسة مواضع أخرى من القرآن الكريم؛ في آل عمران، وإبراهيم، والشعراء، وص، ونوح.

٢ . الصيغة الثانية: الخبر المتضمن للطلب.

نحو قوله تعالى عن آدم وحواء أنهما ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ونحو قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٤٤].

وقد ورد في تسعة مواضع من القرآن الكريم؛ في: الأعراف في موضعين، وهود، ويوسف، والأنبياء، والشعراء في موضعين، والنمل، والقلم.

٣ . الصيغة الثالثة: الخبر المقترن بالطلب الصريح.

ولهذه الصيغة ثلاث صور:

الصورة الأولى: أن يكون الخبر المقترن بالطلب خبرًا عن السائل.

---

(١) انظر: الأزهية في أحكام الأدعية، الزركشي ص ١٦٣.
(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٢/ ٤٧٢.
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٤٢.

نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقد ورد في أربعة مواضع من القرآن الكريم؛ في: البقرة، وآل عمران في موضعين، والقصص.

الصورة الثانية: أن يكون الخبر المقترن بالطلب خبرًا عن المسؤول.

نحو قوله تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وهو الله سبحانه وتعالى.

وقد وردت في ثمانية مواضع من القرآن الكريم؛ في: البقرة، والأعراف في موضعين، والمؤمنون، وغافر، والحشر، والممتحنة، والتحريم.

الصورة الثالثة: أن يكون الخبر المقترن بالطلب خبرًا عن السائل والمسؤول معًا.

وورد في القرآن مرة واحدة.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

فنستخلص مما سبق الآتي:

١. إن صيغ الاستغفار الواردة في القرآن الكريم من أفضل الصيغ وأكملها وأجمعها للمعاني الموجبة لغفران الذنوب، والبعد كل البعد عن الأدعية والاستغفارات غير الشرعية.

٢. لو تأملنا جميع صيغ الاستغفار فإن أغلبها صدر باسم الرب، أما الاستغفار المتضمن الثناء فإنه صدر باللهم؛ كما في سيد الاستغفار (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت)[١] . وسر ذلك أن الله تعالى يسأل بربوبيته المتضمنة قدرته وإحسانه وتربيته عبده وإصلاح أمره، ويثني عليه بألوهيته المتضمنة إثبات ما يجب له من الصفات العلى، والأسماء الحسنى[٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، ٨/ ٦٧، رقم ٦٣٠٦.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٦٦.

أوقات الاستغفار وأحواله

بين القرآن الكريم أوقات الاستغفار وأحواله، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أوقات الاستغفار:

فضل الله الأوقات بعضها على بعض؛ فجعل بعضها نفحات لرحمته وجوده وكرمه، فينبغي للمسلم أن يترصد تلك الأوقات الفاضلة؛ فيستغفر الله فيها؛ فهي أرجى لحصول المغفرة له من غيرها؛ ومن تلك الأوقات:

١. الأسحار.

وقت السحر وقت يكون فيه تمام صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات والملهيات[١]، ومدح الله المستغفرين له في هذا الوقت، فقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وخص وقت السحر بالذكر لأنه وقت الغفلة ولذة النوم؛ ولأنه زمن القبول ووقت إجابة الدعاء[٢].

٢. يوم الجمعة.

لا شك أن يوم الجمعة خير الأيام على الإطلاق.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **(خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها)**[٣].

وفيه ساعة يستجاب فيها للعبد.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن في الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه -وأشار بيده يقللها-)**[٤].

٣. ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان.

ليلة القدر ليلة مباركة؛ أنزل الله سبحانه فيها كتابه الكريم، وجعلها خيرًا من ألف شهر.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٢-٣].

وليلة القدر ليست مخصوصة بعينها في كل عام؛ بل إنها تتنقل في العشر الأواخر من رمضان.

ثانيًا: أماكن الاستغفار الفاضلة:

لقد اختص الله سبحانه بعض الأماكن بمزيد من الفضل، وجعلها مواطن لنزول

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ١/ ٣٠٤.

(٢) انظر: الفتوحات الربانية، ابن علان ٧/ ٢٧٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، ٦/ ٣٨٠، رقم ١٩٧٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الساعة التي في يوم الجمعة، ٣/ ٨١، رقم ٩٣٥، ومسلم في كتاب الجمعة، باب في الساعة التي في يوم الجمعة، ٦/ ٣٧٨، رقم ١٩٦٦.

الرحمات، واستجابة الدعوات، فمن تلك الأماكن:

١ . البلد الحرام[١] .

فهو مكان فضله الله، وأقسم به في كتابه العزيز، وما ذاك إلا لفضله، فيستحب للمسلم طلب المغفرة فيه؛ لأن من شرفه شرف ما يعمل فيه من الطاعات، ومنه: الدعاء والاستغفار؛ بل هو غاية الطاعة؛ لما فيه من الافتقار والتذلل بين يدي الله سبحانه وتعالى[٢] .

ومن أعظم الأماكن فيه:

- المسجد الحرام، بجوار الكعبة المشرفة[٣] .
- المشاعر المقدسة؛ كعرفة، والمشعر الحرام، ومنى.

٢ . مسجد النبي صلى الله عليه وسلم.

قال صلى الله عليه وسلم: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي)[٤] .

فيستحب للمسلم الصلاة فيها، والإكثار من الدعاء والذكر والاستغفار وقراءة القرآن؛ فإن ذلك كله من الأعمال الصالحة.

ثالثًا: الأحوال التي يستغفر فيها:

١ . الاستغفار بعد الذنب.

حث الله سبحانه في كتابه الكريم عباده على المبادرة إلى طلب مغفرته عند الوقوع في الذنوب.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ١١٠].

فالاستغفار من الذنوب ينفع العاصين[٥]؛ فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من عبد يذنب ذنبًا فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له)[٦]. ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾[آل عمران: ١٣٥].

٢ . الاستغفار عند الصباح والمساء.

يستحب للمسلم كلما أصبح أو أمسى

---

(١) انظر: الأزهية في أحكام الأدعية، الزركشي ص١١٠، تحفة الذاكرين، الشوكاني ص٦٠.

(٢) انظر: الفتوحات الربانية، ابن علان ٤/ ٢٦٣.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٨٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٥٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل ما بين القبر والمنبر، ٣/ ٣٩٢، رقم ١١٩٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة ٩/ ١٦٣، رقم ٣٣٥٥.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٣٨.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الوتر، باب في الاستغفار ٢/ ٨٦، رقم ١٥٢١.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود ٥/ ٢٥٢، رقم ١٣٦١.

أن يتوجه إلى ربه بطلب مغفرته وعفوه، وقد رغب النبي صلى الله عليه وسلم أمته في ذلك، وبين لهم جزاء من يحافظ على ذلك؛ فقال صلى الله عليه وسلم: (سيد الاستغفار أن يقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، ٨/ ٦٧، رقم ٦٣٠٦.

دواعي الاستغفار

بين الوحي الإلهي دواعي الاستغفار، وسوف نبينها فيما يأتي:

أولًا: الاستغفار من أجل الذنوب والمعاصي:

١. الاستغفار من فعل يقتضي الذم والعقاب.

شرع الله سبحانه الاستغفار لعباده رحمة بهم، وجعله سببًا لحصول مغفرته، ودخول جنته.

وتفصيل ذلك ما يلي:

- الاستغفار من ترك الواجبات في حال العلم.

حث الله سبحانه عباده في كثير من آياته على الاستغفار من ظلمهم لأنفسهم، ووعدهم على ذلك بالمغفرة والرحمة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وظلم الإنسان لنفسه يكون بترك الواجبات؛ كما يكون بفعل المحرمات، فكلاهما من السيئات والخطايا والذنوب التي يجب على العبد الاستغفار والتوبة إلى الله منها، فهما متلازمان، فكل من أمر بشيء

فقد نهى عن فعل ضده[1]، ومن نهى عن فعل فقد أمر بفعل ضده[2].

❁ الاستغفار من فعل المحرمات في حال العلم.

إن الوقوع في المحرمات -سواء كانت من الكبائر أم من الصغائر- مما يوجب على العبد الاستغفار والتوبة إلى الله منها، وعدم الإصرار عليها[3]، فيجب على المسلم صادق الإيمان أن يجتنب ويبتعد أشد البعد عن الكبائر والموبقات، ويحذر من الصغائر، ومحقرات الذنوب؛ فإنها تهلك صاحبها، فالصغيرة مع الإصرار عليها والاستهانة بها تصبح كبيرة؛ كما قال ابن عباس: «لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»[4].

وعليه فإن الاستغفار من ترك الواجبات وفعل المحرمات أمر واجب، من اقتصر عليه كان من الأبرار المقتصدين، ومن تركه كان من الظالمين الفاسقين.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

❁ الاستغفار من فعل ما كان سببًا للذم والعقاب لكن متوقف على الشرط.

هناك أفعال إذا فعلها المسلم كانت سببًا من الأسباب المفضية إلى ذمه وعقابه من الله - سبحانه؛ ولكن العقوبة عليها متوقفة على قيام الحجة عليه.

قال تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قال ابن تيمية: «وقيام الحجة إنما تقوم بشيئين:

❁ بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله.

❁ والقدرة على العمل به.

فلا يكلف العاجز عن العلم والعمل ما هو عاجز عنه»[5].

ولا شك أن الجاهل والمخطئ والناسي ممن عجزوا عن العلم، والمكره ممن عجز عن العمل، فلا إثم عليهم فيما يتركون من واجب أو يفعلون من محرم، وكذلك فإنهم لا قصد لهم ولا نية، والإثم مرتب على المقاصد والنيات؛ لكن يشرع لهم الاستغفار مما فعلوه في حال الجهل والخطأ والنسيان والإكراه؛ لأنه مما يفضي إلى ذم الله وعقابه.

ويمكن تقسيم الأفعال التي يستحب أن يستغفر منها لأنها سبب للذم والعقاب إلى ما يلي:

---

(١) انظر: روضة الناظر، ابن قدامة ١/ ١٣٣، الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي ١/ ٣٩٣.

(٢) انظر: البحر المحيط، الزركشي ٢/ ٤٣٥.

(٣) انظر: دليل الفالحين، ابن علان ١/ ٨٨.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٤١، وابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٩٣٤.

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠/ ٣٦، والتوبة له أيضًا ص٢٩.

- الاستغفار من ترك الواجبات وفعل المحرمات في حال الجهل.
- الاستغفار من الهم والعزم على فعل المحرمات مع عدم التمكن منها.
- الاستغفار من ترك الواجبات وفعل المحرمات في حال الخطأ والنسيان.
- الاستغفار من ترك الواجبات وفعل المحرمات في حال الإكراه.
- الاستغفار مما يدور في النفس من الخواطر والأحاديث التي لو قالها أو فعلها عذب.
- الاستغفار من فعل ما يخشى أن يكون سببًا للذم والعقاب.

هناك أفعال إذا فعلها العبد فإنه يخشى أن تكون سببًا لذمه وعقابه؛ وهي الوقوع في المشتبهات مع علمه بأنها مشتبهات، وكونها مشتبهات عنده فهي مما ينبغي للمسلم أن يتجنب الوقوع فيها والابتعاد عنها، وأن يبادر إلى الاستغفار والتوبة إلى الله سبحانه إذا وقع في شيء منها؛ تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ويمكن تقسيم المشتبهات التي يستغفر فيها، ويخشى أن تكون سببًا للذم والعقاب إلى قسمين:

١. الاستغفار من ترك المشتبهات بالواجب.

٢. الاستغفار من فعل المشتبهات بالمحرم.

وتفصيل ذلك ما يلي:

١. الاستغفار من ترك المشتبهات بالواجب.

وهي ما تردد الحكم فيها بين الوجوب والاستحباب، فهذا القسم من المشتبهات مما ينبغي للمسلم فعله والمحافظة عليه، ويستحب الاستغفار والتوبة إلى الله عند تركه؛ لأن تركه مما يخشى أن يكون سببًا للذم والعقاب.

ومثال ذلك: الوتر، فقد ذهب الحنفية[1] إلى وجوبه، وذهب الحنابلة إلى أنه سنة مؤكدة، فالورع فعله، ولا ينبغي للمسلم تركه، وإذا تركه فعليه التوبة والاستغفار من ذلك.

٢. الاستغفار من فعل المشتبهات بالمحرم.

وهي ما تردد الحكم فيها بين التحريم والكراهة، فهذا القسم من المشتبهات مما ينبغي للمسلم تركه، واستغفار الله سبحانه عند الوقوع فيه؛ لأنه مما يخشى أن يكون سببًا للذم والعقاب.

ومثال ذلك: نتف شعر الوجه بالنسبة للمرأة؛ فإن العلماء -رحمهم الله- اختلفوا: هل هو داخل ضمن النمص فيحرم[2] أم لا

(١) انظر: شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ١/ ٣٠٠.

(٢) انظر: حاشية الجمل على شرح المنهج ١/ ٤١٨، الملخص الفقهي، صالح الفوزان

يشمله ذلك[1]؟ فالورع تركه واستغفار الله عند الوقوع فيه.

ثانيًا: الاستغفار من فعل ما كان سببًا للنقص في الطاعات:

يمكن تقسيم الأفعال التي يستغفر منها -لأنها سببٌ للنقص- إلى ما يلي:

١. الاستغفار من ترك المستحبات المتفق على استحبابها.

٢. الاستغفار من فعل المكروهات المتفق على كراهتها.

٣. الاستغفار من الاشتغال بفضول المباحات.

١. الاستغفار من ترك المستحبات المتفق عليها.

هناك كثير من المستحبات التي ندب الشارع إليها، ورتب على فعلها الأجر العظيم؛ فمن ذلك:

- السنن الراتبة، فهي مما ينبغي للمسلم المحافظة عليها بعد الفرائض، جبرًا لما يحصل فيها من الخلل والنقص.
- قيام الليل المشروع، فهو من أفضل الصلوات بعد المكتوبة، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر.

فهذا كله مما يستحب للمسلم فعله، والمواظبة عليه، وإذا ترك شيئًا منه يستحب له الاستغفار إلى الله من تركه؛ لأن تركه سبب لنقص درجته وحرمانه من الخير الذي يحصل لمن حافظ عليه.

٢. الاستغفار من فعل المكروهات المتفق عليها.

المكروهات عقبة بين العبد والحرام، ومن استكثر من المكروه تطرق إلى الحرام؛ ومن ذلك:

- كراهية الالتفات في الصلاة بغير عذر.
- كراهية تخصيص يوم الجمعة بصيام.

فيستحب للمسلم الابتعاد عن هذه المكروهات وغيرها؛ ليحصل له موجبها من الثواب ورفعة الدرجات، وأن يستغفر الله سبحانه إذا وقع في شيء منها.

٣. الاستغفار من الاشتغال بفضول المباحات.

لا شك أن الاشتغال بفضول المباحات كالإكثار من المأكل والمشرب والخلطة وغير ذلك؛ يوجب قسوة القلب، وقلة الفهم، ويضعف صاحبه عن العبادة، فيستحب للمسلم استغفار الله من الانشغال بها، وأن يتقلل منها ويزهد فيها.

فنستنتج مما سبق أن الاستغفار من ترك المستحبات، وفعل المكروهات، وفضول المباحات، أمر مستحب، فمن اقتصر على الاستغفار الواجب من ترك مأمور أو فعل محظور كان من الأبرار المقتصدين، ومن

(١) لطائف المعارف، ابن رجب ص٨. ١/ ١١٥.



جمع بين الاستغفار الواجب والمستحب كان من السابقين المقربين.

ويشرع للمسلم أن يستغفر الله من كل فعل يخشى أن يكون سببًا لنقصان درجته عند الله؛ سواء مما قد يحصل من التقصير في كمال العبادة، أو الخوف من تقصيره فيها وفي شكر الله عليها، فالمسلم الحق هو الذي يعمل بطاعة الله سبحانه مخلصًا لله في عمله، متبعًا لشرعه الذي جاء به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، راجيًا بذلك رحمة ربه، خائفًا من تقصيره في فعله، فمهما بذل المسلم من العبادة والطاعة؛ فلن يوفيها حقها، وما ينبغي من شكر الله تعالى عليها، فكان في الاستغفار مندوحة وفرصة أتيحت له ليجبر به تقصيره فيما لا يمكنه القيام به، من حسن الأداء في الطاعة والتعظيم والشكر لله، وفي الاستغفار أبلغ اعتذار عن التقصير في ذلك؛ لهذا نجد أن الله سبحانه كثيرًا ما يأمر باستغفاره بعد قضاء العبادات.

قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩].

ثالثًا: الاستغفار من أجل حصول مرغوب فيه أو دفع مكروه:

لم يشرع الاستغفار من أجل الذنوب والمعاصي فقط وما يتبعها من الأفعال التي تنقص الأجر والثواب؛ بل شرع الاستغفار أيضًا لاستجلاب كل خيرٍ للعبد، ودفع كل شرٍ عنه، فما استجلب كل مرغوب، وما دفع كل مكروه بمثل التقرب إلى الله بكثرة الاستغفار والتضرع بين يديه طلبًا لمغفرته، وتوسلًا بها لتحقيق ما يرجوه منه جل وعلا.

فمن أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا.

قال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

والاستغفار يمنع نزول العذاب على الأمة في الدنيا، ويوجب النجاة من العذاب في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

أصناف المستغفرين

عرض القرآن أصناف المستغفرين؛ لنقتدي بهم، وسوف نتناولهم بالبيان فيما يأتي:

أولًا: استغفار الملائكة والأنبياء:

١ . استغفار الملائكة:

أخبر الله سبحانه في موضعين من كتابه الكريم بخبر يتضمن تشريف المؤمنين، ويعظم الرجاء لهم، وهو أنه سبحانه وتعالى سخر ملائكته -وهم أفضل خلقه- للاستغفار للمؤمنين[1]:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

تضمنت الآية الكريمة السابقة أمرين:

- الإخبار عن تسبيح وإيمان الملائكة من حملة العرش، ومن حوله، واستغفارهم للمؤمنين.
- ذكر الصيغة التي توجهوا إلى الله بها في استغفارهم للمؤمنين.

بعد أن أخبر سبحانه عن استغفار ملائكته للمؤمنين ذكر صيغة استغفارهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فابتدؤوا استغفارهم بالنداء: ﴿رَبَّنَا﴾ لأنه أبلغ في التصريح، وأرجى لحصول الإجابة، ثم توسلوا إليه سبحانه بالثناء عليه بسعة الرحمة والعلم لتحقيق مطلبهم[2].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

تضمنت هذه الآية الكريمة: إخبار الله عن الملائكة بأنهم يستغفرون لمن في الأرض.

واختلف في عموم هذه الآية: هل هي باقية على عمومها، أو يخصص هذا العموم بقوله تعالى: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧].

على قولين:

القول الأول: أن هذه الآية باقية على عمومها، وعلى هذا يكون المراد بالملائكة عمومهم، وأن استغفارهم يعم المؤمن والكافر، ويكون المراد باستغفارهم للكفار هنا: السعي فيما يستدعي المغفرة لهم، وتأخير عقوبتهم؛ طمعًا في إيمان الكافر

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٤٧.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٢٣٧، الجواب الكافي، ابن القيم ص١٣٥.

وتوبة الفاسق[1]، وعلى هذا القول يدخل المؤمنون فيه دخولًا أوليًا[2].

وقد رجح هذا القول: ابن عطية والقرطبي والألوسي.

القول الثاني: أن هذا العموم مخصص بقوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وعلى هذا القول يكون المراد بالملائكة: حملة العرش، وأن استغفارهم يخص المؤمنين فقط؛ فيكون الاستغفار حينئذٍ بمعنى طلب المغفرة لخطايا المؤمنين وذنوبهم[3]؛ وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقد رجح هذا القول: ابن جرير والبغوي وأبو حيان وابن كثير والشنقيطي.

والذي يظهر رجحان القول الثاني؛ وذلك لأن الاستغفار للكفار أمر محرم.

٢. استغفار الأنبياء عليهم السلام.

كثر ذكر استغفار الأنبياء والرسل عليهم السلام في القرآن الكريم، ومسارعتهم إلى طلب مغفرة الله، واستجابة الله لهم، وعدد الذين ورد استغفارهم في القرآن وصل إلى عشرة أنبياء؛ وهم:

١. آدم عليه السلام.
٢. نوح عليه السلام.
٣. إبراهيم عليه السلام.
٤. يعقوب عليه السلام.
٥. يوسف عليه السلام.
٦. موسى عليه السلام.
٧. داود عليه السلام.
٨. سليمان عليه السلام.
٩. يونس عليه السلام.
١٠. محمد -عليه الصلاة والسلام-.

وسأتطرق إلى ذكر بعض استغفارات هؤلاء الأنبياء:

١. استغفار آدم عليه السلام.

إن آدم وزوجه حواء عليهما السلام طلبا المغفرة والرحمة منه -جلا وعلا-.

قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ففي هذه الآية أمران:

❁ الاعتراف بالذنب.

سارع آدم عليه السلام وزوجه بعد وقوعهما في معصية الله إلى طلب مغفرة الله ورحمته؛ متوسلين إليه سبحانه بربوبيته،

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٥، روح المعاني، الألوسي ٢٥/ ١٢.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٢٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٥/ ٧، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٢٠، البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٣٢٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١١٢، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٥٣.

ثم بالاعتراف بذنبهما[1]، والإقرار بظلمهما لأنفسهما.

● سؤال المغفرة والرحمة.

وبعد الاعتراف بظلمهما لأنفسهما طلبا المغفرة والرحمة من الله سبحانه بقولهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وهذا خبر يتضمن طلب المغفرة والرحمة، فهما لم يسألا الله المغفرة والرحمة مباشرة؛ وإنما أخبرا أنه إن لم يغفر لهما ذنبهما ويرحمهما خسرا وهلكا، وهذا أبلغ من جهة العلم والبيان.

٢. استغفار نوح عليه السلام.

جاء الاستغفار الصادر من نوح عليه السلام في موضعين من القرآن الكريم، وبمناسبتين مختلفتين؛ وهما ما يلي:

الموضع الأول: استغفاره بمناسبة سؤال الله ما ليس له به علم واتعاظه بوعظ الله:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٤٧﴾ [هود: ٤٧].

سارع نوح عليه السلام في هذه الآية بإجابة كلام ربه بما يدل على التنصل مما سأل، فاستعاذ بما لقنه به ربه مبالغة في التوبة، وإظهارًا للرغبة والنشاط فيها[2].

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧].

وهذا اعتراف منه عليه السلام بذنبه، ثم اشتغل بالاعتذار عما مضى، فقال: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ وهذا خبر منه عليه السلام بأن الله إن لم يغفر له ويرحمه خسر، وهو يتضمن سؤال المغفرة والرحمة، وهو أبلغ من جهة العلم والبيان.

الموضع الثاني: استغفاره بمناسبة وحي الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن:

قال تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ٢٨].

بعدما دعا نوح عليه السلام على الكفار بالهلاك توجه إلى الله سبحانه بطلب المغفرة لنفسه.

قال تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ أي: استر على ذنوبي، وتجاوز عني، ولا تؤاخذني بها، ثم ثنى بالدعاء بطلب المغفرة لأقرب الناس إليه وأحقهم بدعائه، وهما والداه وكانا مؤمنين[3]، ثم دعا بالمغفرة لكل من

---

(١) تفسير سورة البقرة، ابن عثيمين ١/ ١٣٥.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢١٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٧٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٣١٣، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٠٢.

دخل منزله وهو مؤمن، ثم عمم الدعوة لكل متصف بالإيمان من الذكور والإناث؛ وذلك يعم الأحياء منهم والأموات، وقد شمل دعاؤه هذا كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ثم عاد إلى الدعاء على الكافرين بالهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، واستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالكلية[1].

٣. استغفار إبراهيم عليه السلام.

ورد استغفار إبراهيم عليه السلام في ثلاثة مواضع من القرآن؛ وذلك في مناسبتين مختلفتين.

أولًا: استغفاره بمناسبة قدومه إلى مكة وإسكان ذريته فيها:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ابتدأ إبراهيم عليه السلام استغفاره بالتوسل إلى الله سبحانه بربوبيته سبحانه وتعالى قائلًا: ﴿رَبَّنَا﴾ ثم طلب المغفرة لنفسه، ثم أشرك معه أقرب الناس إليه وأحقهم بشكره، وهما والداه، وطلبه الغفران لأبيه هنا كان قبل أن يتبرأ منه لما تبين له عدوانه لله، ثم أتبعه بطلب المغفرة للمؤمنين بالله ممن اتبعه على الدين الذي هو عليه؛ فأطاع الله في أمره ونهيه؛ وذلك يوم يحاسب الله عباده؛ فيجازيهم على أعمالهم[2]، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

ثانيًا: استغفاره بمناسبة رفض أبيه وقومه لدعوة التوحيد التي دعاهم إليها:

ورد استغفار إبراهيم عليه السلام بهذه المناسبة في موضعين من القرآن الكريم؛ وهما ما يلي:

أولًا: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

ثانيًا: قوله سبحانه : ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥].

صيغة الاستغفار الأول عبارة عن إخباره عليه السلام بالطمع والرجاء في مغفرة الله، وكان جازمًا في ذلك عليه السلام[3].

وهذا الخبر يتضمن طلب المغفرة من الله سبحانه.

وكذلك دعا بطلب المغفرة، هو ومن آمن معه بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥].

فابتدأ إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ١٠٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٤١٣، البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٢٨٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٥١، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٠٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٣٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٤٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٨٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١١١.

دعاءهم بالتوسل إلى الله بربوبيته، ثم طلبوا ألا يجعلهم الله فتنة للذين كفروا، أي: ألا يسلط الكفار عليهم بذنوبهم؛ فيفتنوهم ويمنعوهم مما يقدرون عليه من أمور الإيمان[1].

ولما كان رأس مال المسلم الاعتراف بالتقصير -وإن بلغ النهاية في المجاهدة- ختموا دعاءهم بطلب المغفرة من الله سبحانه: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ [الممتحنة: ٥].

٤. استغفار يونس عليه السلام.

ورد استغفار يونس عليه السلام في القرآن مرة واحدة: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

إن يونس عليه السلام لما فعل ما يلام عليه من ربه كان من المناسب لحاله أن يبتدئ استغفاره بالثناء على الله بكمال الألوهية، فقال: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ فهو الذي يستحق العبادة دون سواه، ثم نزهه عن كل نقص وعيب وآفة بقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ وختم دعاءه بالاعتراف بذنبه وجنايته، والاستغفار والتوبة من خطيئته على ألطف وجه وأحسنه[2] فقال: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا الاعتراف بالذنب يتضمن طلب المغفرة من الله سبحانه[3] وتفريج الكربة، فاستجاب الله له وفرج عنه، وأخرجه من بطن الحوت.

٥. استغفار محمد عليه الصلاة والسلام.

عند التأمل في استغفار النبي صلى الله عليه وسلم الوارد في القرآن الكريم فإننا لا نجد استغفارًا مباشرًا صدر عنه صلى الله عليه وسلم ؛ ولكن ورد الأمر له بالاستغفار في تسعة مواضع من القرآن الكريم:

ورد الأمر له صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لنفسه في خمسة مواضع من القرآن الكريم، ومنها:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٦].

وبالنظر في هاتين الآيتين الكريمتين نجد أن الله أمر نبيه بأمرين:

أحدهما: أمره صلى الله عليه وسلم بالحكم بين الناس بالعدل، واجتناب الظلم

(١) رجح هذا المعنى ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٢٥٦، وأبو حيان في البحر المحيط ١/١٥٦، والألوسي في روح المعاني ٢٨/٧٣، لأنهم إنما دعوا لأنفسهم، وعلى منحى القول الثاني إنما دعوا للكفار.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٨٠.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٠/ ١٦٨.

والجور.

ثانيها: أمره بطلب المغفرة من الله عند الحكم بين المتخاصمين.

وقال تعالى آمرًا نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب المغفرة والرحمة: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

ففي هذه الآية الكريمة:

أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب المغفرة والرحمة، ورغبه في ذلك، وأرشده إلى دعائه وحده مخلصًا له الدين، وطلب المغفرة والرحمة منه -جل وعلا-[1]؛ فإنهما العاصمان من كل الآفات والمخالفات[2]. والمعنى: استر علي ذنوبي بعفوك عنها، وارحمني بقبول التوبة، وتركك عقابي على ما اقترفت.

وفي تخصيص هذا الدعاء بالذكر دلالة على أهمية طلب المغفرة والرحمة في حياة المسلم.

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

وبالنظر في الآية الكريمة السابقة نجد أن الله -عز وجل- أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأمور تعينه على تبليغ دعوته للناس، وهي ما يلي:

- الأمر بالصبر على تبليغ الدعوة.
- الأمر بالاستغفار من ذنبه.
- الأمر بالتسبيح بالعشي والإبكار.

وأمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لأصحابه في موضعين من كتابه:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة بثلاثة أمور:

- أمره صلى الله عليه وسلم بالعفو عن أصحابه.
- أمره صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لأصحابه.
- أمره صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه في الأمور تطييبًا لقلوبهم.

وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لمن بايعنه من المؤمنات.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٨٧.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ١٤٨، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٠١.

ففي هذه الآية الكريمة: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعد مبايعته للمؤمنات بالاستغفار لهن في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: سل لهن الله أن يصفح عن ذنوبهن، ويسترها عليهن بعفوه لهن عنها[1].

وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والمسلمين بالاستغفار.

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠].

ولما كان الإنسان محل تقصير فيما أمر بفعله حث الله سبحانه نبيه وأصحابه والمؤمنين من بعدهم على أن يختموا أعمالهم الصالحة -ومن ضمنها قيام الليل- بالاستغفار[2].

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠]

ثانيًا: استغفار المؤمنين:

ويتضمن ما يلي:

١. استغفار المؤمنين من الأمم السابقة.

٢. استغفار المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

١. استغفار المؤمنين من الأمم السابقة.

ومن أمثلته في القرآن:

- **استغفار الربانيين من الأمم الماضية بمناسبة مواجهة أعداء الله في أرض المعركة.**

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

دعا أتباع الأنبياء في أرض المعركة بمطالب؛ هي:

١. الدعاء بأن يغفر الله لهم ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم.

٢. الدعاء بأن يثبت الله أقدامهم، وينصرهم على أعدائهم.

- **استغفار السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام.**

ورد استغفار السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام في موضعين من القرآن:

الأول: قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٨/ ٨١.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٢١٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٦١٤.

مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠-٥١].

الثاني: قال سبحانه: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

وهذا خبر يتضمن طلب المغفرة من الله سبحانه .

١ . استغفار المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن أمثلته في القرآن ما يلي:

استغفار المؤمنين خوفًا من محاسبة الله تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

توسل المؤمنون إلى الله سبحانه بأعمالهم الصالحة لإجابة دعائهم؛ وهي سماع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة سماع قبول وإذعان، والعمل بما جاء فيهما[1].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ثم سألوه المغفرة لذنوبهم بقولهم: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢ / ٧٠٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٧.

استغفار المؤمنين من أجل تخفيف الأحكام.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

بمناسبة تخفيف الله على الصحابة علم سبحانه وتعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم هذه الدعوات المباركات، وهي وإن لم يأت فيها التعليم صريحًا، بلفظ (قل) ونحوه؛ إلا أن معظم المفسرين قدروا هذه اللفظة[2]؛ وهي ما يلي:

١. الدعاء بألا يؤاخذهم بما نسوا أو أخطأوا، ولا يحملهم التكاليف الشاقة.

٢. الدعاء بألا يحملهم مالا طاقة لهم به، وأن يعفو عنهم ويغفر لهم، وينصرهم على أعدائهم.

فلما انقادت قلوبهم، وذلت لعزة ربها، أعطوا كل ما سألوه، فلم يسألوا شيئًا فيه إلا قال الله تعالى: (قد فعلت) كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم[3].

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٥٥، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٦٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه،سبحانه وتعالى، لم يكلف إلا ما

❁ استغفار المؤمنين المتقين.

ورد استغفار المؤمنين في عدة مواضع من القرآن الكريم؛ منها:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].

توجه عباد الله المتقون إلى الله متوسلين إليه بربوبيته وبأعظم أعمالهم الصالحة -وهي إيمانهم به وبما شرعه لهم- لتحقيق مطلوبهم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ بالستر عليها، وعدم المؤاخذة بها[١]. ولما كان طلب الغفران يتضمن إسقاط العذاب أردفوه بالتصريح بوقايتهم من عذاب النار[٢] على سبيل التأكيد والمبالغة؛ وذلك في قولهم: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ومن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وحسن مآبه[٣].

وورد أيضًا مدحهم بطلب المغفرة في معرض تذكير الكفار بذنوبهم حين يدخلون النار، ويسألون الله الخروج منها[٤].

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

فامتدح الله سبحانه في هذه الآية الكريمة عباده المؤمنين بطلبهم مغفرته ورحمته.

قال السعدي: «وفي ضمن هذا الاستغفار ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم»[٥].

ثالثًا: استغفار الكفار:

ويتضمن:

١ . استغفار الكفار في الدنيا.

ورد استغفار الكفار في الدنيا في موضعين من القرآن الكريم؛ وذلك في المناسبة الآتية:

❁ استغفار الكفار عند نزول عذاب الله عليهم في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الأعراف: ٤-٥].

وقال سبحانه: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٤-١٥].

أخبر الله سبحانه في هذه الآية الكريمة عن موقف الكفار عند نزول العذاب عليهم في الدنيا؛ حيث إنهم لجأوا إليه سبحانه

يطاق ١/ ١١٦، رقم ١٢٦.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣ / ٢٠٧، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٨٥.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٦٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٠٧.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٨٥.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٥/ ٣٨٣.

وتعالى بالتضرع والدعاء بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم وتكذيبهم لأنبيائهم.

قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: دعاؤهم: ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ أي: عذابنا: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ وهذا اعتراف منهم بالذنب[1].

يتضمن طلب المغفرة والعفو والصفح من الله سبحانه ؛ إلا أن هذا الاعتراف والندم لم ينفعهم؛ وذلك بسبب كفرهم؛ حيث أنزل الله عليهم عذابه فهلكوا.

وهذا إنذار للمشركين بالهلاك إن هم استمروا في تكذيب أنبيائهم والكفر بهم[2].

٢. استغفار الكفار في الآخرة.

أدعية الكفار عمومًا في الآخرة أكثر من أدعيتهم في الدنيا؛ وذلك لأنهم يفاجؤون بما لم يستعدوا له، فيسلكون جميع الطرق التي يحسبون أنها ستنقذهم مما هم مقدمون عليه من عذاب النار؛ ومن تلك السبل: طلبهم للمغفرة من الله سبحانه رجاء أن يخرجهم من النار.

- استغفار الكفار عند دخول النار واصطلائهم بحرها وعذابها.

قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾

[المؤمنون:١٠٤-١٠٦].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

يتوسل الكفار عند دخولهم النار إلى الله سبحانه بالاعتراف والإقرار بظلمهم لأنفسهم وضلالهم؛ طمعًا في خروجهم من النار، قائلين: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: غلب علينا الشقاء الناشئ عن الظلم والإعراض عن الحق، ثم يعترفون بذنبهم، بقولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ وقولهم في الموضع الآخر: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ وهذا الاعتراف بالذنب[3] يتضمن طلب المغفرة والعفو والصفح من الله؛ ولكن لا ينفعهم حينئذٍ الاعتراف، ولا يقبل منهم استغفارهم وتوبتهم[4].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١١٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٦٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٢٠.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٨٤.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٩٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٧٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١١٠.

آثار الاستغفار

للاستغفار آثار في الدنيا والآخرة نبينها فيما يأتي:

أولًا: آثار الاستغفار في الدنيا:

للاستغفار آثار في الدنيا، ومنها:

١. آثار الاستغفار في حياة الفرد.

ورد في القرآن الكريم بيان الآثار والثمار الحاصلة بملازمة المسلم للاستغفار والإكثار منه؛ فمن تلك الآثار والثمار ما يلي:

- أنه سبب لحصول الحياة الطيبة.

إن ملازمة العبد للاستغفار الذي يتواطأ فيه القلب واللسان، وتظهر آثاره على الجوارح من المسارعة إلى كل فضيلة؛ لهي من أقوى الأسباب المؤدية إلى حصول الحياة الطيبة للعبد، وقد وعد بها الكريم الرحمن كل من عمل صالحًا في هذه الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

قال ابن كثير: «والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت[١] في الدنيا والآخرة» ومن أعظمها: ما يحصل للمؤمن من سرور القلب، وراحته وطمأنينته، وعدم قلقه واضطرابه في جميع مقامات الحياة.

وورد في كتاب الله ما يدل على أن الحياة الطيبة التي تحصل لعباده المستغفرين تشمل ذلك كله؛ فمن ذلك: سعة الرزق، ورغد العيش، وحصول القوة الروحية والجسمية.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود: ٣].

ففي هذه الآية الكريمة رغب صلى الله عليه وسلم المشركين في المسارعة إلى الاستغفار مما هم عليه من الكفر والشرك، والتوبة مما سلف من الذنوب والآثام، ثم بين ما يترتب على امتثال ذلك من الآثار الحميدة؛ وهي ما يلي:

الأثر الأول: حصول المتاع الحسن.

الأثر الثاني: إيتاء كل ذي فضل فضله.

وقال سبحانه عن هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾[هود: ٥٢].

ففي هذه الآية الكريمة رغب هود عليه السلام قومه إلى الاستغفار والتوبة بأمرين:

١. ترغيبهم بكثرة الأمطار المتتابعة.

لما أرشد هود عليه السلام قومه إلى

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٤٥.

التوحيد، ونبذ عبادة الأوثان؛ أمرهم بالاستغفار والتوبة، وحثهم عليه.

٢ - ترغيبهم بزيادة القوة الروحية والجسمية.

- أنه سبب للقرب من الله تعالى وإجابة الدعاء.

ويدل على ذلك قوله تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾[هود: ٦١].

ففي هذه الآية الكريمة رغب صالح عليه السلام قومه في الاستغفار والتوبة إلى الله سبحانه بأمرين؛ هما:

١ - حصول القرب من الله -جل وعلا.

٢ - إجابته لدعاء من دعاه.

- أنه سبب لحصول الرحمة والمحبة من الله سبحانه للمستغفرين.

إن الاستغفار من أعظم الأسباب الجالبة لرحمة الله سبحانه ومحبته لعباده المستغفرين، وقد بين الله سبحانه ذلك في كتابه الكريم.

قال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[هود: ٩٠].

ففي هذه الآية الكريمة رغب شعيب عليه السلام قومه في الاستغفار والتوبة بحصول أمرين:

١. حصول الرحمة من الله تعالى للمستغفرين.

٢. حصول المحبة من الله سبحانه للمستغفرين ورضاه عنهم.

- حصول النصر والظفر والنجاة من المكروه.

فبملازمة الاستغفار والإكثار منه يستنزل النصر على الأعداء، ويظفر المسلم بكل محبوب، وينجو من كل مكروه، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

فبين الله سبحانه في هذه الآيات الكريمة ثمرة استغفار هؤلاء الربانيين؛ وهي ما يلي:

إيتاؤهم ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة.

ومعنى ثواب الدنيا أي: جزاؤها، وهو النصر على الأعداء، والظفر عليهم، والتمكين لهم في البلاد.

أما ثواب الآخرة: فهو حصول المغفرة لهم، ودخول الجنة.

وتخصيص الحسن بهذا الثواب للإيذان بفضله ومزيته، وأنه هو المعتد به عنده

تعالى، وترغيبًا في طلب ما يحصله من العمل الصالح[1].

❁ أنه سبيل لتفريج الكربات، والنجاة من الغموم والهموم، وتيسير الأمور.

إن الإكثار من الاستغفار الحق الذي يتواطأ فيه القلب واللسان لجدير بأن يفرج الله عن صاحبه الكربات التي تضيق بها نفسه، وينجيه من الغم والهم الذي يعتريه، وقد دل على ذلك عدة نصوص من الكتاب والسنة:

منها: قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧].

فاستغفار يونس عليه السلام في تلك الظلمات واعترافه بذنبه كان سببًا لنجاته من الغم الذي كان فيه.

قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨].

ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: **(من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب)**[2].

٢. أثر الاستغفار في حياة المجتمع.

إذا كان للاستغفار آثار ظاهرة في حياة الفرد فإن له -بلا شك- آثارًا ظاهرة أيضًا في حياة المجتمع، فأساس الصلاح يبدأ من الأفراد، وينعكس أثره على المجتمع بأسره؛ لأن الفرد هو الخلية الأولى في بناء المجتمع.

ويتجلى أثر الاستغفار في حياة المجتمع في أمور كثيرة؛ من أبرزها:

❁ الأمن من عذاب الله.

إن الاستغفار سياج واقٍ وأمان من عذاب الله -وأصل الأمن: طمأنينة النفس، وزوال الخوف[3]-، فإذا كثر الاستغفار في الأمة، وصدر عن قلوب بربها مطمئنة؛ دفع الله عنها ضروبًا من النقم، وصرف عنها صنوفًا من البلايا والمحن.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ١٢٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٢٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار ٢/ ٨٥، رقم ١٥١٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب الاستغفار ٢/ ١٢٥٤،رقم ٣٨١٩، والنسائي في عمل اليوم والليلة، باب ثواب الإكثار من الاستغفار ص١٤٧، ٤٦٠.

وصححه المناوي في فيض القدير ٦/ ٨٢، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب ١/ ٤٩٩.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ١٣٣، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ١/ ١٢٣.

ففي هذه الآية الكريمة بين الله سبحانه أن مانع إنزال العذاب أمران:

أحدهما: وجود النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ وهذا إعلام بكرامة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الله؛ حيث جعل وجوده في مكان مانعًا من إنزال العذاب[1].

ثانيهما: وقوع الاستغفار.

وهذا هو المانع الثاني من إنزال العذاب عليهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ والكلام على هذا المانع من وجهين:

أحدهما: في الاستغفار الدافع للعذاب.

الثاني: في العذاب المدفوع بالاستغفار.

أما الأول: فإن العذاب إنما يكون على الذنوب، والاستغفار مع التوبة النصوح يوجب مغفرة الذنوب التي هي سبب العذاب؛ فيندفع حينئذٍ العذاب[2] كما قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وأما الثاني: فإن العذاب المدفوع يعم العذاب السماوي، ويعم ما يكون من العباد.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٣٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٢١.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٥/ ٢٧، ٢٨.

❁ حلول البركات والخيرات والعز والتمكين.

فبالاستغفار يجلب الخصب والبركة، ويكثر النسل والنماء والخير في كل مكان، وهو مصدر للعزة والمنعة والتمكين، والبركة: كثرة الخير ونماؤه واستمراره[3].

وقد وعد الله بها كل من آمن به واتقاه؛ بفعل الطاعات، وترك المحرمات، ومن أجل الطاعات وأعظم القربات: كثرة الاستغفار؛ مع صدق العزم على ترك الذنب.

وقد بين الله سبحانه في كتابه الكريم صور هذه البركة وشمولها لجميع ميادين الحياة.

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

فالمجتمع الذي يلازم أفراده الاستغفار قولًا وفعلًا مجتمع مبارك، يفيض الله سبحانه عليه من بركاته ورحمته؛ ما يجعله مجتمعًا قويًا يسوده الإخاء والأمن والاستقرار.

ثانيًا: آثار الاستغفار في الآخرة:

١ . المغفرة والأجر العظيم.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٢٧، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٨٦، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٤.

إن عدم المؤاخذة بما فرط من الذنوب، والتجاوز عن الإساءة، وستر العيوب أمر مطلوب، وأمل مرغوب، حث الله تعالى على المسارعة إليه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[آل عمران: ١٣٣].

وقد حفلت الآيات القرآنية ببيان هذا الوعد الكريم؛ منها:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾[آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

فالاستغفار الذي يتواطأ فيه اللسان مع القلب، وتظهر آثاره على الجوارح؛ من ترك الذنوب والمعاصي، والإقبال على الطاعات، لا شك أنه موجبٌ لحصول المغفرة من الله العزيز الغفار، فمن أعطي الاستغفار فقمن به أن يعطى المغفرة، فما ألهم الله عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه.

٢. الجنة والفوز العظيم.

إن أعلى وأفضل ثمار الاستغفار على الإطلاق هو دخول الجنة، دار النعيم المقيم، ودار الرضوان، ودار الجزاء الأوفى، وهو من لوازم المغفرة.

وحفلت الآيات القرآنية ببيان هذا الجزاء العظيم لعباد الله المستغفرين.

فمن الآيات: ما وعد الله به عباده المتقين الذين من أجل صفاتهم: طلب مغفرة الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[آل عمران: ١٥-١٦].

وهذا وعد كريم من الرحمن لعباده المتقين الأبرار، الذين خافوه في الدنيا فأطاعوه؛ بأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، بأن جزاءهم عند ربهم يوم يلقونه هو دخول جناته خالدين فيها، ولهم فيها -زيادة في النعيم- زوجات مطهرات من كل آفة ونقص، جميلات الأخلاق، كاملات الخلائق، ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء[١].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٠٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤١٠.

ومن أجل صفات من ينال هذا النعيم المقيم هم عباد الله المستغفرون؛ فالاستغفار هو أقرب الوسائل إلى مرضاة الله، وأعظم أسباب عز الدنيا وسعادة الآخرة[1].

موضوعات ذات صلة:

الدعاء، الاستعاذة، الذكر، التسبيح، التوبة، الذنب

(١) انظر: تهذيب التفسير، عبد القادر شيبة الحمد ٢/ ٣١٦.





عناصر الموضوع



مفهوم الاستقامة

أولًا: المعنى اللغوي:

«القاف والواو والميم أصلان صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناس، وربما استعير في غيرهم. والآخر على انتصاب أو عزم»[(١)]. «والاستقامة: ضد الطغيان، وهو مجاوزة الحد في كل شيء»[(٢)].

وقد أطلق على معنى الاستقامة عدة معانٍ، منها: القصد، والإصابة، والاستواء، والنظام، والاعتدال، والرشد، والزم، وغير ذلك[(٣)].

وقد اتفق كثير من أهل اللغة - ومن خلال ذكر جذرها حتى الألفاظ القريبة- على أنها ترجع إلى معنى الاعتدال والتوسط، والسلامة من غضب الله تعالى[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك[(٥)].

وقد عرفها الجرجاني بأنها: «الوفاء بالعهود كلها، وملازمة الصراط المستقيم برعاية حد التوسط في كل الأمور، من الطعام والشراب واللباس، وفي كل أمر ديني ودنيوي، فذلك هو الصراط المستقيم، كالصراط المستقيم في الآخرة»[(٦)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٤٣.
(٢) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ٢/ ١٠٤.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٢/ ١٢٦، الصحاح، الجوهري، ٥/ ٢٠١٧، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٥.
(٤) انظر: المصادر السابقة.
(٥) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص ١٩٣.
(٦) التعريفات، الجرجاني، ص١٩.

الاستقامة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ق و م) في القرآن (٦٦٠) مرة، والذي يخص موضوع الاستقامة منها (٤٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾[التوبة:٧]
الفعل المضارع	١	﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾[التكوير:٢٨]
فعل الأمر	٥	﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[هود:١١٢]
اسم الفاعل	٣٧	﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾[الفاتحة:٦]

وجاءت الاستقامة في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: الاعتدال، والاستواء، والالتزام[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم ص٩٨٨،٩٨٧.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٤٩٨

الألفاظ ذات الصلة

١ الإصابة:

الإصابة لغة:

تعني ثلاثة أمور، هي: الصواب، والإيجاد، والإرادة[١].

الإصابة اصطلاحًا:

إرادة العمل الصالح المقبول شرعًا بإيجاد الظروف المناسبة له ضمن ضوابط الشرع الحنيف.

الصلة بين الإصابة والاستقامة :

إن ثمة اتصالًا قويًا بين الإصابة والاستقامة من حيث مدلول الجذر؛ فكلاهما يشترك في الدعوة إلى السلامة من غضب الله تعالى، ومن ثم عذابه؛ لكن الاستقامة أشمل من حيث إنها تجمع أقوال وأعمال وأحوال المسلم، أما الإصابة فيغلب عليها الأعمال، ومن ثم الأقوال.

٢ الاستواء:

الاستواء لغةً:

أصلٌ يدل على استقامة واعتدال بين شيئين[٢].

الاستواء اصطلاحًا:

أية عبادة دلت على استقامةٍ واعتدالٍ بعد اعوجاجٍ وميلٍ عن الحق واتباعه[٣].

الصلة بين الاستواء والاستقامة :

الاستقامة تعني الاعتدال والالتزام بما فيه سلامة من غضب الله تعالى ومن ثم عذابه، أما الاستواء فهي العبادات التي تدل على استقامة بعد اعوجاج حدث، أو ميل عن الحق وقع، وعلى هذا فالاستقامة أعم وأشمل.

(١) انظر: المنجد في اللغة، كراع النمل، ص١٢٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ١١٢.
(٣) انظر: المصدر السابق.



٣ الرشد:

الرشد لغةً:

السير على النهج الصحيح والطريق المستقيم، والرشد والرشد: خلاف الغي [١].

الرشد اصطلاحًا:

«حسن التصرف في الأمر حسًا أو معنىً، دينًا أو دنيا» [٢].

الصلة بين الرشد والاستقامة :

الاستقامة: هي السير على المنهج القويم بما يضمن السلامة من غضب الله تعالى ومن عذابه، أما الرشد: فحسن التصرف في الأعمال؛ للوصول إلى الاستقامة، وعلى هذا فالاستقامة هدف، والرشد طريق عملي؛ للوصول إلى ذلك الهدف.

٤ القصد:

القصد لغةً:

استقامة الطريق [٣]، والقصد هو بيان الهدى [٤].

القصد اصطلاحًا:

حسن التوجه في النية، بما يكفل سلامة العبد من العذاب.

الصلة بين القصد والاستقامة :

الاستقامة: هي السير على المنهج القويم بما يضمن السلامة من غضب الله تعالى ومن عذابه، أما القصد: فحسن التوجه القلبي؛ للوصول إلى الاستقامة، وعلى هذا فالاستقامة هدف، والقصد طريق قلبي؛ للوصول إلى ذلك الهدف.

---

(١) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٧٩.
(٢) التوقيف، المناوي، ص١٧٧.
(٣) انظر: تاج العروس، مرتضى الزبيدي، ٩/ ٣٥.
(٤) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٦٧.

٥ العدل:

العدل لغةً:

يعني المثل[١]، والعدولة والعدل: الحكم بالحق[٢]، وهو عين الاستقامة في الحال في الدنيا، واستقامة المآل في الدنيا والآخرة.

العدل اصطلاحًا:

«وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحق»[٣].

الصلة بين العدل والاستقامة:

العدل أعم من الاستقامة؛ لأن العدل يقتضي استقامة الحال في الدنيا، واستقامة المآل في الآخرة؛ فهو بهذا الوجه بمعنى الاستقامة، وكل ما له مدلول المثلية فهو عدل؛ فإن من العدل ما هو مذموم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام:١].

(١) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض، ٢/ ٦٩.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي، ٢/ ٣٨.
(٣) التعريفات، الجرجاني، ص١٤٧.



أساليب القرآن في عرض الاستقامة

أولًا: أسلوب الأمر:

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:٧].

بينت هذه الآية وما بعدها سبب البراءة من المشركين، وإمهالهم أربعة أشهر، ثم قتالهم، وذلك هو نقضهم العهود، وأنهم معتدون بكل ما تعني الكلمة؛ لكن الاستثناء يظهر هنا للمعاهدين من المشركين الملتزمين؛ فإن استقامتهم هذه على العهود جعلت ضرورة المعاملة بالمثل بالنسبة للمسلمين، ثم تذيل الآية بالجملة التقريرية، ويمكن أن تكون تعليلية ببيان أن الله تعالى يحب المتقين، الذين يخافون من غضب الله تعالى بعدم التزام أوامره ونواهيه[1].

والأسلوب الاستفهامي الاستنكاري في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ بمعنى كيف لا يكون؛ ليفيد مدى بشاعتهم، وبالتالي فإن المعاملة بالمثل من تمام الاستقامة التي أمر المسلمون بالتزامها.

وفي أثناء المعركة قد تشحن النفوس ضد المشركين، وبالتالي لا يضبط المسلمون أنفسهم أمام قاتليهم، وبالتالي فإن الاستقامة مع من استقام من المشركين جاءت بأسلوب الأمر وبعدها ترغيب بأن الله تعالى يحب المتقين؛ لما في أمر الله تعالى وترغيبه من عظيم الأثر في الالتزام.

وتوضح الآية أن الأصل في الإسلام الرحمة والعفو والصفح؛ لكن الذي يستهزئ بالعهود التي أبرمت مع المسلمين فلا عهد له ولا أمان بعد ذلك، مع أهمية ألا تختلط الأمور فيعامل من التزم بالعهد كمن لا يلتزم، ومن هنا جاء الأمر بالاستقامة؛ حتى يمتاز جانب الاعتدال في التعامل مع المشركين إن التزموا بعهودهم.

ثانيًا: أسلوب الترغيب والترهيب:

يكثر في القرآن الكريم استعمال أسلوب الترغيب والترهيب في قضايا كثيرة، ومنها: الترغيب في الاستقامة على المنهج الإسلامي، والترهيب من الإعراض عنه الذي يخالف مبدأ الاستقامة.

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[الجن:١٦-١٧].

بعد أن ذكرت الآيات السابقة أحوال الجن، وتصنيفهم إلى مسلم منصف في المفهوم الرباني ومقتضياته، وظالم في ذلك، ترغب هذه الآية بصيغة إغرائية للخير،

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ١١٨.

بأنهم لو التزموا نهج الصراط المستقيم، واعتدلوا في خط الحق لأتتهم الدنيا بكثرة رزقها، وعبر عن الرزق الوفير في الآية بالماء؛ لأنه أخص خصوص الرزق، وكل هذا الرزق سببه الاختبار في هذه الدنيا؛ وهنا يأتي الترهيب الواضح لمن عدل عن الاستقامة، فاعترض طريق الحق، فإنه يسلك هذه الطريق بمزيد من العذاب الذي لا يتوقف[1].

ثالثًا: أسلوب التأكيد والتنكير:

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

تبين هذه الآية أن قدرة الله تعالى تظهر أيضًا بوحي الله تعالى إليك أيها النبي برسالة القرآن، الذي يصفه بأنه روح من أمر الله تعالى.

ثم يبين الله تعالى نعمته على نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه لولا فضله جل جلاله لما علم عن القرآن والإيمان شيئًا، ولكن الله تعالى جعل من هذا القرآن وهذا الإيمان نورًا يستضاء به.

رابعًا: أسلوب ضرب المثل:

وهو ما يظهر واضحًا في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥-١٢٦].

من يرد الله تعالى هدايته إلى الإيمان يقذف في قلبه النور؛ فينفسح القلب ويعمر بالإيمان، ومن كان غير ذلك ويريد أن يبقى على الضلالة، وينحرف عن الاستقامة التي هي سبيل النجاة، فإن هذه الذنوب تجعل -بتقدير الله تعالى وحده- هذا القلب ضيقًا ليس للخير فيه منفذ، وهكذا فإن الله تعالى يجعل عليهم بشؤم ذنوبهم النجاسة العظيمة، فهم سيئوا التصرف؛ لأنهم غير مسلمين؛ فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يقدر على أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه[2].

---

(١) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ٣/ ٧٦٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٩٨، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ٤/ ١٣٨٦.

الأنبياء والاستقامة

من المعلوم أن أولى الناس التزامًا بالاستقامة هم الأنبياء عليهم السلام؛ إذ إنهم يمتازون عن البشر بعلو كعبهم في الصبر وتحمل المشاق لأجل الدعوة، ومن ثم طلب رضا الله تعالى.

ولذلك فإن القرآن الكريم قد بين أن الأنبياء مأمورون بالاستقامة، التي هي سبيل النجاة من عذاب الله تعالى، وذلك من خلال أربعة نماذج، وهم: سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وسيدانا موسى وهارون عليهما السلام، وسيدنا عيسى صلى الله عليه وسلم، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد اختلفت صيغة الأمر بالاستقامة للأنبياء عليهم السلام، فنجد ما يلي:

منها ما يأتي بصيغة الأمر المباشر من الله تعالى بالاستقامة، كما في نموذج سيدينا موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام.

ومنها ما يأتي من خلال بيان ثمرة الالتزام بأمر الله تعالى؛ فهي الهداية إلى صراط الله المستقيم، كما في نموذج سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

ومنها ما يأتي بصيغة الأمر للمؤمنين بعبادة الله تعالى وحده، وبأن من فعل ذلك فقد هدي إلى صراطٍ مستقيم، وهو منهج الإسلام العظيم، كما في نموذج سيدنا عيسى عليه السلام.

ومنها ما يأتي بصيغة الأمر المباشر للنبي، ومن ثم لمن تاب من أمته من الشرك وأخلص لله تعالى بالتوحيد، بعد بيان نماذج كثيرة من أحوال السابقين، كما في نموذج سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

أولًا: الاستقامة في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

تذكر هذه الآيات نموذجًا مثاليًا في الاستقامة الحقة؛ حيث إنه عليه السلام كان معلم خير، يأتم به أهل الحق والهدى، فهو مطيعٌ لله تعالى على الحنيفية، ليس من المشركين بالله تعالى، كان يخلص الشكر لله جل جلاله ولنعمه الجمة، وقد اصطفاه الله تعالى واختاره لخلته، وهداه إلى الدين الإسلامي القويم، وجزاءً لما بدر منه من عبادات ترضي الله تعالى، آتاه الله عز وجل في هذه الدنيا ذكرًا حسنًا، وثناءً جميلًا باقيًا على الأيام، وإنه في الدار الآخرة يوم القيامة ممن صلح أمره وشأنه عند الله، وحسنت

فيها منزلته وكرامته[1].

وإن سيدنا إبراهيم عليه السلام مثال الاستقامة الحقة؛ بل إن من تشريف الله تعالى له أن جعله أبًا للاستقامة، إن كانت تعني الإسلام، فهو أبو المسلمين بنص القرآن، كما قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[الحج:٧٨].

ومن يستقم على الدين، ويلتزم حقيقته فإنه يفلح في الدنيا والآخرة، وهو ما توضحه الآية الثانية والعشرون بعد المائة من سورة النحل.

ومن يطلب الصلاح والاستقامة يهده الله تعالى لها، كما في قوله تعالى: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢١].

ثانيًا: الاستقامة في قصة موسى وهارون عليهما السلام:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٨٨-٨٩].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٣١٩.

تذكر هذه الآية دعاء سيدنا موسى وهارون عليهما السلام من خلال مقولة الرجاء من سيدنا موسى عليه السلام لربه سبحانه وتعالى - بعد ما زاد فرعون وقومه من طغيانهم-: ربنا إن عطاءك اللامحدود الذي أعطيته لفرعون وقومه من خير كثير، ربنا إن هذا الأمر وجه لأجل الضلال، ربنا اطمس على أموالهم، فمسخت دنانيرهم ودراهمهم وزروعهم حجارةً، واشدد على قلوبهم بالضلالة، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الكثير المؤلم، فحيل بينهم وبين أن يؤمنوا.

وقد كان هارون عليه السلام يؤمن من وراء موسى عليه السلام، ولذلك فإن الله تعالى أجاب دعوتهما مرتبطًا ذلك بالأمر لهما بالاستقامة، وهي الاتزان في لزومها سيما بعدم اتباع طريق الذين لا يعلمون[2].

وتبين هذه الآية أن الله تعالى يهدي من يستحق النصر والتمكين أمثال سيدينا موسى وهارون عليهما السلام إلى الدعاء والرجاء بتذلل وانكسار إليه عز وجل، ثم تبين الآية التالية أن الله تعالى أمر بالاستقامة التي هي أصل الاعتدال؛ لأجل عدم الميل إلى الجهلة، الذين لا يعلمون حقيقة الدين القويم.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٢/ ٢٧١، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٥/ ٣٣١٤.

ثالثًا: الاستقامة في قصة سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [مريم: ٣٤-٣٦].

بينة الآيات الكريمات أن قضية التوحيد ونفي الولد عنه سبحانه وتعالى من قضايا العقيدة الأساسية، ويترتب على ذلك إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له. وهذا هو المنهج المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

رابعًا: الاستقامة في قصة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١١﴾ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾

[هود: ١١٠-١١٢].

تذكر الآية العاشرة بعد المائة من سورة هود جملةً من أساليب التوكيد أن الله تعالى آتى سيدنا موسى عليه السلام التوراة وما فيها من أحكام فاختلف الناس فيها من مصدقٍ إلى مكذب، ولولا أن الله تعالى أخر على هذه الأمة عقاب من يكذبك يا محمد صلى الله عليه وسلم لجاءهم العذاب بعجلٍ بقضاء الله تعالى، وإنهم لفي شكٍ منه موقع للريب.

وتذكر الآية التالية أن كل من ذكرهم الله تعالى من قصص البشر والخلق في هذه السورة وغيرها، والله ليوفينهم ربك أعمالهم، فإن من صفاته أنه خبير بكل ما يعمل هؤلاء الخلق إن كان خيرًا أو غير ذلك.

ثم يأتي الأمر الرباني المباشر من الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالاستقامة بعد بيان حال الخلق عمومًا كما ذكر القرآن؛ لأن الملجأ الحقيقي للنجاة من غضب الله تعالى هو الاستقامة الحقة، وذلك بالتخلي عن الباطل، والتحلي باتباع المنهج المستقيم الذي يتمثل في الإسلام العظيم، وليس الأمر لك يا محمد صلى الله عليه وسلم فحسب؛ بل إن الأمر بالاستقامة ينسحب على من تاب معك من المؤمنين الذين أنابوا إلى بارئهم عز وجل.

ثم جاء التحذير الإلهي لنبي الله تعالى ولجميع من تاب بعدم مجاوزة الحد الذي يحرفكم عن المسار الصحيح، وهو التوحيد الخالص الصافي من الشك والريب، وذلك عين الاستقامة الحقة، فإن من عمل بالحق

أو الباطل فالله تعالى بصير بذلك، فيجازي بفضله أو بعدله[1].

وقد ورد الأمر بالاستقامة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولقومه بعد بيان قصص مجموعة من الأنبياء عليهم السلام؛ لما في ذلك مزيد عبرة.

وربط قصة سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم واختلاف الناس في التصديق أو التكذيب بتأخير العذاب على هذه الأمة لما في ذلك من تخصيص هذه الأمة بالخيرية أكثر من غيرها حتى بني إسرائيل الذين فضلوا على عالمي زمانهم بمتاع زائل، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم تكتسب خيريتها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهذا النص القرآني مفعمٌ بأساليب التوكيد؛ لما يدلل على أهمية الأمر بالاستقامة، وأن الوصول إليها يحتاج إلى طلب العون من الله تعالى وحده.

سبل الاستقامة

إن الاستقامة سمة النبيين ودأب الصالحين، وإنها وسيلة للنجاة من غضب الله تعالى، وبالتالي عذابه، وإن المسلم الحق هو الذي يسلم من الشوائب المبعدة عن الحق، ويتحلى بصفة الاعتدال التي هي في حقيقتها استقامة.

وسبل الاستقامة يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

أولًا: الإيمان بالله تعالى والإخلاص له:

قال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٣-٥٤].

بعد أن ذكرت الآية السابقة ما حكم به عز وجل من تمكين الشيطان من إلقاء الشبه، ذكرت الآية الثالثة والخمسون من السورة العلة من إلقاء الشبه في قلوب أوليائه، وهي جعل إلقائه لهذه الشبه امتحانًا واختبارًا لمن انزلق عن حد الاعتدال والاستقامة وهم المنافقون، ومن قسا قلبه عن فهم الآيات فصارت حجريةً، ثم تذيل الآية بجملة

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٢/ ٤٠٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/ ١٠٣.

تقريرية لحقيقةٍ، ألا وهي أن الظالمين الذين وضعوا أقوالهم وأفعالهم في غير مواضعها لفي خلاف بسبب أنهم في غير شق حزب الله تعالى.

وإن جميع هذه العوامل الإيمانية تجعل منة الهداية الإلهية لهؤلاء المؤمنين - الذين أثبتوا قلبًا وقولًا وعملًا على صدق إيمانهم- موصلةً إلى طريق الاستقامة الحقة، المنجية من غضب الله تعالى وعذابه، سيما وأنها تعني لزوم الإسلام العظيم[1].

والوصول إلى الاستقامة منة من الله تعالى، فإذا أحسنت التوجه إلى الله تعالى، وآمنت به فإن الله تعالى يهديك إلى الاستقامة الحقة.

ولا بد من المرور بالأشواك أثناء التعبد لله تعالى والتنسك بما يشمل معاني الإيمان بالله تعالى والإخلاص له؛ حتى يعلم من يستحق مرتبة الاستقامة من غيره، وهو ما يتبين لنا واضحًا في الآيات في معرض الحديث عن مداخل الشيطان.

ثانيًا: الاعتصام بالله تعالى:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ۝١٠٠ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١].

يروى أن «شاس بن قيس اليهودي» مر على نفر من الأوس والخزرج؛ فاغتاظ مما رأى من الألفة بينهم بما غير الإسلام من أحوالهم، بعدما كان بينهم من بغضاء وشحناء، فبعث شابًا من يهود، يذكرهم ببعاث، وهي معركة كبيرة حدثت مع الأوس والخزرج، فاغتاظ القوم من الأوس والخزرج، وتنادوا: السلاح السلاح، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فذهب إليهم مع نفر من الصحابة، وما زال يعظهم حتى أنابوا إلى بارئهم وتعانقوا باكين، وأنزل الله تعالى هذه الآيات[2].

تبدأ الآية المائة من السورة بنداء إلى المؤمنين، فالعهد المطلوب منهم في هذه الآية هو عدم طاعة فريق الضلال والإضلال من أهل الكتاب؛ لأن العاقبة التي تحل نتيجة ذلك، الردة إلى الكفر بعد الإيمان بسبب حسدهم وبغيهم عليكم، ثم تتساءل الآية التالية سؤالًا استنكاريًا كيف يكون الكفر منكم؟ والحال أن آيات الله تعالى ما زالت تتلى عليكم، بمعنى أنكم تعاصرون نزول الوحي، وما زال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حيًّا بينكم قائمًا بين أظهركم،

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٣/ ٧٢، مراح لبيد، الجاوي ٢/ ٧٧.

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص١١٦، لباب النقول، السيوطي، ص٤٤.

يوجههم ويرشدكم إلى الخير.

ثم ترغب الآية بالاعتصام بالله تعالى؛ فإن من اعتصم به، فإن الله يهديه إلى الطريق القويم، وهو منهج الاستقامة الذي يوصله إلى الجنة[1].

والتحذير من طاعة فريق الضلال والإضلال من أهل الكتاب جاء بصيغة خبرية من خلال بيان العاقبة الوخيمة التي ستحل بهم إن أطاعوهم؛ فهم سيرتدون إلى الكفر.

وبعد التحذير البالغ الأهمية يأتي الترغيب الكبير بالاعتصام من خلال بيان المنة التي ستكون لهم، وهي الصراط المستقيم، الموصل إلى الجنة.

ثالثًا: العبادة والدوام والثبات عليها:

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[الأنعام:١٦٠-١٦١].

تبين الآية الستون بعد المائة عظيم رحمة الله تعالى وفضله؛ فالذي جاء بحسنة فله من الأجر عشر حسنات مثلها، والذي جاء بالسيئة فإن فضل الله تعالى يقتضي أن يجازى بمثلها، ولا يمكن لهؤلاء أن يظلموا، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: **(إذا أحسن أحدكم إسلامه؛ فكل حسنةٍ يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها)**[2].

ثم تخاطب الآية التالية سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم بأمره أن يقول للخلق جميعًا إنني أرشدني ربي ووفقني إلى الدين القويم، الذي هو منهج الاستقامة الحقة، أعني دينًا ذا قيم ومقام رفيع، فهو ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام على الحنيفية السمحة، ثم تذيل الآية ببيان قطعي الدلالة أنه عليه السلام ليس من المشركين[3].

رابعًا: التمسك بالقرآن:

قال تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾[الجن:١-٢].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. قال: **(انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت**

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٤١، بيان المعاني، عبد القادر العاني، ٥/ ٣٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء، ١/ ١٧، رقم ٤٢.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ١٧٧.

الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء.

فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم، وقالوا: يا قومنا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[الجن:١-٢].

فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾[الجن:١].وإنما أوحي إليه قول الجن)[١].

تبدأ سورة الجن بأمر إلهي لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول للخلق جميعًا: أوحي إليه من الله تعالى وحده أنه طاف عدد لا يزيد عن عشرة من الجن فتوجهوا نحو تهامة، فإذا بهم يسمعون كلام القرآن العظيم، الذي ملئ من العجائب، فهو يدعو ويرشد إلى الصواب من التوحيد والإيمان الذي هو عين الاستقامة المنجية من غضب الله تعالى وعذابه، ولذلك لم يسع الجن إلا أنهم آمنوا إيمانًا لا مراء فيه ولا نفاق، وعهدٌ على عدم الشرك بنوعيه بالله الرب المتعال[٢].

خامسًا: اتباع رضوان الله تعالى:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة:١٥-١٦].

يخاطب الله تعالى أهل الكتاب ببيانه لهم أن رسولنا محمدًا صلى الله عليه وسلم قد جاءهم؛ ليوضح لهم الدين الذي أخفوا كثيرًا منه؛ وليعفو عنهم في كثير من زلاتهم؛ ثم تذيل الآية ببيان أنه قد جاءكم يا أهل الكتاب نور، وهو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقرآن كريم، وحتى يهتدي المؤمن إلى القرآن، والاستقامة في التزامه،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر، ١/ ١٥٤، رقم ٧٧٣.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٣٤٦.

لا بد من اتباع رضوان الله تعالى؛ بالانضباط في طريق السلامة من غضب الله تعالى، والخروج من الباطل وما فيه من ظلمات، إلى طريق واحد وهو النور المبين، وكل هذا منوطٌ فقط بإذن من الله تعالى وحده، فإذا قام من قام ممن هدى الله قلبه للإيمان بذلك، فعندها يرشد الله تعالى ويوفق إلى الطريق القويم، وهو المنهج الرباني الأصيل[1].

سادسًا: التوبة والاستغفار:

التوبة إلى الله تعالى تعني الإنابة والرجوع إلى الله تعالى والندم على الذنوب، والعزم على العمل الصالح طاعةً لله تعالى، وهذا كله عين الاستقامة المنجية من غضب الله تعالى، وقد شهدت الآية الثامنة والستون من سورة النساء نموذجًا واضحًا بهذا الشأن.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

«سبب نزولها ما روي أن ثابت بن قيس بن شماسٍ تفاخر هو ويهوديٌّ، فقال اليهودي: والله لقد كتب علينا أن نقتل أنفسنا فقتلنا، وبلغت القتلى سبعين ألفًا، فقال ثابتٌ: والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لفعلنا»[2].

يخبر الله تعالى في الآية السادسة والستين من السورة: أن الله تعالى لو كتب على يهود عصر النبي صلى الله عليه وسلم أن اقتلوا أنفسكم بالجهاد، أو اخرجوا من دياركم كما كان من اليهود السابقين حين استتيبوا من عبادة العجل؛ ما فعلوه إلا القليل منهم، مع أن الأصل أن يفعلوا ما يوعظون به، وذلك أفضل لهم وأعظم في الثبات على الحق، ولأعطاهم الله تعالى الأجر العظيم، ولمن الله تعالى عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وهذا مرتبط بمزيد الاستغفار والتوبة النصوح والرجوع إلى الله تعالى، والتذلل والانكسار إليه جل جلاله[3].

ومن رحمة الله تعالى بهذه الأمة المحمدية أن جعل منة الهداية إلى الاستقامة ميسورة، ليس فيها مشقة كما كان حال السابقين.

ولا يصل المؤمن إلى قبول توبته من قبل الله تعالى إلا إذا تذلل وانكسر إليه جل جلاله.

سابعًا: اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ١١٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٢٧٠.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ٨٢.

قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

تحذر هذه الآية الكريمة من أن ينادي المسلمون رسول الله محمدًا صلى الله عليه وسلم باسمه، كما لو كانوا ينادون بعضهم البعض؛ فلا تقولوا: يا محمد، ولا يا أبا القاسم، ولا يا ابن عبد الله؛ لأن الله تعالى يعلم حال المنافقين الذين يخرجون من المسجد خفيةً؛ هروبًا من أن يسمعوا كلام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فهم يلوذ بعضهم إلى بعض بدل أن ينطلقوا إلى الحق، ثم تحذر الآية من مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا تصيبهم بليةٌ، أو يصيبهم العذاب المؤلم في الدنيا والآخرة؛ لأن من يتخلف أو يتقاعس عن اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه فلن يصل إلى الاستقامة الحقة[1].

ثامنًا: الشكر لله تعالى:

لا شك أن الشكر لله تعالى من أنجع الطرق الموصلة إلى الاستقامة الحقة، فاستقامة جدنا الذي نتشرف بالانتساب إليه سيدنا إبراهيم عليه السلام، واصطفاؤه وتقريبه من المنزلة الرفيعة من الهداية، جاء كل ذلك لأنه التزم القنوت والعبادة، وهو إمام جامع لكل الفضائل، يأتم به أهل الهدى في التزام الحنيفية السمحة؛ لاستجماعه كمالاتٍ لا توجد في غيره، وقد التزم الشكر الذي لا مثيل له لله تعالى؛ واقتران الشكر مع الهداية إلى الاستقامة؛ لبيان النتيجة والثمرة، وهي تحبيب الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام لكل الناس؛ لأنه موحد في دين الإسلام ليس يهوديًا ولا نصرانيًا[2].

ويتجلى ما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١].

وإن من موجبات شكر العبد لله تعالى نعمه التي لا تعد ولا تحصى، ومن هذه النعم: أن الأمة المحمدية هي أمة العدل والاستقامة التي تتوسط الناس، من حيث دراية أخبارهم بما علم من كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ومن حيث التوسط في الدين؛ فلا هم أهل غلوٍ فيه كالنصارى، ولا هم أهل جفاء كاليهود، وإن الأمة شاهدةٌ على جميع الناس منذ سيدنا آدم عليه السلام إلى يوم القيامة،

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ٣/ ٥٥٤، تفسير السمرقندي، ٢/ ٥٢٧.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٦/ ٤٢٠، زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٨/ ٤١٢٧.

كما يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وتلك هي الخيرية بعينها مشروطةً بلوازمها من أمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عن منكر، وإيمانٍ بالله تعالى[1]، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

تاسعًا: العدل:

قال تعالى: ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل:٧٥-٧٦].

يضرب الله تعالى في هذه الآية مثلًا لنفسه والآلهة التي تعبد من دونه؛ فأما الآلهة فهي لا تعدو عن كونها صنمًا لا يسمع ولا ينطق، ينتظر إذن الحركة والتقلب ممن يعبده، إذا دعاه هذا العابد لا يأت بخير، فهل يستوي هذا الوثن مع الله تعالى الذي يأمر بالاستقامة الحقة، ومعلوم أن منهج الله جل جلاله هو منهج مستقيم، بمعنى أن من يلتزم أوامره يكون على هذا الصراط المستقيم[2].

وأسلوب ضرب المثل في أخص خصوص الاعتقاد، وهو إثبات وجود الله تعالى، فيه مزيد حجةٍ بالغةٍ على أولئك المعرضين عن طريق الاستقامة الحقة، ولذلك فإن الله تعالى بين صفة العدل والأمر به؛ لأن عذاب الله تعالى لعباده عدلٌ، ورحمته بهم بإدخالهم الجنة فضلٌ.

عاشرًا: الدعاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩٤].

يذكر الله تعالى في هذه الآيات أن التفكر في خلق الله تعالى الذي لا حصر له، ومن

(١) انظر: معاني القرآن، الفراء، ١/ ٨٣، جامع البيان، الطبري، ٣/ ١٤٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٢٦٢، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٢/ ٤١٢.

نماذجه المبصرة السماوات والأرض، واختلاف المناخات والأوقات وما ينتج عن ذلك من متغيرات، كل ذلك يعد عبرةً وآية لكل ذي لبٍ، أي: عقلٍ صافٍ من الشوائب، فهم الذين يستقيمون على المنهج؛ باستحضار الله تعالى في كل أحوالهم وأقولهم وأفعالهم سواء أكانوا في الصلاة أم في حياتهم عمومًا قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، ثم يتذللون وينكسرون مقرين بأن الله تعالى أحسن وأتقن كل شيء خلقه، فهو منزهٌ عن أي نقص، متضرعين إلى الله تعالى راجين أن ينجوا من العذاب الأخروي.

فإن من أدخل النار فقد أخزي من قبل الله تعالى، وليس لأحد من الظالمين من أي ناصر، إذا كان الله تعالى هو الآمر، ثم تتجلى طبيعة الاستجابة من قبل هؤلاء المؤمنين المستقيمين المعتدلين أنهم بمجرد سماع منادي الإيمان من بعيد، فإنهم فطنوا إلى ذلك - دونما فذلكةٍ- فآمنوا إيمانًا يسلب قلوبهم نحو بارئهم، فما دام الإيمان تغلغل في قلوبهم، فإنهم يتقربون إلى الله تعالى بالأعمال الصالحات، ويسألون الله خيرًا فهم يطلبون أولًا المغفرة من الذنوب، ثم الستر الكامل الذي يحط السيئات، ولضمان استمرار الخير، أن يبقوا حتى وفاتهم في صحبة أهل الخير البررة.

فإذا ما استجاب الله تعالى ببركة حسن ظنهم به جل جلاله، فإنهم يرجون الجنة التي وعدها الله تعالى للرسل عليهم السلام، وعدم الخزي بعدم استجابة دعائهم؛ بأن تتقلب قلوبهم إلى الشر في الدنيا قبل نهاية حياتهم، فالله تعالى لا يخلف وعده لأيٍ من خلقه، وهؤلاء المؤمنون المستقيمون يقرون بذلك[1].

الحادي عشر: العلم:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨].

تذكر هذه الآية الكريمة أنه كما كان اختلاف في اللون والنوع في الثمار والجبال، فإن الناس والدواب عمومًا مختلفون أيضًا في اللون والنوع، ثم تستأنف الآية مقررة لحقيقةٍ، ألا وهي أن الذين يخشون الله تعالى ويعملون قصارى جهدهم للسلامة من غضبه، ومن ثم الاستقامة، هم العلماء المؤمنون المستسلمون لله تعالى ولأمره، فالله تعالى متصف بالعزة والمغفرة، فهما اسمان له[2].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ٣/ ٨٤١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٤/ ٣٠، الكشف والبيان، الثعلبي، ٨/ ١٠٥.

موانع الاستقامة

لتحصيل الاستقامة موانع نتناولها في النقاط الآتية:

أولًا: الكفر والشرك بالله تعالى:

قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

تبين هذه الآية الكريمة أن طريق الاستقامة يختلف عن طريق الغواية في صفاته وملامحه، فلا يختلط هذا بذاك.

وتبين أن الكفر بما يعبد من دون الله قضية كبرى في الدين، فلا يصح إيمان العبد بالله تعالى حتى يكفر بكل ما يعبد من دونه[1].

ثانيًا: اتباع سبل الشيطان:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٣٩-٤٢].

تذكر الآيات السابقة أولى مراحل الصراع والعداوة بين الشيطان والإنسان.

وتذكر هذه الآيات أن إبليس تعهد بمحاولة إغواء بني آدم، وإبعادهم عن الطريق المستقيم، مستخدمًا أسلوب التزيين والتدليس، فيظهر لهم الحق باطلًا، والباطل حقًا.

وأقسم أن سيبذل في سبيل ذلك كل الوسائل والطرق التي تغوي بني آدم، وتبعدهم عن دين الله، واتباع شرعه.

ولكنه أقر في نهاية حديثه أن هناك فئة من بني آدم لا يستطيع إغواءهم، وهم من اصطفاهم الله، وهداهم إلى صراطه[2].

ويفسر إبليس تكبره على الحق بأنه غواية من الله تعالى بسبب خلقه آدم، الذي يرى إبليس أنه أفضل منه، ولكنه استكبر، ولم يستجب لأمر الله، ويسجد لآدم.

ثالثًا: الفرقة والاختلاف:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩].

تبين هذه الآية الكريمة أن الذين تركوا دينهم وخرجوا عنه كاليهود والنصارى، أو الذين جعلوا دينهم متفرقًا، فأخذوا ببعضه وتركوا بعضه، هؤلاء جميعًا أنت يا محمد صلى الله عليه وسلم لست منهم في أي شيء مما يسرون أو يعلنون، من حيث

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ١/ ٢٦٠.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١١/ ٥٨، البحر المديد، ابن عجيبة، ٣/ ٨٨.

محاسبتك لهم في الدنيا، ولن تحاسب عليهم، فأمرهم وحالهم كله مرجعٌ إلى الله تعالى، ثم يخبرهم خبرًا يقينيًا بعد مماتهم أو يوم القيامة، بكل فعلة فعلوها[1].

ونجد أن الاختلاف في قراءة (فرقوا) حصل منه اختلاف المعنى الذي سبق، فقرأ حمزة والكسائي (فارقوا) بمعنى «ترك الدين»، والباقون قرءوا (فرقوا) بمعنى «جعل الدين متفرقًا» [2]، وفي هذا بيان لعظيم خطر من انحرف عن طريق الاستقامة الحقة، واتبع هواه.

رابعًا: الطغيان:

قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه:٨١].

يأمر الله تعالى - على وجه بيان الحل والتذكير بنعمه- بني إسرائيل أن يأكلوا من جميع الطيبات التي رزقها الله تعالى لهم؛ ولكن هذا منوط بعدم الطغيان، وهو مجاوزة الحد، الذي هو ضد الاعتدال والاستقامة؛ فإن ذلك ينذر بغضب الله تعالى، ومن يأت إليه غضب الله تعالى فقد أهلك؛ لأنه يتبع هواه؛ فقد حمله السعة والعافية على التجاوز والطغيان[3].

خامسًا: الركون إلى الذين ظلموا:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

تبين الآية الكريم أن من أسباب دخول النار والعذاب فيها: الركون إلى الظالمين، والميل إليهم، وموالاتهم.

وفي المقابل لن يستطيع هؤلاء الظالمون نصرتهم يوم القيامة، بل هم أحوج منهم لمن ينصرهم[4].

سادسًا: اتباع الجهلة:

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[الأنعام:١١٦].

تنهى الآية الكريمة عن طاعة الكفار من خلال بيان العاقبة، وذلك أن مآل طاعتهم هو الضلال عن طريق الحق والاستقامة، طريق الدين القويم، فهم يبنون افتراءاتهم على الظن، وهم يكذبون في ذلك[5].

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٢٠٨، الدر المنثور، السيوطي، ٣/ ٤٠١.

(٢) انظر: الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، ص١٥٢.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٣٣، فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٤٤٨.

(٤) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي، ص٣٠١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٢٤٥.

(٥) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي، ص١٨٢، فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ١٧٧.

سابعًا: اتباع الهوى:

قال الأوزاعي: «قال إبليس لأوليائه: من أين تأتون بني آدم؟ قالوا: من كلٍ.

قال: فهل تأتونهم من قبل الاستغفار؟ قالوا: إن ذلك لشيءٌ ما نطيقه، إنه لمقرونٌ مع التوحيد.

قال: لأتينهم من بابٍ لا يستغفرون الله منه، فبث فيهم الأهواء»[(١)].

وبالتالي فإنه لا سبيل إلى الاستقامة إلا إذا تخلص المسلم من موانعها، وأعظمها الأهواء، وقد عالج القرآن الكريم ذلك من خلال آيات كثيرة.

منها قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون:٧١-٧٣].

تبين هذه الآيات الكريمة بأسلوب الشرط، أنه لو أن الله تعالى - الذي من صفاته الحق- اتبع أهواءهم فيما يشتهونه أو يعبدونه لفسد تدبير السموات والأرض؛ لأنها مدبرة بالحق لا بالهوى، ولفسدت أحوال السموات والأرض؛ لأنها جارية بالحكمة لا على الهوى، ولفسد من فيهن من المخلوقات، ثم تذيل الآية بحرف إضراب، من خلال أن الله تعالى أتاهم بكل ما هو حق، لكنهم عن هذا الحق معرضون، وبأسلوب التخيير لغرض بيان العاقبة الفضلى، يسأل الله تعالى نبيه محمدًا هل تريد منهم أمرًا من رزق، فرزق ربك خيرٌ وأفضل، فهو خير الرازقين، ثم تخبر الآية التالية على وجه التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم: أنك يا محمد تدعوهم إلى الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه[(٢)].

(١) ذم الكلام وأهله، الهروي، ٥/ ١٤٧.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٤/ ٦٣، زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٢٦٧.

الآثار والثمرات المترتبة على لزوم الاستقامة

إذا التزم العبد طريق الاستقامة ظهرت عليه وعلى المجتمع الذي يعيش فيه آثار وثمرات نتناولها في النقاط الآتية:

أولًا: في الدنيا على الفرد والمجتمع:

لا شك أن موضوع الاستقامة اتسم بالأهمية التي يقف عندها كل مسلم، وإن القرآن الكريم أخبرنا أن لها آثارًا وثمراتٍ في الدنيا قبل الآخرة، على الفرد والمجتمع، فمنها:

١. زيادة النشاط في الدعوة إلى الله تعالى.

وهذا يكون من خلال طمأنة الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، عندما كذبه قومه، أنك يا محمد تدعو إلى الاستقامة الحقة، لهذا الدين القويم، ويفسر ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المؤمنون:٧٣].

٢. التمسك بالمنهج المستقيم والعض عليه بالنواجذ.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣].

فإن هذه الآية تعني وجوب التمسك بالقرآن؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قائمٌ على هذا الدين، الذي هو الصراط المستقيم[١].

٣. تنزل الملائكة على هؤلاء المستقيمين بالبشريات.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

فقد بين العز بن عبد السلام في مختصر تفسير الماوردي أن تنزل الملائكة إما أن يكون عند الموت، أو يوم القيامة، وعلى القول الأول تتحقق ثمرة للاستقامة في آخر عهد هذا المستقيم في الدنيا[٢].

٤. ولاية الملائكة للمستقيمين.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١﴾[فصلت:٣١].

فببركة استقامة هؤلاء المؤمنين تأتي إليهم الملائكة، وتخبرهم أنهم أحباؤهم وأنصارهم، فقد كنا الحفظة عليكم؛ بأمر من الله تعالى[٣].

٥. الرزق الكثير لمن التزم

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ٨/ ٣٣٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن، ٣/ ١٣٠.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ١٣٢.

الاستقامة.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦].

والماء هو أساس الحياة لكل شيء، فبه يحيا الإنسان، ويحيا الحيوان، وينبت الزرع والكلأ، وبه يزداد الخير والرزق بالبلاد والعباد، كل ذلك بسبب استقامة الخلق على منهج الله تعالى.

ثانيًا: في الآخرة:

١. لا خوفٌ على المستقيمين ولا حزن.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف:١٣].

فإن الأمن من الفزع الأكبر، وكل ما يستقبلهم في الآخرة يكون حليف هؤلاء المستقيمين، وكذلك لا يحزنهم ما فاتهم[١].

٢. دخول الجنة، والخلود فيها.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف:١٤].

فبينت الآية الكريمة أن الأعمال الصالحات سبب لنيل الرحمة، جزاء استقامتهم على التوحيد والطاعة[٢]، إذ إن (أولئك) في هذه الآية هي إشارة إلى المستقيمين الذين ذكرتهم الآية السابقة لها، وهي الثالثة عشر من نفس السورة، وقد جعلت جزاءهم على الاستقامة هو دخول الجنة مع الخلود فيها.

٣. محبة الملائكة ونصرتها للمستقيمين.

ويدل على هذه الثمرة الآية الواحدة والثلاثون من سورة فصلت، وقد ذكرناها في معرض ثمرات الاستقامة في الدنيا، ومعنى هذه الآية أننا «نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم»[٣].

٤. المستقيمون ينالون ما يتمنون في الجنة.

ويدل على هذا الأمر الآية السابقة من سورة فصلت، في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾، فإنها تعني أن لهم ما يسألون

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢٧٩.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، ٧/ ١٧٧.



ويتمنون[1].

٥. المستقيمون في ضيافة الرحمن يوم القيامة.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت:٣٢].

والمقصود بالنزل رزق النزيل، وهو الضيف[2]، وذيل الآية بصفتي المغفرة والرحمة؛ لبيان تفضل الله تعالى على عباده المستقيمين على طاعته ومنهاجه.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٣٥٩.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٨٨.

الآثار المترتبة على الانحراف عن الاستقامة

الانحراف عن طريق الاستقامة له آثار وعواقب نتناولها في النقاط الآتية:

أولًا: في الدنيا على الفرد والمجتمع:

إن من يتخلف عن طريق الاستقامة الحقة ينل العقاب من الله تعالى في الدنيا قبل الآخرة، وقد دل على ذلك آياتٌ كثيرةٌ، سنذكر منها في معرض الاستدلال على بعض هذه العواقب التي تترتب على الانحراف عن الاستقامة، وهي على النحو التالي:

١. المعيشة النكدة.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤].

أي: من أعرض عن هداي وذكري، وينحرف عن الاستقامة الحقة، فإن له حياة نكدة؛ إذ إنه يلهث وراءها، خائفًا من انتقاصها، وتلك هي عقوبةٌ لا يتصور عذابها من الخلق إلا من ابتلي بها[3].

٢. قسوة القلوب ولعن الله لهم.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٤١.

﴿قَسِيَةً﴾ [المائدة:١٣].

وهذا يعني أن نقض اليهود للميثاق سواء أكان الميثاق العام في عالم الذر، أو الميثاق الخاص ببني إسرائيل، حرفهم عن الاستقامة الحقة، وعقوبتهم العاجلة هي لعنة الله تعالى عليهم، وقسوة قلوبهم.

من يعرض عن الاستقامة وطريقها يسلك العذاب الشاق: ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن:١٧].

ثانيًا: في الآخرة:

١. الهلاك والوعيد.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت:٦].

فقد وردت هذه الآية في سياق بيان العقوبة الأخروية، وهي الوعيد بالهلاك الشديد في النار لكل من انحرف عن الاستقامة؛ لأن الاستقامة المقصودة هنا التوحيد، والوعيد هنا لما يضاده، وهو الشرك[1].

٢. الحشر يوم القيامة على العمى.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤].

وهذا يعني أن من تخلف عن الاستقامة، بإعراضه عن الطاعة ومن ثم التوحيد، فإنه يساق يوم القيامة بصيرًا، فإذا سيق إلى الحشر عمي[2].

٣. العداوة بين المنحرفين عن الاستقامة.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف:٦٧].

وهذا يعني أن الأخلاء في الدنيا يكونون يوم القيامة أعداء لبعضهم البعض، بسبب بعدهم عن الاستقامة على طاعة الله تعالى، أما المتقون الذين استقاموا على الدين، فلا عداوة بينهم بل هم أخلاء متحابون[3].

موضوعات ذات صلة:

الصراط، الضلال، الغلو، الهداية، الوسطية

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٧/ ٥٤٢.

(٢) انظر: المصدر السابق، ٢٢/ ١١١.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٨٢.





عناصر الموضوع



مفهوم الاستكبار

أولًا: المعنى اللغوي:

مادة (كبر) تأتي على معانٍ متعددة، أهمها:

أنها تدل على خلاف الصغر، والكبر: معظم الأمر، والكبر: العظمة، وكذلك الكبرياء[1]، والكبر والتكبر والاستكبار تتقارب،وأصل ذلك أن يستعمل في الأعيان ثم استعير للمعاني، ومنه ما اعتبر فيه المنزلة والرفعة، نحو: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩].

وأكابر القوم رؤساؤهم، والكبيرة متعارفة في كل ذنب تعظم عقوبته، والجمع كبائر، وأكبرت الشيء: رأيته كبيرًا، والتكبير يقال لذلك، ولتعظيم الله تعالى بقولهم: الله أكبر، ولعبادته واستشعار تعظيمه[2]،والكبرياء: الملك، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:٧٨][3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

وقال الراغب الأصفهاني: «الكبر: الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره»[4].

وقيل أيضًا: الحالة التي يكون عليها الإنسان من الترفع والتعالي على الآخرين واحتقارهم، والتمنع عن قبول الحق معاندة وجحودًا وإنكارًا.

وهذا التعريف يشمل الاستكبار الناتج عن تعالي النفس واستصغارها للغير، سواء أكان ذلك حقًا أم باطلًا، وكذلك الحديث عن عدم قبول الحق والخضوع له، وهذا هو مفهوم حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (الكبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس)[5].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ١٥٤،١٥٣.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٥٤٣-٥٤٦.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ١٢٥.

(٤) المفردات، ص٥٤٥.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم ٩١، عن عبد الله بن مسعود. ومعنى (بطر الحق): دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا، و(غمط الناس): احتقارهم. شرح صحيح مسلم، النووي، ٢/ ٩٠.

الاستكبار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (كبر) في القرآن الكريم (١٥٤) مرة، يخص موضوع البحث منها (٧٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٩	﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ [الأعراف:٧٥]
الفعل المضارع	١٣	﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣]
اسم الفاعل	١٣	﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧﴾ [المؤمنون:٦٧]
المصدر	٢	﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦]

وجاء الاستكبار في القرآن بمعناه في اللغة وهو: استعظام الإنسان نفسه، واستحسان ما فيه من الفضائل، والاستهانة بالناس، واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضع له[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٠٠١-١٠٠٢.
(٢) انظر: تهذيب الأخلاق، الجاحظ، ص ٣٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاستنكاف:

الاستنكاف لغةً:

نكف عن الشيء نكفًا: امتنع أنفة، وأنكفه: نزهه عما يستنكف منه، واستنكف عن العمل: امتنع مستكبرًا[(١)].

الاستنكاف اصطلاحًا:

«هو الامتناع والانقباض عن الشيء حمية وعزة»[(٢)].

الصلة بين الاستكبار والاستنكاف:

فرق الزجاج بين التكبر والاستنكاف فقال: الاستنكاف تكبر فيه أنفة، وليس في الاستكبار ذلك[(٣)]، فإذا اقترن التكبر مع الأنفة كان استنكافًا؛ لذا كان الاستنكاف أوسع دلالة وأعلى رتبة من الاستكبار.

قال أبو السعود: «والاستكبار دون الاستنكاف المنبىء عن توهم لحوق العار والنقص من المستنكف عنه»[(٤)].

٢ العجب:

العجب لغةً:

العجب بالضم: الزهو والكبـر، ورجلٌ معجبٌ: مزهوٌ بما يكون منه حسنًا أو قبيحًا، وقيل: المعجب، الإنسان المعجب بنفسه أو بالشيء، وقد أعجب فلان بنفسه إذا ترفع وتكبر فهو معجب برأيه وبنفسه. والاسم: العجب، وهذه المادة مما تدل عليه كبر واستكبار للشيء[(٥)].

العجب اصطلاحًا:

مسرة بحصول أمر، يصحبها تطاول به على من لم يحصل له مثله، بقول أو ما في حكمه، من فعل، أو ترك، أو اعتقاد.

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص٩٥٣.
(٢) كتاب العين، الفراهيدي، ٥/ ٣٨٣.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٥/ ٥٦.
(٤) إرشاد العقل السليم، ٢/ ٢٦١.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٢٤٣، لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٥٨٢.



الصلة بين الاستكبار والعجب:

«الفرق بين العجب والكبر:أن العجب بالشيء شدة السرور به حتى لا يعادله شيء عند صاحبه، تقول: هو معجب بفلانة إذا كان شديد السرور بها، وهو معجب بنفسه إذا كان مسرورًا بخصالها،ولهذا يقال: أعجبه، كما يقال: سُرَّ به، فليس العجب من الكبر في شيء»[١]،فالعجب ليس هو الكبر، وإنما هو أحد أسبابه الداعية إليه[٢].

٣ الاستعلاء:

الاستعلاء لغةً:

العين واللام والحرف المعتل أصل واحد يدل على السمو والارتفاع، ومن ذلك: العلاء والعلو، ويقولون: تعالى النهار، أي: ارتفع[٣].

الاستعلاء اصطلاحًا:

طلب العلو المذموم، وقد يكون طلب العلا أي الرفعة، وقوله: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ [طه:٦٤]، يحتملهما[٤].

الصلة بين الاستكبار والاستعلاء:

الاستعلاء يشترك مع الاستكبار في معناه المجازي، ويفترق عنه في معناه الحقيقي،فأصل الكلمة أن تستعمل في الحقيقة على معنى الارتفاع ضد السفل، ثم تجوز بها عن التكبر والاستيلاء على وجه الظلم[٥]، وقد وصف الله تعالى بالاستعلاء بعض خلقه في الحق تارة، وفي الباطل تارة أخرى،ولم يصف أحدًا بالاستكبار على الوجه المحمود.

٤ العتو:

العتو لغةً:

عتا يعتو عتوًا وعتيًا: استكبر وجاوز الحد. والعتا: العصيان، والعاتي: الجبار، وجمعه عتاةٌ، والعاتي: الشديد الدخول في الفساد، المتمرد الذي لا يقبل موعظة[٦].

---

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٨.
(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ٤٥٦.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ١١٢.
(٤) انظر: التوقيف، المناوي، ص٥٩.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١٥/ ٢٥.
(٦) لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ٢٧ بتصرف.

العتو اصطلاحًا:

العتو: عبارة عن الإباء والعصيان[1]، ومجاوزة الحد فيه بحيث لا يتأثر معه القلب بالموعظة ولا يقبل النصيحة.

قال تعالى حكاية عن بني إسرائيل وقد بلغ العتو فيهم مبلغه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف:١٦٦].

والعتو هنا بمعنى التكبر، أي: «فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه»[2].

الصلة بين الاستكبار والعتو:

الفرق بين العتو والاستكبار واضح في أن العتو أعلى درجات الاستكبار، فإذا تجاوز المستكبر الحد في العصيان والتمرد، بحيث انغلق قلبه عن الموعظة وسماع النصيحة صار عاتيًا.

٥ التواضع:

التواضع لغةً:

الوضع ضد الرفع، وضعه يضعه وضعًا وموضوعًا،والضعة: الذل والهوان والدناءة، والتواضع: التذلل وتواضع الرجل: ذل[3].

التواضع اصطلاحًا:

«تذلل القلوب لعلام الغيوب بالتسليم لمجاري أحكام الحق»[4].

الصلة بين الاستكبار والتواضع:

التواضع ضد الاستكبار، فالأول محمود، والثاني مذموم.

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٤/ ٤٥٤.
(٢) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٥٢٦.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٣٩٦.
(٤) التوقيف، المناوي، ص٢١٢.

الكبريا والعظمة لله تعالى

الكبرياء والعظمة لا يكونان إلا لله تعالى وحده لا يشاركه فيهما أحد، فليس للعبد الحق في أحدهما -فضلًا عن كليهما-، إذ هما من خصائص العلي الكبير سبحانه؛ لذا تقررت هذه العقيدة في آيات من كتاب الله تعالى، منها الآية الخاتمة لسورة الجاثية: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٧].

بعد أن ذكر سبحانه في مطلع السورة من مظاهر العظمة والكبرياء، وتوعد المستكبرين عن آياته بالعذاب الأليم، وقد تحقق هذا الوعيد قبيل ختام السورة الكريمة فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الجاثية:٣١].

فكان سبب عذابهم أنهم نازعوا الله تعالى شيئًا من خصائصه وهو الكبرياء، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه الشهير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل: (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار)[1].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وصححه الشيخ الألباني.

وقد تأكدت هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر:٢٣].

إنه سبحانه وتعالى ينزه نفسه عن أن يشاركه أحد في كبريائه، فهو المتكبر وحده، وكل من دونه فهو صغير حقير أمام عظمته جل جلاله.

«إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف؛ لكنه سبحانه منزه عن التكبر الذي هو حاصل للخلق؛ لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي، أما الحق سبحانه فله العلو والعزة، فإذا أظهره كان ذلك ضم كمال إلى كمال، فسبحان الله عما يشركون في إثبات صفة المتكبرية للخلق.»[2].

اقتران اسم الله الكبير بالعلي:

ورد اسم الله (الكبير) في خمسة مواضع من الكتاب العزيز، وجميع هذه المواضع اقترن فيها هذا الاسم بالعلو؛ ففي سورة الرعد قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد:٩].

أما ﴿الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فقد وردت في أربع سور هي: الحج، لقمان، سبأ، وغافر،

(٢) مفاتح الغيب، الرازي، ٨/ ١٨٣.

وهذه المواضع هي:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان:٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ:٢٣].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر:١٢].

وكما هو ملاحظ من الآيات أن جميعها جاءت في سياق الوحدانية والتفرد في المشيئة، وبما يؤكد أن الكبرياء والعظمة والعلو لله وحده لا شريك له، وأن ما دونه فهو مربوب مقهور.

أسباب الاستكبار

عند النظر في كتاب الله تعالى نجد أن استكبار العبد يرجع إلى أسباب متعددة، نقف عليها من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الكفر:

«الكفر: تغطية ما حقه الإظهار، والكفران: ستر نعمة المنعم بترك أداء شكرها. وأعظم الكفر: جحود الوحدانية أو النبوة أو الشريعة. والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالًا، والكفر في الدين أكثر»[1].

فالكافر: هو من جاءه الحق من الله تعالى على لسان الرسل أو من ينوب منابهم في مهمة الدعوة إلى الله، فاستكبر عن الخضوع والإذعان له، وتمرد وتعالى عليه، وجحد نعمة الدين، وأبى أن يكون من الموحدين التابعين له.

إن الله تعالى قد وصف قومًا من أهل النار بأنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، وأنهم كانوا من الكافرين.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر:٥٩].

وذكر تعالى أن عادًا جحدوا آيات الله، وتمادوا في عتوهم وعنادهم، فكان كفرهم

(١) التوقيف، للمناوي، ص٦٠٦.

وجحودهم سببًا في استكبارهم بغير الحق، وكان استكبارهم سببًا في عذابهم وهلاكهم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٥-١٦].

وأخبر تعالى عن قوم نوح عليه السلام، وقد وصل بهم العناد والجحود والكفر إلى درجة بالغة، فكان ذلك الإصرار على الكفر سببًا لبلوغ الكبر عندهم إلى أعلى الدرجات، حتى صور الله حالهم بصورة تبين ذلك بأبلغ تصوير، فقال تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح:٧].

فالكفر هو أحد الأسباب القوية لحصول الكبر، ومانع من الهداية إلى الإيمان.

ثانيًا: اتباع الهوى:

«الهوى: ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل: سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»[1].

ويطلق الهوى ويراد به المحبة، كما يطلق على الشيء المحبوب مبالغة، كما يكنى به عن الباطل والجور والظلم لما هو متعارف من الملازمة بين هذه الأمور وبين هوى النفس، فإن العدل والإنصاف ثقيل على النفوس فلا تهواه غالبًا، «وهوى النفس يكون في الأمور السهلة عليها، الرائقة عندها، ومعظم الكمالات صعبة على النفس؛ لأنها ترجع إلى تهذيب النفس والارتقاء بها عن حضيض الحيوانية إلى أوج الملكية»[2].

ولما كان الاستكبار مما تهواه النفس وتميل إليه؛ كان الهوى سببًا له، وسبيلًا إليه، وقد أخبر تعالى أن بني إسرائيل تمردوا على الحق لما جاءهم، وكذبوا رسلهم وقتلوهم، وسبب ذلك هوى النفس الذي ساقهم إلى الاستكبار والتمرد.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧].

فهذه الآية الكريمة تكشف عن النفسية اليهودية المتمردة المتكبرة على رسل الله ودعاة الحق، فقد أخبر تعالى أنه أرسل إليهم رسله تترا، مؤيدين بالآيات الباهرات،

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٧١٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٣/ ٢٤٤.

والمعجزات البينات، وأيدهم بروح القدس جبريل عليه السلام، كل ذلك من أجل هدايتهم إلى دين الله القويم وصراطه المستقيم، والأخذ بأيديهم من موارد الردى والحرمان إلى نور الهداية والإيمان؛ رحمة بهم، وإشفاقًا عليهم، فبدلًا من أن ينصاعوا لأمر الله، ويستجيبوا لداعي الله، حملتهم الأنفة والكبرياء إلى معاندة كل ما لا يوافق هوى نفوسهم، وقتل كل داعٍ إلى الفضيلة وترك الرذيلة، وهذه النفسية لا تقف عند حدٍ زمني، أو تنقطع عند حدٍ مكاني، وإنما لها صورة مستنسخة عبر العصور وتعاقب الأجيال، لا يكسر كبرياءهم إلا قوة الحق، وقد كسر ومرغت أنوفهم في التراب حتى سمع لأعتاهم قوة عويل.

ثالثًا: إنكار البعث:

بعث الأجساد بعد فنائها عقيدة لا يماري فيها إلا معاند مكابر جهول، فقد ثبت يقينًا بالأدلة النقلية والعقلية وفي الواقع ما يؤكد البعث والنشور، ويبرهن عليه بأبلغ برهان، وفي القرآن-خاصة المكي منه- بيان شافٍ لهذه الحقيقة، ومجادلة قوية لمنكريها، فهي إحدى كبريات العقيدة الثلاث التي كان ينكرها المشركون-التوحيد والرسالات والبعث-.

وقد كشف القرآن الكريم عن أن إنكار البعث سبب من الأسباب التي تؤدي إلى الاستكبار والتعاظم والتمرد على الحق، فقال جل جلاله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان:٢١].

والمراد بقوله ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ «يريد: لا يخافون البعث ولقاء الله، أي لا يؤمنون بذلك.»[(١)] فكان إنكارهم للبعث سببًا في إضفاء صفة الاستكبار عليهم، وإلصاق هذه التهمة بهم، وتميزهم بها عن غيرهم.

رابعًا: الحسد:

الحسد مرض من أمراض القلوب المؤدية إلى المهالك؛ ومنه ما هو محمود، وهو ما يسمى (غبطة)، وهو أن يكون لأخيك نعمة لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذا مباح لا إثم فيه.

والآخر مذموم: وهو أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى حسدًا. فالحسد حده: كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه، وهو محرم[(٢)].

والمقصود في هذا المبحث من هذين المعنيين هو الثاني؛ لأنه الذي يؤدي إلى

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ١٩.
(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي، ٢/ ٢٣٨.

الكبر؛ كما حدث مع إبليس اللعين حين أمر بالسجود لآدم عليه السلام فأبى واستكبر؛ وعلل امتناعه عن السجود بأنه خير من آدم، واستدل على ذلك بأصل الخلقة، فقاس أصل خلقته بأصل خلقة آدم عليه السلام، فقال: أنا خير منه، وما منعه إلا الكبر، وما كان سببه في الحقيقة إلا الحسد. ويصور القرآن ذلك المشهد فيقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف:١١-١٣].

قال قتادة: «حسد عدو الله إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة فقال: أنا ناري وهذا طيني، فكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم»[(١)].

وعن جنادة بن أبي أمية قال: أول خطيئة كانت الحسد، حسد إبليس آدم أن يسجد له حين أمر، فحمله الحسد على المعصية[(٢)].

فالحسد قد تسبب عنه الكبر الذي جعل إبليس يأبى السجود لآدم عليه السلام طاعة لأمر الله، وقبولًا للحق، لذا قال حجة الإسلام الغزالي: «ويدعو الحسد أيضًا إلى جحد الحق، يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل؛ لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدًا وبغيًا عليه، فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه، ولكنه الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه»[(٣)]، فالحذر الحذر منه.

خامسًا: القوة المادية:

القوة المادية من أهم الأسباب التي تدعو إلى التكبر والتمرد على الحق، والتعالي على العباد، واستحقارهم والاستخفاف بهم.

ولعل الناظر في كتاب الله تعالى يجد نماذج متعددة حول هذه القضية، فقد ذكر لنا القرآن من شأن موسى وفرعون ما يؤكد أن القوة المجردة عن إيمان صاحبها تسوقه إلى الكبرياء والتعاظم على الآخرين، واحتقارهم واستصغارهم، والنظر إليهم نظر شزر.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ١/ ٢٧٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٧٤.
(٣) إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ٤٣٦.

[المؤمنون:٤٥-٤٨].

فهذه النظرة الفرعونية إلى موسى وقومه على أنهم عبيد له ولملئه تنم عن كبر في نفوسهم، وتعاظم وتعالٍ، وسبب هذه النظرة هو ما هم عليه من القوة المفرطة، والسلطان والفاجر. وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الكبر لدى فرعون في موضع آخر؛ حيث قال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف:٥١-٥٣].

فهذه النظرة الدونية من فرعون لموسى عليه السلام سببها ما كان عليه فرعون من القوة والسلطان.

وقد سبق فرعون قوم هود عليه السلام فيما ذكر القرآن الكريم من أخبارهم، وقص علينا من أنبائهم، إذ إنهم استكبروا وجحدوا آيات الله، وكان سبب هذا التمرد والتكبر والطغيان هو ما كانوا عليه من القوة الشديدة، فاغتروا بهذه القوة وتكبروا على الحق، فأهلكهم الله.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٥-١٦].

ولا عجب أنك ترى في هذا الزمان من أوتي من القوة والعتاد على المستوى العسكري والتكنولوجي ما أبهر المنهزمين نفسيًا وأخلاقيًا وعسكريًا وتكنولوجيًا، حتى اعتقد أكثرهم أن تلك الدولة صاحبة تلك القوة لن تهزم، وأن أحدًا لن يستطيع أن يصمد أمامها، وقاس هؤلاء المنهزمون قوة العدو بقوة المجاهدين، وقضوا بأن لا تكافؤ بين القوتين، وأن الهزيمة محققة للمجاهدين.

ونسي هؤلاء المنهزمون، ونسي كذلك هؤلاء المغترون بقوتهم وعتادهم أن الله هو أشد منهم قوة، وأنه سبحانه مهلك الطغاة المتمردين، والعتاة المتكبرين. إنها سنة الله في الأولين والآخرين، فكما أهلك عادًا الأولى، وفرعون الذي طغى، فإنه مهلكٌ كل متمرد على الحق، متكبر على عباد الله، وحينئذٍ لن تكون له فئة ينصرونه من دون الله، ولن يكون منتصرًا.

مظاهر الاستكبار

بديهي أن يكون المتكبر في المجتمع ظاهرًا، وأن حاله معلومة بصفات تظهر عليه، وتبدو في أفعاله وسلوكه، ولظهور أمر المتكبرين في المجتمع «قال العلماء: كل ذنب يمكن التستر به وإخفاؤه إلا التكبر فإنه فسق يلزمه الإعلان.»[1].

والاستكبار له علامات تدل عليه، وأمارات تومئ إلى أن صاحبها من المتكبرين، نقف على تلك المظاهر ونتعرف عليها من خلال النقاط الآتية:

أولًا: ترك العمل بشرع الله:

هذه أول خصلة من خصال المتكبرين، فهم قوم يعاندون الحق، ويتمردون على شرع الله، ويتكبرون على رسل الله والدعاة، فيكون تركهم للعمل بشرع الله من باب أولى.

لذا نجد القرآن الكريم قد ذكر أن أول مظهر من مظاهر الاستكبار هو ترك العمل بشرع الله، والتمرد على طاعته والإذعان لأمره، وهو ما وقع من إبليس اللعين، حيث أبى الخضوع لأمر الله ورفض طاعته فيما أمره به من السجود لآدم عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة:٣٤].

فكان رفضه للسجود لآدم مظهرًا من مظاهر كبره. وشأن كل من أبى السجود لله تعالى شأن إبليس في رفضه السجود لآدم عليه السلام، لذا ذم الله ناسًا استكبروا عن السجود له حين أمرهم به، ومدح من خضع إلى عظمته وتذلل إليه، فذكرهم بصفة العبادة الدائمة والطاعة المطلقة التي لا يشوبها كبر ولا تمرد على أمره، مرغبًا في الطاعة، ومحذرًا من المخالفة.

فقال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ۝٣٨﴾ [فصلت:٣٧-٣٨].

وفي سياق آخر أمر الله تعالى بالإصغاء والإنصات لكلامه إذا تلي، ويذكره ذكرًا دائمًا سرًا وجهارًا، ليلًا ونهارًا، ونهى عن الغفلة عن ذكره، ثم مدح الذين عنده بصفة التواضع وعدم التكبر عن أمر الله وطاعته؛ تعريضًا بمن غفل عن ذكر الله، وأن ترك العمل بشرعه، ومخالفة أمره ومعصيته ليست من شأن العابدين الطائعين، وإنما هي من شأن المستكبرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا

---

[1] البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٤٦٩.

﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف:٢٠٦].

إن طاعة الله تعالى فيما أمر، والبعد عن كل ما نهى عنه وزجر سمة المؤمنين العابدين، وهي مظهر من مظاهر التواضع والخضوع والتذلل لعظمة الله، وعلى العكس تمامًا فإن الذي يرفض العمل بشرع الله، ويأبى الطاعة المطلقة للخالق الكبير المتعال، يعد فعله هذا مظهرًا من مظاهر التكبر والكبرياء على منهج الله.

ثانيًا: التكذيب:

من مظاهر الاستكبار: التكذيب بكل ما هو حق، والتصديق بالباطل، فإذا رأيت الرجل يكذب بالحق إذ جاءه، ويماري فيه بعدما تبين، فاعلم أنه من المستكبرين، وقد قص علينا القرآن من خبر الأولين، وكشف عن صفة السابقين؛ بأنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، وكذبوا رسل الله بعدما جاءوهم بالبينات، واتهموهم بأنواع الفرى والأباطيل، فاسمع إلى هذا الحوار الذي يظهر فيه تعنت فرعون وملئه، وتكبرهم على موسى وأخيه-عليهما السلام- وتعاليهم عليهما، برغم وضوح المعجزات بما لا يدع مجالًا للمماطلة، لكنهم قوم مستكبرون على الحق مجرمون، ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنون.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس:٧٥-٧٨].

فأي تعنت هذا؟! وأي استكبار ومعاندة؟! تكذيب فاتهام، يتلوهما قرار برفض الإيمان بما جاء به موسى عليه السلام بحجة التمسك بموروث الآباء والأجداد، وبمبرر زائف ممجوج: وتكون لكما الكبرياء في الأرض، وهذا لعمري تصرف الجهلاء، لا يقارعون الحجة بالحجة، وإنما يلجأون إلى الاتهامات والأراجيف وسيلة للدفاع عن غيهم وتكذيبهم، فأمرهم عجيب، وشأنهم غريب.

وإن من مظاهر تكذيبهم بالحق أنهم يكفرون بالله ويجعلون له الشريك، رغم وضوح الدلائل وظهور البراهين، فإنهم يبقون على ما هم عليه من الشرك، ويصرون على ما هم عليه من الكفر والجحود، استكبارًا من عند أنفسهم.

قال تعالى شأنه: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل:٢٢].

«لما ذكر تعالى ما اتصفت به آلهتهم بما ينافي الألوهية، أخبر تعالى أن إله العالم هو واحد لا يتعدد ولا يتجزأ، وأن الذين لا يؤمنون بالجزاء بعد وضوح بطلان أن تكون الإلهية لغيره بل له وحده، هم مستمرون على شركهم، منكرون وحدانيته، مستكبرون عن الإقرار بها؛ لاعتقادهم الإلهية لأصنامهم وتكبرها في الوجود. ووصفهم بأنهم لا يؤمنون بالآخرة مبالغة في نسبة الكفر إليهم، إذ عدم التصديق بالجزاء في الآخرة يتضمن التكذيب بالله تعالى وبالبعث، إذ من آمن بالبعث يستحيل أن يكذب الله عز وجل.»[1]

فظهر بذلك أن إشراكهم مع الله آلهة أخرى، وتكذيبهم به وباليوم الآخر مظهر من مظاهر كبرهم وجحودهم.

وقد توعد الله تعالى هؤلاء المكذبين المصرين على ما هم عليه من الكبر، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾ [الجاثية:٧-٨].

وهذا الكبر لا يقف على زمان دون زمان، ولا يختص به مكان دون مكان، وإنما هو متعاقب في الأجيال عبر الأزمان، فلا يكاد يخلو زمان من الأزمنة، أو مكان من الأمكنة من المكذبين المنكرين للحقائق تمردًا وتكبرًا، ألا ترى العالم اليوم؟! كيف يرى الظلم عدلًا ويرى العدل ظلمًا؟! وكيف يبرر للظالم ظلمه؟! بهذه العنجهية المتغطرسة يرون الحقيقة بادية فيتكبرون عليها، ويصرون على غيهم وعنادهم، حين يقتل المسلم أو يدافع عن نفسه وأرضه وعرضه يقولون: إرهابي، وإن شيك الظالم الباغي يستنكرون ويشجبون، بهذه النفسية المتمردة على الحق يبررون لظلمهم في إعلامهم الكاذب، ويسوقون لكذبهم ودجلهم باصطناع البرامج وفبركتها والتلبيس على العامة. فالكذابون والدجالون هم هم، الذين كانوا على عهد موسى عليه السلام، هم أنفسهم الذين كانوا على عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهم أنفسهم -على نفس المنهجية- في عصرنا الحالي، لا يتغيرون ولا يتبدلون، الكذب سمتهم، فويل لهم.

ثالثًا: احتقار الناس وظلمهم:

من أبرز المظاهر التي تبدو على المتكبرين احتقارهم للناس وازدراؤهم لهم، لأن التكبر تعالٍ على الناس، فيرى المتكبر نفسه في درجة أعلى، ومنزلة أسمى.

إن المتكبرين في حالهم هذه أشبه بحال من كان على قمة جبل والناس من تحته، فهو يراهم صغارًا، ويرونه صغيرًا.

لقد كشفت آيات القرآن الكريم عن هذه

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٤٦٩.

السمة عند المتكبرين، وذمت فيهم هذه الخصلة، حينما نظروا إلى المؤمنين الذين اتبعوا رسل الله نظر شزر وازدراء، فقال جل شأنه في حق الملأ من قوم نوح عليه السلام الذين ازدروا المؤمنين بقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود:٢٧].

فرد عليهم نبي الله نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود:٣١].

وهذا يوضح لنا أن هذه النظرة من الملأ للمؤمنين مظهرٌ من مظاهر التكبر والتعالي، فكان تكبرهم هذا سببًا في عدم متابعة نبيهم والإيمان برسالته.

وشأن الملأ في نظرتهم هذه إلى المؤمنين التابعين للرسل تكررت من فرعون لموسى عليه السلام، وإن اختلفت في شكلها، لكنها هي هي في مضمونها.

قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ [الزخرف:٥٢].

والمعنى: «﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة والبسطة ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيفٌ حقيرٌ، من المهانة: وهي القلة. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي الكلام.

قاله افتراءً على موسى عليه السلام؛ تنقيصًا له عليه السلام في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه عليه السلام من نوع رتةٍ، وقد كانت ذهبت عنه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ [طه:٣٦]»[١].

وقد تكرر الأمر مع خير الخلق وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، يحتقرونه ويزدرونه ويستهزئون به ويسخرون منه، فقالوا له كمقالة فرعون تلك لموسى عليه السلام، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف:٣١].

«وهذا باب آخر من إنكارهم للنبوة، وذلك أنهم أنكروا أولًا أن يكون النبي بشرًا، ثم لما بكتوا بتكرير الحجج، ولم يبق عندهم تصور رواج لذلك، جاؤا بالإنكار من وجه آخر، فتحكموا على الله سبحانه أن يكون الرسول أحد هذين، وقولهم ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ ذكر له على وجه الاستهانة؛ لأنهم لم يقولوا هذه المقالة تسليمًا بل إنكارًا، كأنه قيل: هذا الكذب الذي يدعيه لو كان حقًا لكان الحقيق به رجل من القريتين عظيم، وهذا منهم لجهلهم بأن رتبة الرسالة إنما تستدعي عظيم النفس بالتخلي عن الرذائل الدنية، والتحلي بالكمالات والفضائل القدسية دون التزخرف بالزخارف الدنيوية»[٢].

ولهذا قالوا عن النبي صلى الله عليه وسلم مستهزئين به، متنقصين مستصغرين

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/ ٥٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي، ٢٥/ ١٢٠.

له: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾ [الفرقان:٤١].

«وفي اسم الإشارة دلالة على استحقارهم له، وتهكمهم به»(١).

وأشبه بهم حال المنافقين، حيث كانوا على هذه الشاكلة من الاستهزاء والازدراء، حتى ظهر ذلك في سلوكهم، فقد أخبر القرآن عنهم بما يفضح سريرتهم، ويكشف سوأتهم، وذلك في سورة الفاضحة-التوبة. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۝٦٦﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

وكذلك فضحهم في سورة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال جل شأنه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۝١٦﴾ [محمد:١٦].

يقول سيد قطب رحمه الله عن سؤالهم هذا: «... قد يدل من جانب آخر على الغمز الخفي اللئيم، إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم: إن ما يقوله محمد لا يفهم، أو لا يعني شيئًا يفهم. فهاهم أولاء مع استماعهم له، لا يجدون له فحوى ولا يمسكون منه بشيء!

كذلك قد يعنون بهذا السؤال السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه -كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم مع كل كلمة يتلفظ بها الرسول الكريم- فهم يسألونهم أن يعيدوا ألفاظه التي سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية، وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين»(٢).

لم يتغير حال المتكبرين في استصغارهم واحتقارهم وازدرائهم للمؤمنين والدعاة، كأن هذا الأمر فيهم وراثة، ورثوه كابرًا عن كابر، بداية من قوم نوح عليه السلام، إلى قوم موسى عليه السلام، إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا زال الأمر باقٍ إلى يومنا هذا.

ولعل وسائل الإعلام المغرضة والمسيسة التابعة إلى بعض الحكومات المنحرفة، وما يجري فيها من لقاءات وبرامج خير شاهد على استمرار احتقار أهل الفضل والصلاح، والسخرية والاستهزاء من الجماعات العاملة في حقل الدعوة، ليظل هذا مظهرًا فيهم، يعرفون به، وتعلم أحوالهم من خلاله.

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٩٧.

(٢) في ظلال القرآن،٦/ ٣٢٩٤.

رابعًا: جحود نعم الله:

امتن الله تعالى على عباده بما آتاهم من نعم لا تعد ولا تحصى.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٤].

وجعل الله تعالى هذه النعم مسخرة لهذا الإنسان وطوعها له، يتصرف فيها بأنواع التصرف.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠].

وأمر الله تعالى هذا الإنسان بأن يصون هذه النعم ولا يجحدها؛ لأن جحدها مؤذنٌ بزوالها، كما أن شكرها يزيدها وينميها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم:٧].

إلا أن الإنسان ظلوم كفار، قليل الشكر، كثير الجحود لهذه النعم-إلا من رحم الله.

إن جحود الإنسان لنعم الله تعالى عليه، وعدم شكرها يعد مظهرًا من مظاهر كبره، وعلامة من علامات تمرده ونكران الجميل، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

فكان حريًا به أن يشكر هذه النعم التي أولاها الله إياه بغير حساب، فالله غني عن عباده وهم محتاجون إليه. بيد أن فئة من الناس تكبرت على هذه النعم وجحدتها، فكان عذاب الله شديدًا، فآخذهم على نكرانهم وكفرهم لهذه النعم.

وقد ضرب الله تعالى مثلًا لهذا النوع من الناس بقصة قارون من قوم موسى، الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، ونصحه الصالحون من قومه ألا تفرح فإن الله لا يحب الفرحين، وذكروه بالآخرة، وأنها خيرٌ وأبقى، وحذروه ونصحوه، لكنه كفر هذه النعمة وجحدها، وأبى أن يرجع فضلها إلى الله، وقال: إنما أوتيته على علم عندي.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَىٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٦-٧٨].

فلما كان كذلك أنزل الله عليه سخطه وعذابه، فخسف به وبداره الأرض ليكون عبرة لمن بعده، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص:٨١].

وأعظم نعمة وهبها الله لهذا الإنسان

في الوجود يجحدها المنكرون هي نعمة الإسلام؛ حيث أرسل الله رسله لهذا الإنسان يهدوه إلى الدين القويم والصراط المستقيم، ويرشدوه إلى رضا الله، وإلى ما يحفظ عليه كيانه ومكانته في هذا الوجود، لكن هذا الإنسان واجه دعوة الرسل بالكفران، وكال الاتهامات إلى رسل الله كيلًا، كما أخبر بذلك القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات:٥٢].

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [فصلت:١٥].

وقوم نوح عليه السلام لما دعاهم نبيهم ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، بدلًا من أن يؤمنوا، ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾﴾ [نوح:٧].

هذا الرفض للدين الذي دعا إليه رسل الله يعد مظهرًا من مظاهر الاستكبار على هذه النعمة العظيمة، وكثيرٌ هم من هذا حالهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [سبأ:٣١].

بهذا الكبرياء، على مر العصور وفي كل مكان على تعاقب الزمان.

خامسًا: إكراه المستضعفين على اتباع الباطل:

من مظاهر الاستكبار: إكراه الملأ وكبراء القوم من الظلمة والفسقة للمستضعفين على اتباعهم على باطلهم، وكفرهم كما كفروا ليكونوا سواءً على ملة واحدة، وهذه سمة بارزة في الأقوام الأولين منهم والآخرين، ومن قرأ قصص الأولين وسيرة خير المرسلين وقف على هذا الأمر، وأدرك يقينًا أن الملأ والسادة لا يهنأون ولا يهدأون وهم يجدون ضعفاء القوم على الحق سائرين؛ لأن هذا في نظرهم يهدد مصالحهم، إذ كيف يكون لهم سلطة ونفوذ إذا لم يوجد مستضعفون تحت إمرتهم، يأمرونهم وينهونهم وينفذون لهم ما يريدون؟! إذن مصلحتهم تقتضي أن يكون المستضعفون من القوم على ملتهم وتحت إمرتهم، هم يخططون، والمستضعفون ينفذون.

١. إكراه المستضعفين من قوم شعيب عليه السلام.

وقع الإكراه من الملأ لنبي الله شعيب عليه السلام والمؤمنين معه، حيث هددوه وحذروه بين أن يخرجوه من بلده ووطنه ومن بين أهله، أو أن يعود لدينهم ويدخل في ملتهم-ملة الكفر-؛ لكن الإيمان إذا تملك القلب وتمكن منه، فهيهات هيهات أن يكون للشرك والكفر منه نصيب، هذا ما وقع بين

نبي الله شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين وبين قومه المتكبرين المتمردين على الحق، فقد قص علينا القرآن من نبئهم فقال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩].

«هكذا سنة الطغاة الظلمة إذا غلبوا بالحجج والبراهين يفزعون إلى القوة،فلما أفحمهم شعيب خطيب الأنبياء عليهم السلام، وقطع الطريق عليهم شهروا السلاح في وجهه، وهو النفي والإخراج من البلاد أو العودة إلى دينهم الباطل.»[1] وهذا حال الظالمين في كل زمان.

٢. حوار بين المستكبرين والمستضعفين من قوم صالح عليه السلام.

إن قوم صالح عليه السلام نموذجٌ حيٌّ في هذا الباب، فلنذكر الآيات الكريمات التي تقص علينا من أخبارهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف:٧٥-٧٧].

إنها قمة العنجهية والكبرياء والإباء من السادة والقادة، وفي المقابل ثبات ويقين وصدق مع الله من قبل المستضعفين، فالملأ من قوم صالح عليه السلام -كما يبدو من سياق الآيات- خلوا بالمستضعفين من المؤمنين، وجلسوا إليهم في معزل عن نبي الله صالح عليه السلام، وهددوهم وخوفوهم من متابعته، ولكنه اليقين وثبات الإيمان حينما يتملك القلوب لا تزعزعه التهديدات ولا الوعيدات ولا أي قوة مهما بلغت.

يقول سيد قطب رحمه الله : «وواضح أنه سؤالٌ للتهديد والتخويف، ولاستنكار إيمانهم به، وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه.ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافًا! لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم، والثقة في نفوسهم، والاطمئنان في منطقهم. إنهم على يقين من أمرهم، فماذا يجدي التهديد والتخويف؟ وماذا تجدي السخرية والاستنكار من الملأ المستكبرين؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٢/ ٢٠٤.

﴿مُؤْمِنُونَ﴾[1].

فكأن هذا تحدٍ من المستضعفين للملأ المستكبرين، تحدٍ على الثبات على الحق وعدم الانحياد عنه رغم التهديد والوعيد، بل ورغم مباشرة القتل وتنفيذ الوعيد، تمامًا كما وقع من قوم موسى وفرعون، حيث آمن السحرة برب العالمين، وهددهم فرعون بأن يصلبهم في جذوع النخل، ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، لكنهم ثبتوا على الحق بعدما تبين لهم، وصبروا على أذى فرعون، وفضلوا الباقية على الفانية: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه:٧٢-٧٣].

وأيضًا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف:١٢٥-١٢٦].

ولا فرق بين هذه العنجهية والكبرياء الذي عليه المتمردون في الأقوام السابقة وما عليه المتمردون والمستكبرون في هذا العالم الظالم اليوم، حينما يجد المسلمون أنفسهم في موجة من التحديات عاتية، وممارسات في حقهم مجحفة، ليس ذلك إلا لأنهم ينشدون نشر العدل والفضيلة، وكف الظلم والرذيلة، ويطلبون الكرامة لهذا الإنسان في هذا الوجود، لا أن تكون الحياة لصنف الظلمة والمستكبرين، والسحق للباقين، فإن هذا لا يرضي أحدًا من المنصفين.

سادسًا: العتو والطغيان:

تلمس وأنت تقرأ سيرة المستكبرين في القرآن الكريم مدى التعالي والعتو والطغيان الذي هم عليه، وتجد فيهم البطش الشديد ضد الأنبياء والمرسلين، وأولياء الله الصالحين، فهذه الصورة تعد مظهرًا بارزًا من مظاهر الاستكبار، بها يعرفون، ومن خلالها يتميزون.

ولعل إكراه المستكبرين للمستضعفين على اتباع باطلهم، يعد نموذجًا حيًا ومثالًا واضحًا لما عليه المستكبرون من عتو وطغيان، إنهم لم يكتفوا بما هم عليه من الباطل، بل ذهبوا يضلون عباد الله المؤمنين، ويسعون لصدهم عن سبيل الله بمختلف الوسائل والسبل، حتى لو كان ذلك بالتهديد والتعذيب، أو قد يصل أحيانًا إلى درجة القتل، قد بلغوا في ذلك حد التفاني في الصد عن الحق.

فانظر إلى طغيان فرعون، فيما أخبر القرآن عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٣١٣-١٣١٤.

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص:٣٨-٣٩].

وقال عنه أيضًا: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤].

ولذلك قال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [النازعات:١٧].

فأي استكبار بعد هذا الاستكبار؟!

وأي طغيان بعد هذا الطغيان؟! أن ينازع الله تعالى في ألوهيته وربوبيته فذلك قمة العتو والطغيان والاستكبار.

ويناظره نمرود الذي ادعى ذلك لنفسه، فقال لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وانظر أيضًا رد الملأ من قوم صالح عليه السلام بعدما تبين لهم الحق: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف:٧٧].

تحدٍ صارخ، وعتو فاجر، وإصرار على العناد والكفر، فكان عاقبة أمرهم خسرًا.

وقد سبقهم في موقفهم هذا قوم نوح عليه السلام، فقد أمرهم ونهاهم، وبين لهم ما به يتقون، فاحتجوا لكفرهم به بأنه اتبعه الأرذلون، فلما أجابهم بأنه ليس إلا رسول مبين: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء:١١٦].

«عدلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح إلى التجبر والتوعد، فلما سمع نوح قولهم هذا، قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ [الشعراء:١١٧].

أي: أصروا على تكذيبي، ولم يسمعوا قولي، ولا أجابوا دعائي»[1].

فهذا هو حال المستكبرين في كل زمان، فلقد رأينا اليوم أقوامًا لا يختلف حالهم عن سلفهم الأولين، يحذون حذوهم في مواجهة الحق، ويسيرون على خطاهم في الكيد للإسلام والمسلمين، ومظهر العتو والطغيان فيهم بارز للعيان، لا يحتاج تصنيفهم في المستكبرين والمتمردين في هذا الكون في هذا الزمان كثير تفكير أو روية، فإنهم قوم ملكوا من أسباب القوة المادية أو التكنولوجية أو الاقتصادية أو الإعلامية... الخ، ما يجعلهم يتمردون ويظهرون بهذه الغطرسة والكبرياء في هذا العالم.

ولكن الحق في علو وظهور، والباطل في انحدار وانكسار، ولكنكم تستعجلون، وهي سنة الله في الأولين والآخرين، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولن تجد لسنة الله تحويلًا.

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ١٣٧.

سابعًا: الاستنكاف عن العبادة:

سبق أن بينا معنى الاستنكاف، وهو أوسع دلالة وأعلى رتبة من الاستكبار، لما فيه من الأنفة والتنقص والاستصغار. والاستنكاف عن عبادة الله تعالى مظهر من مظاهر الاستكبار وعلامة من علاماته؛ لذا توعد الله تعالى المستنكفين عن عبادته بالعذاب الأليم، فقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)﴾ [النساء:١٧٢-١٧٣].

«أي: يأنف تكبرًا، ويعد نفسه كبيرًا عن العبادة»[(١)].

وهذا المظهر للمستنكفين عن عبادة الله تعالى يبدو واضحًا في قوم هود عليه السلام، إذ أخبرنا القرآن الكريم من حالهم وصفاتهم حينما دعاهم نبي الله هود عليه السلام إلى التوحيد، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فكذبه قومه واتهموه بالسفاهة، وذكرهم بما حدث لقوم نوح عليه السلام حينما كذبوا رسولهم ماذا حدث لهم؟! لكن ردهم عليه كان ينم عن كبر وأنفة ورفض لعبادة الله وحده مع ترك عبادة ما كان عليه الآباء والأجداد، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف:٧٠].

ومثلهم قوم صالح عليه السلام، فعلوا مثل فعلتهم، وردوا على نبيهم بالرد إياه، ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢)﴾ [هود:٦٢].

إن من كان هذا شأنه، وظهرت فيه صفة الاستنكاف عن عبادة الله، يلتمس لاستنكافه هذا المعاذير والحجج التي لا اعتبار لها عند العقلاء- ليعد هذا مظهرًا من مظاهر الاستكبار والتمرد.

ثامنًا: التعاظم عن اتباع الحق:

من مظاهر الاستكبار: التعاظم عن اتباع الحق، والسير على طريق الهدى، واختيار السبيل الموصل إلى جنات الله رب العالمين، يتنكب هؤلاء المستكبرون تلك الطريق، يختارون الضلال على الهدى، والكبرياء على التقى، فبئس الاختيار.

وليس أدل على هذا المظهر مما ورد في شأن المنافقين-أخص بالذكر عبد الله بن أبي بن سلول- الذي كان يرأس حركة النفاق في المدينة المنورة بعد هجرة النبي

(١) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٦٨٢.

صلى الله عليه وسلم إليها، ومما ورد في القرآن الكريم من كشف لسوءتهم وهتك لسترهم، ما ورد في سورة المنافقون. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ [المنافقون:٥].

إنه قد علت أنفتهم، وشمخت أنوفهم -فيما يبدو لهم- إلى الحد الذي جعلهم يتعالون على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسعون للصد عن سبيل الله، تعاظمًا منهم عن اتباع الحق، وإمعانًا في الباطل والضلال، وهذه السمة موجودة عند كثير من الناس، تكبرًا كان ذلك صراحة منهم أو ضمنًا؛ لأن من ظهر له الحق ولم يتبعه، وأصر على ما هو عليه من الضلال والانحراف، يعد هذا تعالٍ على الحق، وترفعٌ عن التواضع لعظمة الله فيما تعبد به الناس، ومن رفض أمر الله وفعل خلافه يعد هذا تمردًا على الحق، وتكبرًا على أمر الله، لذا كانت هذه الصفة مظهرًا من مظاهر الاستكبار بغير الحق.

فهذه جملة من مظاهر الاستكبار، حيثما وجدت إحداها في المرء كانت صفة من صفات المستكبرين في الأرض بغير الحق، مؤذنة بنزول سخط الله عليه، وهو في هذه الحالة بين خيارين: إما أن يتركها ويتبع الهدى، ويتواضع لله وللناس، أو أن يتمادى في هذه الكبيرة، وحينئذٍ ليعلم أن فعله هذا يجعله مستحقًا لسخط الله وعقابه. وعلى العاقل أن يعرض نفسه على هذا الميزان ليرى أين يسير، وكيف المصير.

نماذج قرآنية من المستكبرين

قص علينا القرآن الكريم من أخبار السابقين أفرادًا وجماعات، وكشف عن أحوالهم وصفاتهم ومصارعهم، وذكر الأسباب التي أدت إلى هلاك من أهلك منهم، ونجاة من أنجى، فكان الاستكبار عن طاعة الله تعالى سببًا رئيسًا من أسباب الهالكين المعذبين، وهاهنا أقف على نماذج من أحوال هؤلاء، سواء على مستوى الأفراد، أو على مستوى الجماعات.

أولًا: أفراد مستكبرون:

هذه أمثلة يضربها لنا القرآن الكريم فيها موعظة بليغة للمعتبرين، وفيها من الزجر والوعيد للمخالفين:

١ . إبليس.

وهو أول المستكبرين المستنكفين عن أمر الله، قص الله تعالى علينا من أخباره، وكرر قصته في سورٍ عدةٍ، ليحذرنا منه، ويبين لنا مدى عداوته لهذا الإنسان، وأن هذه العداوة متجذرة فيه وفي ذريته لا محيد له عنها، وهي ترجع في تاريخها إلى لحظة خلق الله آدم عليه السلام، وأمر الملائكة بالسجود له تشريفًا وتكريمًا، وعبادة لله تعالى، لكن اللعين رفض أمر الله، وأبى أن يكون من الساجدين، فمقته الله تعالى، إذ كيف له أن يرفض أمر خالقه؟! لكنه الكبرياء والتعاظم، فسأله الله تعالى عن سبب امتناعه عن السجود لآدم الذي خلقه الله بيديه؟ فقال: أنا خير منه، وقاس أصل خلقة آدم بأصل خلقته، فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار في نظره أفضل من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟! فتكبر عن أمر الله، وطلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم يبعثون، فأنظره الله تعالى إلى يوم الوقت المعلوم، فأقسم بعزة الله ليفتنن آدم وذريته أجمعين، وليغوينهم ويضلنهم عن الطريق المستقيم، لكن الله تعالى قد كتب أنه لا سلطان لإبليس على عباد الله المؤمنين، وإنما سلطانه على الذين يتبعونه من الغاوين.

قال تعالى مخبرًا عن ذلك:. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ

﴿١٨﴾ [الأعراف:١١-١٨].

لذا حذر الله تعالى الإنسان من اتباع خطواته والاغترار به، فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر:٦].

وقال جل شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة:٢٠٨].

قال أبو الفرج ابن الجوزي: «الواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم عليه الصلاة والسلام، وقد بذل عمره ونفسه في فساد أحوال بني آدم، وقد أمر الله تعالى بالحذر منه»[١].

٢. النمرود.

كان نمرود على عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو أول من وضع التاج على رأسه، وتجبر في الأرض وادعى الربوبية، وقد آتاه الله الملك فطغى، أي كانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه[٢].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:٢٥٨].

ولا شك أن ما وقع من نمرود في المحاجة في جزئها الأول كان سفسطة ومكابرة على الحق.

قال الألوسي: «وأراد عليه السلام بـ ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ يخلق الحياة والموت في الأجساد، وأراد اللعين غير ذلك، فقد روي عنه أنه أتى برجلين، فقتل أحدهما وترك الآخر وقال ما قال، ولما كان هذا بمعزل عن المقصود وكان بطلانه من الجلاء والظهور بحيث لا يخفى على أحد، والتعرض لإبطال مثل ذلك من قبيل السعي في تحصيل الحاصل، أعرض الخليل عليه الصلاة والسلام عن إبطاله وأتى بدليل آخر أظهر من الشمس»[٣]. فما كان إلا أن بهت الذي كفر، وانقطع عن المحاجة.

٣. فرعون.

فرعون نموذج الطغيان، ضرب الله تعالى به المثل في العلو والاستكبار والافتراء والظلم والفساد، سفك الدماء، وعذب الناس، وعبد بني إسرائيل، ثم زاد في الطغيان والعتو والاستكبار حتى ادعى لنفسه الربوبية والألوهية، فأرسل الله تعالى له موسى عليه السلام، وجعل معه أخاه هارون وزيرًا وردءًا يصدقه، وآتاه من الآيات

(١) تلبيس إبليس، ص٣٣.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٣١٥.
(٣) روح المعاني، ٣/ ٢٧.

ما فيه بلاء مبين، لكنه كذب وعصى، وأدبر يسعى، وقال أنا ربكم الأعلى، بل وقال: ما علمت لكم من إله غيري، ثم قد استهان بموسى عليه السلام وازدراه واستخف به، فقال في كبرياء: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف:٥٢].

وجمع السحرة، وبدأت المبارزة، وألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل أمر الساحرين، وألقوا جميعهم ساجدين.

قالوا: آمنا برب العالمين، فقال لهم فرعون في كبرياء وتعاظم: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء:٤٩].

ثم توعدهم بالتعذيب الشديد: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

[الشعراء:٤٩].

فقد بدت من فرعون مواقف تنم عن كبريائه وتعاظمه:

منها: ادعاؤه الربوبية تارة، والألوهية تارة أخرى.

ومنها: ازدراؤه بموسى، ونظره إليه نظر شزر.

ومنها: تكذيبه بالحق لما جاءه، مع وضوح البينات والآيات.

ومنها: موقفه من السحرة لما آمنوا بموسى، حيث قال لهم: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء:٤٩].

ومنها: توعده للسحرة لما آمنوا، وتعذيبه لمن آمن.

ومنها: إلصاق التهم بموسى عليه السلام، وبث الإشاعات حوله؛ من اتهامه بالسحر والكذب وغيرها.

كل هذه المواقف تدل على كبريائه وطغيانه واستبداده، وأن ذلك وقع منه للحفاظ على ملكه ورياسته، وبقاء سلطته دون منازع.

٤ . قارون.

قارون رجل من بني إسرائيل آتاه الله من الأموال مالا يحصى عددًا، ونعمه بأنواع النعم؛ من كنوز وقصور وخزائن وخدم وغيرها من أنواع النعم، غير أنه بدلًا من أن يتواضع لله ويؤدي حق الله تعالى فيما آتاه من مال، استكبر وتعالى على الناس، وأنكر أن يكون ذلك من الله، وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨].

فاستكبار قارون كان بتكذيبه مبدًا، ثم بإسناده النعمة إلى نفسه وعدم إسناد فضلها إلى المنعم سبحانه وتعالى، ثم من ناحية ثالثة بعدم أداء حقها فيمن له الحق فيها من الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، فكان مصيره أن خسف الله به وبداره الأرض.

٥ . هامان.

هامان وزير فرعون، وشريكه في حكم البلاد والاستبداد، وهو يده الطولى في القتل والتعذيب والإفساد والتمرد، لذا كان في رتبته في الاستكبار والعتو، فقال تعالى شأنه: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت:٣٩].

فعده في جملة المستكبرين من الطغاة.

وفي موضع آخر قال تعالى شأنه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر:٢٤-٢٥].

فذكر أنه كان من المكذبين، وقد اتهم موسى بالسحر والكذب، ولما بين لهم موسى أنه رسولٌ من الله أيده بالمعجزات، وقد جاءهم بالحق منه، تمرد واستكبر وعلا وافترى، وراح يقتل أبناء الذين آمنوا، زيادة في العتو والاستكبار.

والآيات الكريمة قد ذكرته مقترنًا بفرعون الطاغية المستكبر في مواضع متعددة، ليدلل على أنه كان لا يقل عن أقرانه من فرعون وقارون في العتو والاستكبار.

ثانيًا: أمم مستكبرة:

لم يقتصر الأمر في الاستكبار على هؤلاء الأفراد وحدهم، بل تعدى ذلك إلى الجماعات والأمم، فقد قص علينا القرآن الكريم من أخبار السابقين ما يصفهم بهذه الصفة، من هؤلاء:

١ . قوم نوح عليه السلام.

أرسل الله تعالى نوحًا إلى قومه لينذرهم من قبل أن يأتيهم العذاب، فبلغ رسالة الله، ودعا قومه على كل حال؛ سرًا وجهارًا، ليلًا ونهارًا، لكنهم استكبروا استكبارًا، وعتوا عن أمر ربهم، وعصوا رسول الله نوحًا عليه السلام، ومكث عليه السلام في دعوتهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح:٥-٩].

فلم يترك عليه السلام وقتًا، ولم يدخر جهدًا في دعوة قومه إلى الله، لكنهم استكبروا مصرين على استكبارهم.

ولما أمر الله تعالى نوحًا بصنع الفلك؛ لأن موعد هلاك القوم قد اقترب، فبدأ بصنعها في مكان لا ماء فيه، وكان قومه

يسخرون منه ويستهزئون به.

قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود:٣٨].

وكان استهزاؤهم هذا بنوح عليه السلام يكشف عن تكبرهم عليه وعلى دعوته.

٢. قوم هود عليه السلام.

دعا هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده ونبذ كل ما دونه من معبودات، وجاءهم بالبينة المصدقة له في دعواه، فاتهموه بالكذب والسفاهة، وقارعهم بالحجة، وذكرهم بحال من سبقهم ومصيرهم، لكنهم تمادوا في العتو والطغيان، فكذبوه وأنكروا عليه دعواه، وقالوا له: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾ [هود:٥٣].

وقالوا كذلك: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧٠﴾ [الأعراف:٧٠].

وقال تعالى مبينًا جحودهم: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾ [هود:٥٩].

لذا وصفهم الله تعالى بالاستكبار، وهم مستحقون لهذه الصفة، فقال جل شأنه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [فصلت:١٥].

٣. قوم صالح عليه السلام.

تذكر الآيات الكريمة تمرد الملأ من قوم صالح عليه السلام، بعدما قدم لهم البينات، ودعاهم إلى عبادة الله وحده، وأصبح أمر رسالته واضحًا بلا مراء، غير أنهم أنكروا رسالته، وعتوا على أمر الله، وراحوا يصدون من آمن من قومه من المستضعفين عن دين الله، فقصت علينا الآيات هذا الكبرياء الذي كانوا عليه.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۝٧٥ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ۝٧٦ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧٧﴾ [الأعراف:٧٥-٧٧].

فكان صنيعهم هذا كبرياء وتعاظمًا على الحق، لذا سماهم الله بهذا الاسم الذي يلصق بهم صفة الاستكبار.

٤. قوم لوط عليه السلام.

وقد كان قوم لوط عليه السلام على معصية مخالفة لما عليه الأقوام السابقون بجانب بعض الكبائر، فبعث الله تعالى لهم نبيه لوطًا عليه السلام، فجاءهم مذكرًا لهم

بالله، وناصحًا ومرشدًا إلى ما فيه صلاح الحال في الدنيا والآخرة، وقال لهم بأنهم على فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت:٢٨-٢٩].

لكن قومه كانوا مفترين، فاستكبروا على أمر الله، وأصروا على المعصية.

وقد بدت علامات الكبرياء والتعاظم في ردهم على لوط عليه السلام لما دعاهم لترك الفاحشة.

قال الله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت:٢٩].

وقال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل:٥٦].

روى الطبري رحمه الله عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قال: من أدبار الرجل وأدبار النساء؛ استهزاءً بهم[(١)].

أي: استهزاءً بلوط عليه السلام والمؤمنين معه في تطهرهم عن هذه الرذيلة، وهذا يدل على تماديهم في الطغيان والاستكبار، حتى سخروا من الحق، وقلبوا الباطل حقًا والحق باطلًا.

وثم موقف آخر من مواقف عتوهم وتكبرهم: حينما جاء الضيف لسيدنا لوط عليه السلام وعلموا بقدومهم، فجاءوه مسرعين يريدون فعل الفاحشة مع ضيفه.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:٧٨].

وفي موضع آخر قال: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الحجر:٦٧-٧١].

يقول الإمام الطبري رحمه الله: «وجاء أهل مدينة سدوم، وهم قوم لوط، لما سمعوا أن ضيفًا قد ضاف لوطًا مستبشرين بنزولهم مدينتهم، طمعًا منهم في ركوب الفاحشة»[(٢)].

إنها قمة الطغيان والاستكبار، أن يصل بهم الحال إلى هذا الحد؛ بأن يرتكبوا الفاحشة بضيف لوط عليه السلام ! إنهم قد

---

(١) جامع البيان، ١٩/ ٤٨١.
(٢) المصدر السابق، ١٧/ ١١٧.

جعلوا نبيهم في موقف عصيب، حتى قال لهم ما قال.

٥. قوم شعيب عليه السلام.

أرسل الله تعالى شعيبًا إلى مدين وأمرهم بعبادة الله وحده، وحثهم على ترك كل ما من شأنه الفساد والإفساد، وبين لهم أمرًا شنيعًا ظهر فيهم، وهو التطفيف في الموازين.

قال تعالى مخبرًا عنه قوله لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود:٨٥-٨٦].

لكنهم قابلوا الإحسان بالإساءة، والنصيحة بالرفض، والتصديق بالتكذيب، وتمادوا في طغيانهم وكبريائهم، حتى قالوا -كما ذكر القرآن- في ردهم على شعيب عليه السلام: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف:٨٨].

فبردهم هذا الذي يحمل التهديد والوعيد لشعيب عليه السلام والذين آمنوا معه استحقوا وصفهم بالاستكبار.

ومن مواقفهم كذلك صدهم المؤمنين عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف:٩٠].

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾(١).

ومن مواقفهم المجحفة في حق نبيهم التي تدل على تمردهم وتكبرهم على الهدى والطاعة لله ولرسوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود:٩١].

وانظر إلى موقفهم هذا الذي يصوره لنا القرآن الكريم: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٧].

فكل هذه صور ومواقف للتكذيب والاستكبار عن اتباع الحق، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، وقد ذكرها لنا القرآن الكريم لأخذ العبرة منها، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٤٨.

أساليب القرآن في عرض الاستكبار

جاء الحديث في القرآن الكريم عن الاستكبار على أساليب مختلفة ومتنوعة، منها:

أولًا: الاستفهام الإنكاري.

رهب القرآن الكريم من الاستكبار ونفر منه بأسلوب الاستفهام الإنكاري التوبيخي، وهذان نموذجان ممن استكبروا بغير الحق، وأنكر عليهم القرآن استكبارهم ووبخهم عليه:

١ . إبليس.

خلق الله تعالى آدم بيديه، وشرفه بسجود الملائكة له، لكن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين، فقال له الله تعالى منكرًا عليه فعله وموبخًا له: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥﴾ [ص:٧٥].

أي: «استكبرت الآن أم كنت من قبل من العالين المتكبرين، والاستفهام للتوبيخ والتقريع لإبليس»[(١)]. والمعنى: «تعظمت عن السجود لآدم، فتركت السجود له استكبارًا عليه، ولم تكن من المتكبرين العالين قبل ذلك ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ يقول: أم كنت كذلك من قبل ذا علو وتكبر على ربك»[(٢)].

(١) أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٤٦٢.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٢٣٩.

فكما هو واضح في الآية الكريمة أن الله تعالى قد ذم الاستكبار بأسلوب الاستفهام، وهو أبلغ في الحجة، وأوقع في النفس مما لو كان بصيغة الخبر، ولذلك لم يكن من مناص لإبليس للفرار من الإجابة عن السؤال، والإقرار بما في نفسه من حسد لآدم عليه السلام.

٢ . بنو إسرائيل.

ذم القرآن الكريم بني إسرائيل على ما وقع منهم من كبر، فذمهم الله تعالى أشد ذم بأبلغ أسلوب، فقال تعالى شأنه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝٨٧﴾ [البقرة:٨٧].

«ويخهم الله سبحانه بهذا الكلام المعنون بهمزة التوبيخ فقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ منكم ﴿بِمَا لَا﴾ يوافق ما تهوونه استكبرتم عن إجابته، احتقارًا للرسل، واستبعادًا للرسالة»[(٣)].

«والخطاب في ﴿جَاءَكُمْ﴾ يجوز أن يكون عامًا لجميع بني إسرائيل، إذ كانوا على طبع واحد من سوء الأخلاق، وتكذيب الرسل، وكثرة سؤالهم لأنبيائهم، والشك والارتياب فيما أتوهم به، أو يكون عائدًا إلى أسلافهم الذين فعلوا ذلك، وسياق الآيات يدل عليه أو إلى من بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبنائهم، لأنهم راضون بفعلهم،

(٣) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ١٤٢.

والراضي كالفاعل. وقد كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به، وسقوه السم ليقتلوه، وسحروه»[1].

فالآية الكريمة تنكر على بني إسرائيل تكبرهم على الحق واتباعهم الهوى، وذلك بأسلوب قوي رصين، جاء على سبيل الاستفهام، فإن هذا الأمر ما كان ينبغي أن يكون منهم، إنما الذي كان ينبغي هو التصديق برسل الله واتباعهم.

ثانيًا: تقبيح عاقبة المستكبرين.

نفرت الآيات الكريمة من الاستكبار بأسلوب آخر، ذلكم هو تقبيح عاقبة المستكبرين، وأن مثواهم بئيس مذموم، وقد قررت الآيات هذه القضية في آيات عدة، كقوله تعالى: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل:٢٩].

وقال أيضًا: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٧٢، غافر:٧٦].

وقال كذلك: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٦٨].

فأخبر تعالى في فواصل هذه الآيات أن عاقبة هؤلاء المتكبرين مذمومة.

هذا، وقد توعد الله تعالى المستكبرين بسوء المصير، حيث أخبر تعالى شأنه أن عاقبة أمرهم خسرًا، وأن لهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة:

فأما في الدنيا: فقد أخبرنا سبحانه وتعالى عن حالهم حين احتضار أحدهم كيف يكون من الهول والفظاعة؟!

فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وأما في الآخرة: فقد أخبر جل جلاله من أحوالهم ما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، فقال تعالى شأنه: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف:٣٦].

وفي موضع آخر قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف:٤٠-٤١].

وبين سبحانه وتعالى أن سبب هذا العذاب هو ما هم عليه من الكبر.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ١/ ٤٦٨.

﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾ [الأحقاف:٢٠].

وبين الله تعالى أن الذين يستكبرون عن عبادته سبحانه ودعائه سيدخلون جهنم مذلولين صاغرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر:٦٠].

كما توعد الله تعالى من أتته آياته ثم أعرض عنها مستكبرًا غير مكترث بها، حاله حال الأصم الذي لا يسمع، مع أنه سمع تلك الآيات، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان:٧].

والوعيد بالعذاب هنا جاء على سبيل التهكم بهم، زيادة في التنكيل بهم، وإيقاع العذاب بهم جسديًا ونفسيًا.

فهذه آيات عديدة تتوعد المستكبرين، وتبين سوء عاقبتهم، فكيف لعاقل أن يتكبر بعد هذا الوعيد الشديد، والتفصيل المبين؟!

ثالثًا: إبطال دعاوى المستكبرين.

هذا أسلوب آخر من أساليب القرآن الكريم المتنوعة في ذم الاستكبار والتنفير منه، فقد جاءت آيات منه تجادل وتحاور وتناقش المتكبرين، وتقرر لهم أن ما هم عليه من التكبر مزعوم لا حقيقة له، فهم أذلاء أمام عظمة الله، حقيرون إذا ما نظروا إلى أصل خلقتهم، ضعفاء مهما أوتوا من قوة، ولذلك نجد القرآن يذكر هؤلاء بأصلهم ومصيرهم تارة، ويبين لهم أنهم ضعفاء مفتقرون إلى خالقهم تارة أخرى، فانظر إلى مجادلة القرآن للمشركين الذين أنكروا بعث الأجساد بعد فنائها، كيف ذكرهم الله تعالى بأصل خلقتهم، ليدلل لهم أن الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم مرة أخرى، ورد على كبريائهم وتعاظمهم بأنهم خلقوا من ماء مهين.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس:٧٧-٧٩].

فيا من تتكبرون على الله وتعتدون على كماله فتصفونه بالضعف، حين قلتم بعدم بعث الأجساد بعدما صارت ترابًا، انظروا من أين خلقتم ومن أي شيء كان خلقكم؟!

وقال في موضع آخر للذي أعرض عن الذكر بعد إذ جاءه، فلا صدق ولا صلى، بل ذهب إلى أهله يتمطى، متبخترًا افتخارًا، مختالًا في مشيته متكبرًا، فقد ذمه الله تعالى، وأبطل تكبره برده إلى أصل خلقته، فقال: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ۝٣٣﴾ [القيامة:٣٣].

وهذه عاد قوم هود عليه السلام قد اغتروا بقوتهم، واستكبروا في الأرض بغيًا وعدوًا، وقالوا: من أشد منا قوة؟! فرد الله عليهم ادعاءهم وأبطله، وبين لهم أنه سبحانه هو القوي وما دونه ضعيف، واستدل على ضعفهم بأنهم مربوبون لله مخلوقون له، وكيف لهم كمخلوقات لله أن يتكبروا عليه؟!

قال تعالى يحدثنا عن ذلك: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

واستكبارهم في الأرض بغير الحق معناه: أنهم «بغوا وعتوا وعصوا فيها، ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؟فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد... فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله»[1].

إذن من خلال هذه النماذج المضروبة يتبين لنا أن القرآن الكريم ذم الكبر ونفر منه بأسلوب الحوار والجدل، وهو أسلوب البليغ في تقرير مهمات الأمور، وإلجاء الخصم إلى الاعتراف والإذعان والتسليم، والرجوع إلى الحق.

رابعًا: الثناء على المتواضعين.

من الأساليب التي سلكها القرآن الكريم في ذم الكبر والمتكبرين: الثناء على نقيضه؛ فقد أثنى الله تعالى على المتواضعين لجلاله وعظمته، وفي المقابل بين أنه سبحانه لا يحب المتكبرين، فقد أثنى سبحانه وتعالى على ملائكته المقربين، فوصفهم بصفة التواضع وعدم التكبر عن عبادته، فقال جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف:٢٠٦].

فمدح الله سبحانه وتعالى الملائكة بهذا المدح، وكأن السياق تعريض بمن استكبر عن عبادة الله تعالى، فهو كالتعليل للسابق «على معنى: ائتوا بالعبادة على وجه الإخلاص كما أمرتم، فإن لم تأتوا بها كذلك فإنا مغنون عنكم وعن عبادتكم، إن لنا عبادًا مكرمين من شأنهم كذا وكذا»[2]، والاستكبار عن العبادة منافٍ للإخلاص، لذا لا تقبل عبادة المستكبرين، وقد وصفهم الله تعالى بالسجود له سبحانه؛ لما فيه من التذلل والتواضع، والبعد عن الكبرياء والتعاظم.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١٦٩ .

(٢) روح المعاني، الألوسي، ٩/ ٢٢٤-٢٢٥.

وقد أثنى الله تعالى على القسيسين والرهبان الذين تواضعوا لعظمة الله فلم يستكبروا، فقال تعالى شأنه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢].

أي: «﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، أو يتواضعون ولا يتكبرون كاليهود. وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل، والإعراض عن الشهوات؛ محمود وإن كانت من كافر»[1].

وفي المقابل فإن الله تعالى قد ذم المستكبرين، وقرر أنه لا يحب من كانت هذه صفته، فقال تعالى شأنه: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣].

وعدم محبته سبحانه للشيء يعني أنه يبغضه ويكرهه، والكبر من الأمور التي يبغضها الله تعالى، ومن كان متكبرًا باء بسخط الله ووقع في بغضه، خلافًا لمن تواضع لعظمته سبحانه، فإنه يرجع بمحبة الله له ورضاه عنه.

فهذا الأسلوب في مدح المتواضعين، والثناء عليهم بنفي صفة الكبر عنهم، وبغض المستكبرين وعدم محبتهم -أسلوب من أساليب القرآن الكريم في التنفير من الكبر، والحث على التزام خلق التواضع.

وتتمة لهذا الموضوع فإنه ينبغي الإشارة إلى أن هناك مواضع في القرآن الكريم جاءت بأساليب تؤدي في فحواها معنى الكبر، وتدعو إلى التواضع، وهذه بعضها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء:٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان:١٨].

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ [القيامة:٣١-٣٣].

ومعنى ذلك: «يتبختر ويختال في مشيته؛ افتخارًا بذلك»[2].

ذكر تعالى مقالة قوم نوح عليه السلام له حينما وعظهم وأمرهم بعبادة الله وحده واتباعه، فقالوا: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود:٢٧].

ولذلك رد عليهم بقوله عليه السلام: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود:٣١].

قول المشركين في ازدراء النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان:٤١].

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٢٧٩.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٤٢٥.

فهذه جملة من الأساليب تؤدي في فحواها أو تشترك مع معنى الاستكبار، والتعبير عن الشيء الواحد بألفاظ ومصطلحات مختلفة وأساليب متعددة يشعر بأهميته وخطورته، وأنه جدير بأن يذكر فلا ينسى، ولا شك أن الكبر من الكبائر في دين الله؛ إذ هي مما يبغضه الله ولا يرضاه، ويتوعد فاعله بالعذاب الشديد.

وهكذا تتنوع أساليب القرآن الكريم في ذم الكبر والتنفير منه، واختلاف الأساليب في تقرير القضية الواحدة فيه بلا شك دلالة واضحة على بلاغة القرآن الكريم وفصاحته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

التخاصم بين المستضعفين والمستكبرين

إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار تبدأ المخاصمات بين الكافرين في جهنم، وتبدأ المعاتبة بين الضالين والمضلين، والسادة والرعية، والمستكبرين والمستضعفين، ويرجع بعضهم إلى بعضٍ القول، كلٌّ يتهم الآخر في أنه كان سبب إضلاله وما هو فيه من العذاب.

وهناك ثلاثة مواقف عرضها القرآن الكريم من مواقف تخاصم أهل النار بين المستضعفين والمستكبرين:

الموقف الأول:

قال الله تعالى:. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٣٣﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

في هذه الآيات «يخبر تعالى عن تمادي

الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد؛ ولهذا قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

قال الله تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا، ومخبرًا عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا﴾ منهم وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ وهم قادتهم وسادتهم: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لولا أنتم تصدونا، لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاءونا به. فقال لهم القادة والسادة، وهم الذين استكبروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء، لشهوتكم واختياركم لذلك؛ ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلًا ونهارًا، وتغرونا وتمنونا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذبٌ ومين»[1].

ولا شك أن هذا العتاب لن يجدي ولن ينفع أو يغني عن صاحبه من الله شيئًا، وقد يسر الله لهم سبيل الإيمان والعمل، ولكنهم كفروا وكذبوا، ثم جاءوا ليتخاصموا في جهنم ويلقي بعضهم اللوم على الآخر في أنه كان سببًا في إضلاله، فيندمون جميعًا حيث لا ينفع الندم.

الموقف الثاني:

قال الله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝٢١﴾ [إبراهيم: ٢١].

«في هذه الآية عرض سريع للموقف وما بعده من استقرار أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة، يقرر مبدأ الوحي والتوحيد والبعث الآخر بأدلة لا ترد.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: خرجت البشرية من قبورها، مؤمنوها وكافروها، صالحوها وفاسدوها، ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا﴾ أي: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا﴾ أي: الرؤساء والموجهون للناس بما لديهم من قوة وسلطان ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: أتباعًا في عقائدكم وما تدينون به، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾؟ أي: فهل يمكنكم أن ترفعوا عنا بعض العذاب بحكم تبعيتنا لكم؟ فأجابوهم بما أخبر تعالى به عنهم: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥١٩.

﴿هَدَيْنَاكُمْ﴾اعترفوا الآن أن الهداية بيد الله وأقروا بذلك، ولكنا ضللنا فأضللناكم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا﴾اليوم ﴿أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من مخرج من هذا العذاب ولا مهرب»[(١)].

ففي هذا الموقف نرى صورة الضعفاء مع القادة الذين استكبروا وكانوا لهم تبعًا في الدنيا، فتصور لنا الآية موقف الضعفاء وهم يستجدون الرؤساء والقادة في أن يحملوا عنهم من عذاب الله أي شيء مهما قل، ولكن هيهات هيهات، لكل امرئ منهم يومئذٍ شأن يغنيه، وعنده من العذاب ما يكفيه، كل واحد منهم يريد أن يدفع العذاب عن نفسه، فكيف يأخذ من عذاب غيره؟! ولذلك فإن الضعفاء يطلبون المستحيل، فيرد عليهم القادة والمستكبرون بأن الله تعالى لو وفقنا إلى الإيمان به وبرسالاته لدللناكم إليه، ولكن قدر الله سبق علينا أننا كافرون، فلا مفر لنا من عذاب الله سواء أجزعنا أم صبرنا.

الموقف الثالث:

موقف المحاجة بين الضعفاء والمستكبرين من قوم فرعون.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر:٤٧-٤٨].

«الظاهر أن الضمير عائد على فرعون، وقال ابن عطية: والضمير في قوله: ﴿يَتَحَاجُّونَ﴾لجميع كفار الأمم»[(٢)].

هذا الموقف يشبه سابقه، حيث وقعت المحاجة بين المستكبرين والمستضعفين من الكفرة، وقد وقعت بينهم بينما هم في نار جهنم يعذبون. الضعفاء كعادتهم هم الذين يبدأون الحوار والمجادلة؛ لأنهم يعتقدون أن القادة المستكبرين غلبوهم في الآخرة كما غلبوهم في الدنيا، فقد غلبهم الملأ المستكبرون في الدنيا بما أغروهم به من وعودات كاذبة؛ كقولهم لهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت:١٢].

فأطاعوهم واتبعوهم على الباطل، وغلبهم المستكبرون في الآخرة بأن كانوا سببًا في دخولهم النار، ولذلك يبدأون المحاجة متوسلين لهم بما وقع في الدنيا ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تأمروننا فنطيعكم، وتكلفوننا فننفذ ما تريدون، ولا نعصي لكم أمرًا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ كما كنتم تعدوننا في الدنيا بحمل أوزارنا وخطايانا؟! فاحملوا عنا ولو جزءًا يسيرًا من العذاب،فرد عليهم المستكبرون

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٣/ ٥٢،٥٣.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٧/ ٤٤٨.

﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۝٤٨﴾ فلن يفيد تحملنا نصيبًا من عذابكم شيئًا؛ لأننا كلٌّ في النار معذبون، وقد قضى الله تعالى وفصل بين العباد؛ أهل الجنة في الجنة ينعمون، وأهل النار في النار يعذبون.

إذن، هذه ثلاثة نماذج ضربها لنا القرآن لنأخذ منها العبرة والعظة، وهي متضمنة لحوار ومخاصمة وقعت بين المستضعفين والمستكبرين في نار جهنم، وكيف يلقي بعضهم اللوم على بعض، ويتوسل الضعفاء إلى الأكابر والرؤساء بأن يحملوا شيئًا من خطاياهم ولو قل، لكن دون جدوى، فنسأل الله تعالى السلامة.

عاقبة المستكبرين

قضى الله تعالى أن العاقبة للمتقين، والهلاك والخسران على الكافرين والمتكبرين والمجبرين، وأثبت الواقع هذه الحقيقة، ودلت الشواهد التاريخية على هذه السنة الإلهيةالجارية في هذا الكون، والقرآن حوى العديد من هذه الشواهد، وقد سبق الكلام عن استكبار بعض الأمم والأفراد في المبحث الخامس من هذا البحث، وتبينت لنا مواقف المستكبرين من الدعوات، وهاهنا نبين مشهد النهاية لهم في الدنيا والآخرة، وهذه بعض المشاهد أذكرها على سبيل المثال:

أولًا: هلاك المستكبرين من قوم نوح عليه السلام:

أخبرنا الله تعالى عن نوح عليه السلام وقومه؛ حيث أرسله لينذر قومه من قبل أن يأتهم عذاب الله، فأمرهم أن يعبدوا الله ويتقوه، ويطيعوه عليه السلام فيما يبين لهم من شرائع الأحكام وسنن الهدى، ولم يدع عليه السلام وقتًا من الأوقات إلا ودعاهم فيه إلى الله؛ ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، لكن قومه أبوا وأصروا على كفرهم وعنادهم واستكبروا استكبارًا، كما أخبرنا عن ذلك القرآن الكريم، فقال تعالى شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ

﴿يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح:٥-٩].

فهل بعد هذا الكبرياء كبرياء؟! وهل هناك تمرد وعتو عن الطاعة بعد هذا التمرد والعتو؟! لقد مكث نوح عليه السلام يدعو قومه مئات السنين، فما آمن معه إلا قليل، ولذلك عاجلتهم عقوبة الله، ونزل بهم عذابه ونقمته.

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ۝٦٤﴾ [الأعراف:٦٤].

هذا عذاب الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى.

قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ۝٢٥﴾ [نوح:٢٥].

قال الإمام السمرقندي: «﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ يعني: بشركهم بالله تعالى أغرقوا في الدنيا ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ في الآخرة»[(١)].

فنالوا بكفرهم واستكبارهم عن الحق عذابي الدنيا والآخرة؛ فعذبهم الله تعالى بالغرق في الدنيا، وسيعذبون يوم القيامة في جهنم، هذا مصيرهم لكفرهم واستكبارهم.

ثانيًا: هلاك المستكبرين من قوم صالح عليه السلام:

أرسل الله تعالى إلى ثمود نبيه صالح عليه السلام، مبلغًا ومرشدًا ونذيرًا، فأما الملأ المستكبرون من قومه فقد كان موقفهم من الدعوة موقف عداء ومعاندة، فعتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٧٦ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧٧ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾ [الأعراف:٧٦-٧٩].

فأخبر الله تعالى أنه أنزل عليهم عذابه بسبب استكبارهم وعنادهم وعتوهم، فأخذهم بالصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، «وأخذ الرجفة: إهلاكها إياهم وإحاطتها بهم إحاطة الأخذ. ولا شك أن الله نجى صالحًا عليه السلام والذين آمنوا معه... والجاثم: المكب على صدره في الأرض مع قبض ساقيه كما يجثو الأرنب... والمعنى أنهم أصبحوا جثثا هامدة ميتة على أبشع منظر لميت»[(٢)].

(١) تفسير السمرقندي، ٣/ ٤٠٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ٢٢٧.

ثالثًا: هلاك المستكبرين من قوم هود عليه السلام:

بعث الله تعالى هودًا إلى قومه ليبلغهم رسالته ويعلمهم أمور دينهم، وجاءهم بآية بينة، فآمن معه فريق من قومه وكفر آخرون، فأما الكافرون فقد استكبروا في الأرض بغير الحق، وعتوا عن أمر ربهم وعصوا رسوله، وغرتهم قوتهم فلم تغن عنهم من الله شيئًا، فكان استكبارهم ورفضهم دعوة الله سببًا في نزول عذاب الله عز وجل عليهم في الدنيا، وخلودهم في نار جهنم في الآخرة. وقد أخبرنا الله تعالى عن حالهم عند رفضهم دين الله وتكذيب رسله.

فقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٥-١٦].

فأخبر تعالى أنه أنزل بهم عذابه في الدنيا بسبب استكبارهم في الأرض بغير الحق، فأرسل عليهم ريحًا صرصرًا تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر، إذلالًا لهم وإلحاق الخزي بهم في الدنيا، فلم تنفعهم قوتهم التي قد اغتروا بها، ولعذاب الآخرة أشد إيلامًا وأخزى.

رابعًا: هلاك المستكبرين من قوم شعيب عليه السلام:

قوم شعيب عليه السلام هم أهل مدين الذي أرسل إليهم مبلغًا ومرشدًا، لكن المستكبرين من قومه رفضوا دعوة الله، واستكبروا عن عبادته والخضوع لأمره، وهموا بإخراج رسولهم والذين آمنوا معه بغيًا وعدوًا، واستهزأوا به وسخروا منه، ثم بالغوا في العناد والاستكبار فطلبوا منه أن يسقط عليهم كسفًا من السماء إن كان صادقًا في ادعائه الرسالة، فقالوا كما أخبر عنهم القرآن: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف:٨٨].

وقال في موضع آخر: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧].

قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، وقال أيضًا عنهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء:١٨٧].

وهذا يدل على شدة كفرهم وعنادهم وعتوهم، لذا استحقوا عذاب الله تعالى، فأنزل عليهم سخطه وعذابه، فأصبحوا جثثًا هامدة بلا حراك، ونجى الله نبيه والذين آمنوا معه.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود:٩٤].

وقال أيضًا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء:١٨٩].

قال ابن كثير: «﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من جنس ما سألوا، من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله، سبحانه وتعالى، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جدًا مدة سبعة أيام لا يكنهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررًا من نار، ولهبًا ووهجًا عظيمًا، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾»[1].

فهذا مصير كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، فيهلكهم في الدنيا، ويعذبهم في الآخرة، وأما المؤمنون وأتباع الرسل عليهم السلام فينجيهم الله من عذاب الدنيا والآخرة، وهذه سنة الله في الكون، لا محيد عنها ولا محيص، تقررت في قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء:١٧٣].

وتقررت هذه السنة الإلهية في قوله تعالى كذلك: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الجاثية:٢٩-٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف:٤٠-٤٢].

فالعاقبة للمتقين، إنها سنة الله الحتمية، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولن تجد لسنة الله تحويلًا.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٦٠-١٦١.

علاج القرآن للكبر

أيقنا بأن الكبر مرض عضال من أمراض القلوب، تظهر أعراضه على المتكبر في الدنيا والآخرة، لذا لا بد له من علاج كي يستقيم حاله وينصلح أمره، ولن تجد له وصفة علاج أمثل ولا أفضل من علاج القرآن والسنة؛ لأن الله أعلم بخلقه من أنفسهم، ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠].

وهذه بعض علاجات القرآن لمرض الكبر:

أولًا: معرفة الله:

إن الله له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، وله الشرف الأتم الأسنى، تقدست أسماؤه، وعظمت صفاته، هو واحد أحد، فرد صمد، لا يشبهه شيء، ولم يكن له كفوًا أحد.

وإن من أسمائه جل في علاه (الخالق)، خلق الخلق عظيمه وحقيره، كبيره وصغيره، دقيقه وجليله، بنظام محكم متقن بديع، لا يسع الإنسان معه إلا أن يقف أمام هذه العظمة قائلًا: جلت عظمة الخالق، لا إله غيره ولا رب سواه، ثم يخر له ساجدًا خاضعًا ذليلًا.

إن المتكبر إذا علم صفات الله عرف حجمه ومكانته وموقعه، وأين هو في هذا الكون؟! وماذا يشكل فيه؟! فينقطع حينئذٍ عن كبريائه وتعاظمه، ويخضع فقط لعظمة الله، ويذل لجبروته وكبريائه سبحانه، ويأبى أن يكون كبيرًا على أحد أو أن يكون أحدٌ عليه كبير غير الله.

ثم إن من علمه بربه يقتضي أن لا يسيء الظن به، لأن إساءة الظن به جل جلاله تورد المهالك، وتسبب الخسران المبين.

قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت:٢٣].

إن عادًا لما استكبروا في الأرض بغير الحق واغتروا بقوتهم، ذكرهم الله تعالى ببديع صنعه وعظيم خلقه، وكمال قوته؛ ليرجعوا عن عتوهم وكبريائهم، ويذلوا لعظمته وكبريائه سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت:١٥].

فهذه أول وأهم خطوة على سبيل علاج مرض التكبر؛ أن يتعرف العبد على الله تعالى.

ثانيًا: معرفة المتكبر لحقيقته ومصيره:

لا بد للمتكبر أن يلعم بأنه مخلوق من مخلوقات الله جل جلاله، خلقه من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين حقير،

فأصله من تراب، منه خلق وفيه يعود، ونسله من ماء مهين، يخرج من حيث يخرج البول، لذا فإن الله تعالى ذكر هذا الإنسان بأصله لما تكبر وتمرد على طاعة الله، وذهب إلى أهله يتمطى، فقال جل جلاله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة:٣٧-٣٩].

كما ذكره كذلك بأصل خلقته لما ضرب هذا المتكبر مثلًا، حين قال: من يحيي العظام بعد أن تصبح رميمًا.

قال جل جلاله :. ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:٧٨-٧٩].

إن الله تعالى كما ذكر المتكبرين بمنشأهم ذكرهم كذلك بمآلهم، فبين لهم أنهم بعد هذه الحياة يموتون، وأنهم إلى التراب يصيرون، وفيه يعودون، فقهرهم بالموت، وكفى بالموت واعظًا.

قال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف:٢٥].

لذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء:٣٧].

ولم يقل: (ولا تمش مرحًا)؛ يذكر تعالى الإنسان شأنه بأصله الذي منه خلق وفيه يعود، وهو الأرض، فإذا تكبر فعلام يتكبر؟! أيتكبر على أصله الذي منه جاء وفيه يعود؟!

إن المتكبر إذا عرف هذه المعاني وأيقن بهذه الحقائق فلن يتكبر، ولن يتعاظم على الناس.

ثالثًا: الوعيد الشديد للمتكبرين:

إضافة إلى ما سبق فإن الله تعالى أعد للمتكبرين عذابًا شديدًا، فقال جل جلاله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر:٦٠].

وفي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)**[1].

وقد سبق حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار)**[2].

وقد رأينا في هذا البحث كيف كان مصير المستكبرين في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى، فليس بعد هذا الوعيد من وعيد، والعاقل من استفاد من تجارب السابقين.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم ٩١، عن عبدالله ابن مسعود.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وصححه الشيخ الألباني.

فهذه ثلاث طرق لعلاج الكبر مستوحاة من كتاب الله تعالى وسنة حبيبه صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن المتكبر حال تلبسه بكبريائه يغيب عن باله عظمة الخالق سبحانه، وينسى أصله وحقيقته ومآله، ويتجاهل ما ينتظره من العذاب الشديد، ولو استحضر هذه أمامه لما تكبر على خلق الله، ولا تعالى على عباده.

موضوعات ذات صلة:

التواضع، الذل، العجب، الغرور





عناصر الموضوع



مفهوم الاستهزاء

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (هزء) تدل على السخرية، يقال: هزأ واستهزأ: إذا سخر، واستهزأ بالقانون: خرقه ولم ينفذه، وهو بمعنى: السخرية، والاستخفاف، ويأتي بمعنى: التهكم[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف كثيرًا المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، فالاستهزاء يقتضي تصغير من قصد به، وتحقيره[(٢)].

ويكون بالقول أو بالفعل، بالعبارة أو الإشارة، بالخطابة أو بالكتابة، بالتصريح أو بالتلميح، بالتحقيق أو بالتلفيق، وقد يطابق الحال فيمن استهزئ به وقد يخالف.

وعرفه ابن جرير الطبري بأنه: «إظهار المستهزئ للمستهزأ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهرًا، وهو بذلك من قيله وفعله به مورثه مساءة باطنًا»[(٣)].

وبإمعان النظر يظهر أن هذا التعريف غير دقيق، ذلك أن الاستهزاء قد وقع من الكفار في العهد المكي، وهو عهد الاستضعاف، ويؤكد ذلك مجيئه في السور المكية، ولم يكن من الكفار إظهار ما يرضى به النبي صلى الله عليه وسلم بل كانوا يظهرون له العداوة والسخرية والطعن فيه، ويسعون في إحراجه كثيرًا، وكون هذا فيهم يرد هذا التعريف، وقد ذكره الطبري في سورة البقرة عند الحديث عن المنافقين، لكنه حين وقف مع استهزاء الكافرين ذكر أنه كان منهم السخرية والإيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم[(٤)].

والمختار في تعريف الاستهزاء هو: صدور ما يدعو لانتقاص شأن المقصود به من المستهزئ، بوجود المقتضي أو بعدمه، بغرض التحقير له، أو التنفير عنه، أو كليهما.

(١) انظر: تهذيب اللغة،الأزهري، ٦/ ٢٢، الصحاح،الجوهري،١/ ٨٤، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ٥٢.
(٢) انظر: الفروق اللغوية،العسكري، ص٢٥٤.
(٣) جامع البيان، ١/ ٣٠٣.
(٤) انظر: المصدر السابق ١٧/ ١٥٣.



الاستهزاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (هزء) في القرآن الكريم (٣٤)[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام:١٠]
الفعل المضارع	١٧	﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة:١٥]
فعل الأمر	١	﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة:٦٤]
المصدر	٥١	﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف:١٠٦]
اسم الفاعل	٢	﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر:٩٥]

وجاء الاستهزاء في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي الذي يحمل معنى السخرية[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٣٦-٧٣٧.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٥٢، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٤١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٢٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الازدراء:

الازدراء لغة:

الاستخفاف، والاستهانة، والاحتقار[١].

الازدراء اصطلاحًا:

قلة قدر المقصود به في نظر المزدري.

الصلة بين الاستهزاء والازدراء:

الازدراء يعدى بدون حرف، ويقع من الأعلى على الأدنى؛ لعدم بلوغه المكانة المقنعة للمزدري»، بينما الاستهزاء يعدى بالباء، ويكون من المماثل أو من الأدنى إلى الأعلى.

٢ السخرية:

السخرية لغة:

«السين والخاء والراء أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستذلال»[٢].

السخرية اصطلاحًا:

الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه. وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء[٣].

الصلة بين الاستهزاء والسخرية:

السخرية تكون بعد صدور فعل من المقصود بها، بينما الاستهزاء قد يكون دون صدور ما يقتضيه من المراد به[٤].

٣ التهكم:

التهكم لغة:

هو اقتحام المرء ما لا يعنيه، والتعرض للغير بالشر[٥].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٤٤.
(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ٥٢.
(٣) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي، ص١٩٢. محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٥٣١.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٥٠.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٤٤.



التهكم اصطلاحًا:

هو ازدراء الغير بسبب في المزدري كالغيظ ونحوه.

الصلة بين التهكم والاستهزاء:

أن المقتضي للتهكم بغض المتهكم به من غير وجود سبب، أما الاستهزاء فإنه يحتمل وجود السبب، فالتهكم يكون من المتعالي وبدون أن يكون في المتهكم به ما يدعو للتهكم، وإنما فعله من قبيل الاستعلاء.

٤ الهمز:

الهمز لغة:

هو الضغط والعصر، والتعييب والطعن والغمز في غياب المهموز، وكأن الذي يهمز الناس يضغط الحروف ويعصرها[(١)].

الهمز اصطلاحًا:

عيب الناس والطعن فيهم حال غيبتهم.

الصلة بين الاستهزاء والهمز:

الاستهزاء يكون في الحضور والغيبة على حد سواء، بينما الهمز يكون في الغيبة غالبًا.

٥ اللمز:

اللمز لغة:

العيب في حضرة المقصود به لا في غيبته، بكلام ظاهر أو خفي، وأصله الإشارة بالعين ونحوها[(٢)].

اللمز اصطلاحًا:

العيب بشيء فيه تهمة[(٣)].

الصلة بين الاستهزاء واللمز:

أن الغرض من الاستهزاء التحقير، بينما الغرض من اللمز التشكيك والاتهام.

(١) انظر: مقاييس اللغة،ابن فارس، ٦/ ٦٥، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٣/ ٢٣٦٤.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي، ٧/ ٣٧٢، الصحاح،الجوهري، ٣/ ٨٩٥، مقاييس اللغة،ابن فارس،٥/ ٢٠٩.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٥٣.

٦ المزاح:

المزاح لغة:

المداعبة بكلام لا يقتضي التحقير[١].

المزاح اصطلاحًا:

الكلام غير الجاد على سبيل الدعابة[٢].

الصلة بين الاستهزاء والمزاح:

الاستهزاء يكون بغرض التحقير، بينما المزاح غرضه المداعبة[٣].

٧ الاستهانة:

الاستهانة لغة:

الإذلال، والاستخفاف[٤].

الاستهانة اصطلاحًا:

التهوين والتقليل من شأن المقصود بها.

الصلة بين الاستهزاء والاستهانة:

أن المقصود بالاستهزاء قد يكون شأنه عاديًا، بينما المقصود بالاستهانة الذي يظهر من شأنه أكبر مما يراه المستهين.

٨ الغمز:

الغمز لغة:

العيب والذكر بغير الجميل[٥].

الغمز اصطلاحًا:

الإشارة بالعين والحاجب استهزاءً وتنقصًا[٦].

الصلة بين الاستهزاء والغمز:

الاستهزاء أعم من الغمز، فالغمز صورة من صور الاستهزاء حيث إنه يكون بالعين والحاجب فقط.

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٢٥٤.
(٢) انظر: غريب الحديث، إبراهيم الحربي، ٢/ ٤٧٤.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٥٤.
(٤) انظر: معجم لغة الفقهاء، قلعجي، ص٦٠.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٣٩٤.
(٦) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٢/ ١٦٤١.



نسبة الاستهزاء إلى الله تعالى

ستعرض لقضية نسبة الاستهزاء لله عز وجل من خلال النقاط الآتية:

أولًا: إثبات صفات الله مع تنزيهه عن مشابهة المخلوقين:

عقيدة أهل الإسلام أهل السنة والجماعة هي أن الله سبحانه وتعالى هو العليم بذاته، والذي لا نعلم شيئًا عن ذاته أو أسمائه وصفاته وأفعاله، إلا ما أوحى به لرسله، وقد قال جل جلاله -مخبرًا عن الملائكة الذين كلمهم وكلموه-: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وذلك حين عرض عليهم أشياء رأوها بأعينهم، لكنه لم يعلمهم ما هذه الأشياء وما أسماؤها؟ وعلمها آدم فأمره ربه أن يخبرهم بأسمائها[١]، وكان هذا في أمر مشاهد، فكيف الحال مع ما غاب عنا وعنهم؟! لا يمكن لمخلوق أن يكون عنده أثارة من علم إلا أن يأذن الله بها، لذلك كان الأمر في عقيدتنا أن نؤمن بالله سبحانه وتعالى وما جاء عن الله على مراد الله، كما قال: الشافعي رحمه الله : «آمنت بالله وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله»[٢]، فيكون إيماننا بما أخبرنا الله جل جلاله من أسمائه وصفاته إيمانًا بالغيب، الذي لا طاقة لنا بإدراك كيفيته، مع التسليم بأن المعاني التي أرادها الله منها حقيقتها، ولا يستقيم أن نصرف هذه المعاني عن ظاهرها، لا تكييفًا ولا تشبيهًا ولا تأويلًا ولا تعطيلًا ولا تمثيلًا، وقد كان الأصل الذي قرره القرآن في غير آية يبين لنا أن الله سبحانه وتعالى لا مثيل ولا شبيه له حصنًا لأفهامنا من الزيغ والانحراف، يقول الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][٣].

وقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

وقال أيضًا: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

وغيرها من الآيات التي يتحقق لنا العلم منها أن الله لا يمكن أن يتصف بما اتصف به خلقه، وإن تشابهت الكلمات والمعاني إلا أن الحقائق بخلاف ذلك.

في ضوء ذلك يمكننا البحث عما أراده الله من قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

محتاطين لأنفسنا مما وقع في بعض

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢٢٣.

(٢) لمعة الاعتقاد، ابن قدامة المقدسي، ص٧.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٥٤.

كتب التفسير التي سار المفسرون فيها على المنهج العقلي، ومنهج علم الكلام والجدل الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، في البحث في أسماء الله وصفاته، بل هو كماء البحر الذي إذا شرب منه العطشان ازداد عطشه، وتمزقت جدران حلقه، وهذا ما جناه من ذهب يبحث في أسماء الله وصفاته على تلك الطريقة المنحرفة، قد أدى إلى تحير كثير ممن خاضوا فيه، وقد صرحوا بذلك، وليس هذا مقام بيان ذلك، لكن جئنا به على سبيل التنبيه، وليكون مدخلًا للخوض في نسبة الاستهزاء إلى الله سبحانه وتعالى، على طريقة أهل الجدل والسفسطة، فتنزه وتقدس ربنا عن صفات النقص، وعز بصفات العز والكمال، وجل بنعوت الكبرياء والجلال، ونحن بذلك مؤمنون وله مثبتون.

ثانيًا: الاستهزاء ونسبته إلى الله:

يبين الله عز وجل كاشفًا وفاضحًا لحال المنافقين ومقالهم، حين يعتذرون لرؤوسهم ورؤسائهم، وأئمتهم وشياطينهم، بالأمر الذي حاق بهم، وأغراهم وغرهم بسوء فعلهم، يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤ - ١٥].

وقد وقف أهل العلم مع هذه الآية ونظيراتها في كتاب الله عز وجل وذلك أن إثبات صفة كالاستهزاء والخداع والمكر والسخرية لله سبحانه وتعالى، أمر يقتضي رفع الاشتباه الذي قد يترتب عليه الظن والاعتقاد بأن الله متصف بصفات لو كانت في حق البشر لكانت صفات نقص، فكيف يتصف الله بها؟! وقد قاموا بفضل الله جل جلاله بدفع الاشتباه، ورد الشبه التي أوردها أهل الانحراف والعقائد الضالة بأوضح العبارات[1]، وهذا ما يرجحه الإمام الطبري في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

وهو أن استهزاء الله بالمنافقين هو من جنس فعلهم، وقد سبق أن ذكرنا تعريفه للاستهزاء في هذا المقام وهو: «إظهار المستهزئ للمستهزأ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهرًا، وهو بذلك من قيله وفعله به مورثه مساءة باطنًا»[2]، فقابلهم الله جل جلاله على ما أظهروه من الإيمان والولاء للمؤمنين بألسنتهم، وإبطان نقيضه من التكذيب والعداء في قلوبهم، أن أظهر لهم في الدنيا أن لهم أحكام أهل الإيمان المصدقين ظاهرًا وباطنًا والذين يوالون الله ورسوله في الدنيا، مع علمه بكذبهم وخبث اعتقادهم، حتى ظنوا أنهم يوم القيامة سيحشرون في عداد المؤمنين، الذين

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، ٢/ ١١٣.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١/ ٣٠٣.

كانوا في عدادهم في الدنيا، وقد أنزل الله في كتابه ذكرهم وذكر أحوالهم وسرائرهم الخبيثة، وما أعد لهم يوم القيامة من الخزي والمفاجآت والمواقف الفاضحة والعذاب الأليم على خلاف توقعاتهم، وذلك في مواقف نذكر منها ما يأتي:

ما جاء في قول الله سبحانه وتعالى ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣ - ١٤].

يقول ابن عباس: «بينما الناس في ظلمة، إذ بعث الله نورًا، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلًا من الله إلى الجنة؛ فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا تبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: انظرونا نقتبس من نوركم، فإنا كنا معكم في الدنيا؛ قال المؤمنون: ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة، فالتمسوا هنالك النور»[(١)].

وموقف ثانٍ في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].

عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمنٍ ومؤمنةٍ، فيبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعةً، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقًا واحدًا)**[(٢)].

وهؤلاء هم المنافقون؛ ذلك أن الناس يوم القيامة يذهب كل قوم مع إلههم الذي عبدوه في الدنيا «ويبقى المؤمنون والمنافقون، فيقال لهم: ألا تذهبون فقد ذهب الناس؟ فيقولون: حتى يأتينا ربنا، فيقال لهم: أو تعرفونه؟ فيقولون: إن اعترف لنا عرفناه.

قال: فعند ذلك يكشف عن ساق ويتجلى لهم؛ فيخر من كان يعبده مخلصًا ساجدًا، ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأن في ظهورهم السفافيد، فيذهب بهم إلى النار»[(٣)].

وموقف ثالث جاء ذكره في قول الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا

(١) المصدر السابق، ٢٣/ ١٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (يوم يكشف عن ساق)، ٦/ ١٥٩، رقم ٤٩١٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٢٥٠.

﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٣٥ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٢ - ٣٧].

يبين الله جل جلاله في هذه الآيات استهزاء الكفار باليوم الآخر، والصورة التي كانوا يستهزئون بها، وموقفهم يوم القيامة حين يطبق عليهم سوء فعلهم، فيطوقهم ويحيط بهم، ويقال لهم استهزاءً: اليوم نترككم كما تركتم العمل بما جاءكم به النبي صلى الله عليه وسلم، وتركتم التفكر فيه؛ ليصبح يقينًا كما ترونه اليوم، وقنعتم بعملكم المنكر واستهزائكم بخبر هذا اليوم الذي أنتم فيه الآن.

فكان جزاؤهم من جنس عملهم؛ تركوا الإيمان والاستعداد ليوم الحساب، فحاق بهم ما استهزءوا به وتركوا في العذاب، وكان خطاب الله لهم بيانًا لعاقبة فعلهم، حيث أظهروا شيئًا من الاهتمام بالتساؤل حول خبر ما جاءهم به النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم يقصدون بذلك تقرير بطلانه لعدم قوة الحجة التي جاءهم بها النبي صلى الله عليه وسلم، فيأتيهم الخطاب وهم ليسوا أهلًا لخطاب الله، لكنه خطاب تقنيط وتبكيت، كما كان خطابهم للنبي صلى الله عليه وسلم خطاب تقنيط وتكذيب، استهزاءً باستهزاء، والجزاء من جنس العمل.

وعليه فإن إثبات صفة الاستهزاء لله جل جلاله على ما أثبته له أهل السنة والجماعة، لا يورد أدنى اشتباه يكون مؤداه الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى قد اتصف بصفات النقص، ولا يرد عليه أدنى إشكال بأن الله جل جلاله يشبه مخلوقاته في صفاتهم أو أفعالهم.

ثالثًا: الاستهزاء صفة من صفات الله:

بالتزام الأصل الذي تطرقنا له سابقًا، وبعد استعراض ما جاء في كلام العلماء فيما تلاه نخلص إلى ما يلي:

أن صفة الاستهزاء هي صفة لله على وجه الكمال لا على وجه النقص كما هي في حق الأدمي، وذلك أنه ليس كل صفة نقص في حق المخلوق إذا ما اتصف بها الخالق تكون صفة نقص فيه، فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فعدم النوم عند الإنسان يدل على مرض واعتلال، وهو بهذا الاعتبار يكون موصوفًا بعلة، وهي صفة نقص فيه، لكن الله عز وجل لا ينام؛ وهذا من كمال حياته وقيوميته، الإنسان الذي لا يولد له؛ يكون عقيمًا، وهي له صفة نقص، وكذا إن لم يكن له أهل يعرف أن أصله منهم، بينما الله سبحانه وتعالى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

الإنسان الذي لا يصلح له الزواج، كان هذا لنقص فيه، والله جل جلاله غني عن ذلك، وهذه والتي قبلها لكمال غناه سبحانه وتعالى وأحديته وصمديته، وعليه فالله عز وجل لا يجوز أن تضرب له الأمثال بمخلوقاته، وهناك صفات كمال لله عز وجل جعل الله سبحانه وتعالى منها صفات كمال للإنسان، وهي كثيرة: كالسمع والبصر، والكلام والرحمة، والعفو والرضا والغضب، والحب والبغض والوجه وغيرها كثير.

إثبات الصفات لله عز وجل ليس كإثباتها لغيره من خلقه، فنحن نثبت له منها المعنى الظاهر، ونثبت الكيف الذي يليق به، ونكل علم الكيفية له عز وجل، كما فعل الإمام مالك -رحمه الله تعالى-، حين جاء ذاك المبتدع وسأله قائلًا: «يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

كيف استوى؟ قال: فما رأينا مالكًا وجد من شيءٍ كوجده من مقالته، وعلاه الرحضاء[1]، وأطرق، وجعلنا ننتظر ما يأمر به فيه. قال: ثم سري عن مالكٍ، فقال: الكيف غير معقولٍ، والاستواء منه غير مجهولٍ، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعةٌ، وإني لأخاف أن تكون ضالًا، ثم أمر به فأخرج»[2].

الكمال الذي للخالق سبحانه وتعالى ليس كالكمال الذي يكون للمخلوق، ولكي يقرب الأمر في أذهاننا نقول: إنه ليس كل كمال في مخلوق يصلح أن يكون كمالًا لمخلوق آخر؛ وإن كان مثله في الأصل والهيئة، فالكمال بالنسبة للمرأة ليس كالكمال بالنسبة للرجل، وإذا كان هذا التباين والاختلاف موجودًا بين مخلوقين خلقا من مادة واحدة، وعلى هيئة واحدة، فهو بالنسبة لله أعظم.

وهناك أمر آخر نبه له أهل العلم لابد من ذكره في هذا المقام؛ ألا وهو أن الله سبحانه وتعالى لا يشتق له من صفاته أسماء، فإن قلنا: إن الله جل جلاله له صفة الغضب، فلا يجوز لنا أن نقول: إن من أسماء الله سبحانه وتعالى الغضوب، أو إن له صفة البغض أن نقول: إن من أسماء الله عز وجل المبغض، وإن له صفة الرضا فيكون من أسمائه الراضي، فلا يجوز أن نسمي الله باسم لم يسم نفسه به، فأسماؤه توقيفية، وإثباتها لا يكون إلا بدليل من الكتاب أو السنة، ولا تكون اجتهادية بالمطلق.

(١) الرحضاء: عرق الحمى.
انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٧/ ١٥٤.

(٢) الرد على الجهمية، الدارمي، ص٦٦.

الاستهزاء بالأنبياء وأتباعهم

بين القرآن الكريم الاستهزاء بالأنبياء وأتباعهم وأسبابه وهذا ما ستتناوله بالإيضاح فيما يأتي:

أولًا: الاستهزاء بالأنبياء والمرسلين:

لم يكن كتاب الله سبحانه وتعالى كتابًا غرضه التفكه والمسامرة، بل كان له غرض سامٍ، فهو كتاب هداية للعالمين يخاطب الله سبحانه وتعالى به أصحاب العقول، وقد أورد الله جل جلاله فيه أحسن القصص لهذا الغرض، ففيها من بيان ما لاقاه أهل الحق، وبيان أساليبهم ووسائلهم في مواجهة ما يعترضهم؛ ليكون المخاطبون به على بينة من أمرهم، فهم على نفس الطريق سائرون، ولنفس السبيل ناهجون، ومن جملة القصص التي أنزلها الله ما كان فيها ذكر استهزاء الأمم السابقة بأنبيائهم ورسلهم، وهذا ما سنعرض له في النقاط الآتية:

١ . الغرض من ذكر الاستهزاء بالأنبياء والمرسلين.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وهذا أمر علم الله سبحانه وتعالى أن له الأثر البالغ في تقوية عزم النبي صلى الله عليه وسلم على طريق دعوته، فهو طريق حافل بالابتلاءات، مكلل بكل ما من شأنه أن يثنيه عن دعوته، فيذكر الله جل جلاله لنبيه صلى الله عليه وسلم أخبار من كان قبله من الأنبياء، وأنهم لاقوا مثل الذي يلاقيه، ومن جملة ما لاقوه -بل هو أكثر ما استعمل معهم لصدهم عن رسالتهم- الاستهزاء[1]، وقد ذكر الله أن الأنبياء والرسل عامتهم لم يسلموا منه، وذلك في سبعة مواضع، وفي سبع سور من القرآن الكريم، وذلك أن الله سبحانه وتعالى نزل القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم منجمًا لذات الحكمة التي قص لأجلها عليه قصص الأنبياء والرسل، وهي تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليجتمع بذلك تكرار القصص مع تعاهد المولى جل جلاله لنبيه بالتثبيت على فترات متباعدة.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وكان هذا أيضًا من جملة ما لم يسلم من اعتراضهم واتخاذه مطعنًا على النبي صلى الله عليه وسلم، أنه لم ينزل عليه القرآن كما

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٢٤٨.

نزلت الكتب على الأنبياء السابقين، فجاء الجواب في هذه الآية مبينًا حكمةً من الحكم التي نزل القرآن من أجلها منجمًا، وليس هذا محل عد هذه الحكم، لكن الذي هو محل بحثنا نزول القرآن بذكر استهزاء الأمم برسلها وأنبيائها والحكمة منه، وعلى نفس الطريقة جاء ذكر الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم ففيه تذكير للنبي صلى الله عليه وسلم أن الله مطلع عليهم، وفيه بيان لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليطلعوا على ما مر به صلى الله عليه وسلم ليكون لهم أسوة، وفيه تسلية حتى لا يوقع الشيطان في قلوبهم أن الله عز وجل قد تخلى عنهم.

٢. ذكر استهزاء الأمم السابقة بالرسل والأنبياء.

الإنسان موصوف بالجهل والظلم، ومن كمال رحمة الله جل جلاله وعدله أنه لم يتركه فريسة لظلمه وجهله، فتفضل عليه بإرسال الرسل والأنبياء؛ ليخرجوه من ظلمات الجهل إلى نور الهدى، ومن خلف قضبان الظلم إلى سعة الرحمة والعدل، لكن من غلب عليه وصفه الأصلي بسبب ما استمرأه من المعيشة في الظلام، واستعذبه من حياة الأسر في قبضة عدوه، لما جاءه من يناديه؛ ليتحرر من أسر العدو، ويفتح عينيه ليبصر نور الحق، ظن أن ما يدعوه إليه هو الأسر، وهو ما سيصيبه بالعمى، فإن قال له: هلم إلى النور. سخر! وقال: وهل هناك من نور؟! وإن دعاه إلى دار السعة والنعيم، استهزأ وقال: وهل غير هذه الدار دار؟! فهو من جنس من عطلوا حواسهم؛ فهم عمي لا يبصرون، وصم لا يسمعون، وجهلة لا يهتدون، وأعملوا شهواتهم، واتبعوا أهواءهم، وفيهم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وذلك أن غلبة الهوى على الحكمة، وغلبة الشهوة على العقل عندهم جعلتهم يقتنعون بصحة منهجهم، فدعاهم ذلك لأن يستهزئوا بمخالفيهم إلى غيره، ومن يدعوهم إلى ما فيه خيرهم، وأي حسرة هي أعظم من هذه الحسرة على من هذه حالهم، فوصف حالهم مع الحق جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقد جاءت على هذه الحال كل الأمم مع أنبيائها ورسلها، فلم يسلم نبي ولا رسول من مستهزئ[(١)].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٦/ ٢٩٥.

٣. نماذج من استهزاء الأمم السابقة بالأنبياء والمرسلين.

❁ نوح عليه السلام وقومه.

الرسول الأول الذي أرسله الله سبحانه وتعالى، والذي لم يسبق بمن سار على طريقه، ولم يأت بعده من مكث في قومه مثله، وبعد طول لبث، ومحاولة كل الطرق، وتجريب كل الوسائل، جاءه بعذابهم الخبر، وبصناعة السفينة قد أمر، فكانوا إذا مروا به استهزأوا ويقولون له: أصرت نجارًا بعد النبوة يا نوح، وتصنع السفينة في الصحراء وهي لا تجري إلا في البحر! فكان يجيبهم: إن تهزأوا منا اليوم فإنا سنهزأ بكم يوم القيامة، وقد أخبرنا بذلك كتاب الله عز وجل حيث يقول: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

وذاقوا وبال أمرهم، وسوء عاقبتهم في الدنيا، وما ينتظرهم يوم القيامة من الخزي أشد وأنكى[(١)].

وقد جاء التعبير عن فعلهم في النص القرآني بلفظ السخرية؛ لأن نوح يفعل أمرًا يقتضيها، وذلك من وجهة نظرهم، والحقيقة أن ما قام به نبي الله نوح عليه السلام كان بوحي من الله، وعليه فإن حقيقة فعلهم استهزاء وليس سخرية؛ لعلمهم أن نوحًا ليس من العابثين.

❁ إبراهيم عليه السلام والنمرود.

وذلك حينما ذهب إبراهيم عليه السلام كسائر الناس ليأخذ الميرة من عند الملك، وكان العام وقتها عام جدب وقحط، يقول الله جل جلاله ذاكرًا الموقف: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فقد كان الملك لا يعطي أحدًا إلا سأله: من ربك؟ فيقول له: أنت، فيعطيه، فلما جاء إبراهيم عليه السلام قال له: من ربك؟ قال إبراهيم عليه السلام: ربي الذي يحيي ويميت، فأجابه سفاهةً واستخفافًا -كما فعل فرعون وقومه، إذ قال الله عز وجل فيهم: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]-: وأنا أحيي وأميت، وأحضر رجلين حكم عليهما بالقتل، فقتل أحدهما، وأطلق الآخر! وقال: هذا أمته وهذا أحييته!، فجاءه إبراهيم عليه السلام بالرد المفحم بأن ربه يأتي بالشمس من المشرق، وتحداه أن يأتي بها من المغرب؛ فبهت الذي كفر[(٢)].

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، ٦/ ١١٣٩.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٣/ ٢٩.

● موسى عليه السلام وفرعون.

ذلك الطاغية الآخر الذي زعم أنه الرب الأعلى، كأنه قد قام باستفتاء في قومه يعرض عليهم أمره وأمر موسى عليه السلام ، ذاكرًا ما فضل به على موسى عليه السلام ، يقول الله جل جلاله في شأنه: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ۝٥٠ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٠- ٥٤].

يقول: أنتم ترون فأنا أملك مصر وأنهارها، وموسى فقير ليس له شيء، وأنا صحيح المنطق، واضح البيان، وموسى لا يكاد يفهم كلامه لما في لسانه من لثغ، فإن كان صادقًا فلماذا لا ينزل له أسورة وحلي وزينة ومال من السماء؟ أو لماذا لا يظهر معه ملائكة يصدقونه ويؤيدونه فيما يدعي؟ وهذا استخفاف بقومه واستهزاء بموسى عليه السلام ، فكان الرد من الله عليه وقومه أن الحمق الذي عندهم، كان سببًا لطاعتهم إياه، وهم في جملتهم فاسقون خارجون عن طريق الاستقامة[1] .

٤ . الاستهزاء بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم هو النموذج الحي وقت نزول القرآن، ولأن الاستهزاء كان به وبما أنزله الله سبحانه وتعالى عليه، ولأن الاستهزاء به غالبًا ما يأتي بأسلوب استفهامي ساخر، أو خطاب تهكمي سافر، وكان شأنه صلى الله عليه وسلم عند ربه عظيمًا، لم يرض سبحانه وتعالى أن يمره دون ردٍ عليه، وفضح قائليه، فيأتيهم الجواب من عند الجبار جل جلاله، بما يسوؤهم ويخزيهم، ويرفع قدره، ويجعل قدمه فوق نواصيهم، وسنعرض لثلاثة مواقف جاء خبرها في القرآن من الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم وكيف جاء الرد القرآني عليها، وذلك فيما يأتي:

● النبي صلى الله عليه وسلم واستهزاء المشركين.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

كان المشركين إذا رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استهزءوا به وقالوا: أهذا المحتقر-بزعمهم- الذي يسب آلهتكم ويذمها، ويقع فيها، هذا استهزاؤهم واحتقارهم له، يقرنونه بما هو سبب كماله

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/ ٩٣.

صلى الله عليه وسلم، ألا وهو دعوته إلى توحيد الله جل جلاله، والكفر بكل معبود سواه، فالذي فعله التوحيد والدعوة إليه هو الأكمل والأفضل، والأبهى والأجمل، وذلك أنه أخلص العبادة لله سبحانه وتعالى، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر محله ومكانته، وعليه فالذي يستحق الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كل خلق مذموم، ولو لم يكن منهم إلا كفرهم بالله وعدائهم لرسوله صلى الله عليه وسلم لكانوا بذلك من أخس الخلق وأرذلهم، وأبشعهم وأقبحهم[1].

فانظر كيف رد الله عليهم قولهم واستهزاءهم، فقد بين أن ما عابوا به النبي صلى الله عليه وسلم من ذكره لآلهتهم بسوء هو مدح له، وما يكون من فعلهم مقابلًا لفعله بكفرهم بالله أمر يستحقون به أفظع الشتم، وأشنع الذم، وأقذع الكلم.

❁ النبي صلى الله عليه وسلم واستهزاء اليهود.

يخبر الله عن خبث اليهود في التعريض بالكلام، من ذكر اللفظ المحتمل لأكثر من معنى -وإن لم يكن من لغتهم-؛ ليظهر للمستمع أنهم يريدون الحسن والمرضي من القول، والحقيقة أنهم يريدون القبيح الشنيع منه.

يقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

ذكر الله استعمال اليهود للفظة ﴿رَٰعِنَا﴾ التي يبدو منها أن مرادهم سؤال النبي صلى الله عليه وسلم الاستماع إليهم، فجعل المسلمون يستعملون هذه الكلمة، كما كان يستعملها أهل المدينة في هذا المعنى؛ لأنهم ظنوا أن اليهود يستعملونها على نفس المراد، غير أن الله نهاهم عن ذلك؛ لأن قصد اليهود التعريض واللمز بالرعونة التي هي ضد المروءة[2]، ثم توعدهم بشدة العذاب على ذلك، وكشف صفة اليهود التي يحملونها للمسلمين ألا وهي حسدهم لهم وعدم حب الخير، وفيه من الذم ما فيه، وذلك أن من أقبح الصفات التي قد يتلبس بها الإنسان هي الحسد، وقد وقع بسببه ما وقع من لعن لإبليس بسبب كبره مع حسده لآدم، وقتل أحد ابني آدم لأخيه، فمن تحلى بها -وليس بمثلها يحلو- كان في رتبة أحدهما، والعياذ بالله.

❁ النبي صلى الله عليه وسلم واستهزاء المنافقين.

المنافقون هم قوم ظهر لهم الحق

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٢٣.

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي، ص١٢٣.

وعرفوه، لكنهم كانوا أسرى الشهوات، وأذناب الهوى، يقودهم لغير هدى، ويوردهم طرق الردى، ومع ذلك يسعون في فتنة من اتبع الهدى، يقول المولى جل جلاله -محذرًا من كيدهم، ومنبهًا على زيغهم وميدهم[(١)]-: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

فقادهم الشيطان وهو إمامهم، واستنفرهم لمعاداة الأنبياء والمرسلين، واستفزهم ليسعوا في فتنة الهداة المصلحين، فكانوا إذا استمعوا إلى الحق استجهلوه سخريةً واستهزاءً[(٢)]، وأظهروا كأنهم ما سمعوه لا يستحق الاهتمام، ولا هو جدير بالاعتبار.

يقول الله سبحانه وتعالى واصفًا هذا الموقف: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

وما كان منهم هذا التساؤل إلا على سبيل الاستهزاء، فأرجع الله استهزاءهم وعدم اعتبارهم، وقلة اهتمامهم إلى سفه عقولهم، وعقم فهومهم، والطبع على قلوبهم، واتباع شهواتهم، والانقياد لأهوائهم، فصدق فيهم قول المتنبي[(٣)]:

ومن يك ذا فمٍ مرٍ مريضٍ
يجد مرًا به الماء الزلالا

فكيف سيتلذذ بطعم العسل، من كان أصل المرار في فمه؟! وكيف سيبتلع الطعام الشهي من انتفخ بالورم الخبيث حلقه؟!

وفي قول آخر له[(٤)]:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا
وآفته من الفهم السقيم

فكيف سيسوغ لهؤلاء الذين مرضت قلوبهم وانتكست فطرهم أن يعقلوا أو يفهموا أو ينتفعوا بأحسن القول، الذي هو أصدق الحديث، وفصل الخطاب.

ثانيًا: الاستهزاء بالدعاة والمصلحين:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍ وافرٍ)**[(٥)].

---

(١) الميد: الزيغ.
انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤١١.

(٢) انظر: تفسير الجلالين، السيوطي والمحلي، ص٦٧٥.

(٣) الأمثال السائرة من شعر المتنبي، الصاحب ابن عباد، ص٢٨.

(٤) المصدر السابق ص٣٥.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ٤٦، رقم ٢١٧١٥، وأبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، ٣/ ٣١٧، رقم ٣٦٤١، والترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ٥/ ٤٩، وابن ماجه في مقدمة سننه، باب فضل العلماء، ١/ ٨١، رقم ٢٢٣، عن أبي الدرداء رضي الله عنه.
وصححه الألباني، صحيح الجامع ٢/ ١٧٩،

وجريًا على القاعدة الفقهية إن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، وهي قاعدة شرعية إسلامية، غير أن لسان حال شريعة المنافقين -إن كان لهم شريعة- يقررها في معاداة الحق وأهله، فإن العداء الذي حملته قلوب أعداء الله لأنبيائه ما كانت إلا للعلم الذي جاءهم من عند الله، وقد ورث العلماء والدعاة والمصلحون هذا من أنبيائهم، فورثوا معه العداء من أعدائهم، ويذكر الله سبحانه وتعالى موقفًا من المواقف التي استهزأ فيها المنافقون من أولئك الورثة الكرام.

يقول عز وجل: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٤ - ٦٨].

يصف الله سبحانه حال المنافقين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن وقع منهم الاستهزاء بعلماء الصحابة رضي الله عنهم، وما فيه من الترقب لنزول القرآن بخبرهم، وذلك حين قالوا: «ما لقرائنا هؤلاء أرغبنا بطونًا وأكذبنا ألسنةً، وأجبننا عند اللقاء»[1].

فتفضح كفرهم الذي أضمروه، ولئن سئلوا عن القدح في حق النبي صلى الله عليه وسلم وحق أصحابه ليقولن: إنما كنا نتحدث على سبيل المزاح والمرح، فيأتي البيان في قول الله عز وجل أنهم كانوا يستهزئون بالله عز وجل وآياته ورسوله، ولا ينفعهم الاعتذار ولا يبرئهم، فقد وقع الكفر منهم بسبب هذه المقالة، وإن تفضل الله جل جلاله بالعفو عن بعضهم؛ لتوبتهم، فعاقبة الآخرين هي العذاب، ثم يأتيهم ما عجل لهم من هذه العقوبة، في بيان وصفهم الذي يكرهون، فيقول: المنافقون والمنافقات على شاكلة واحدة، وسنة فيهم متبعة في إعلانهم الإيمان واستبطانهم الكفر، فهم يأمرون بالكفر ويزينون المعصية، وينهون عن الإيمان والعمل الصالح، ولا ينفقون في سبيل الله، تركوا أمر الله، فتركهم من الهداية

رقم ٦٢٩٢.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٣٣٣.

والرحمة، فلم يوفقهم إلى خير، والمنافقون هم الخارجون عن الإيمان بالله ورسوله.

ويذكر الله أن لهم وعيدًا عنده، وهو أن المنافقين والمنافقات والكفار متوعدون بأن يكون مصيرهم إلى نار جهنم خالدين فيها أبدًا، عقابًا على كفرهم بالله، وأن الله عز وجل طردهم من رحمته، ولهم عذاب دائم؛ لأن أفعالهم من الاستهزاء والكفر كأفعال الأمم السابقة التي كانت على جانب أشد منهم من القوة والمال والأولاد، ولكنهم اطمأنوا إلى الحياة الدنيا، واستهزأوا بأنبيائهم وصالحي أممهم، واستمتعوا بما أغراهم من المتاع الزائل، واستمتع المنافقون بنصيبهم من الشهوات الفانية كاستمتاع الذين من قبلهم بحظوظهم الفانية، أولئك الموصوفون بهذه الأخلاق هم الذين ذهبت حسناتهم في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الخاسرون ببيعهم نعيم الآخرة بحظوظهم من الدنيا[1].

ثالثًا: الاستهزاء بالمؤمنين:

وهذا النوع من الاستهزاء هو الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة، حيث تقسيم الناس إلى مؤمن وكافر ومنافق.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٨ - ١٦].

هؤلاء هم الصنف الأخطر في المستهزئين جميعًا، ذلك أنهم على اتصال مباشر ودائم بالمؤمنين، يفسدون في الأرض وهم يدعون أنهم مصلحون، مما يفهم منه أنهم دعاة إلى منهج يزعمون أنه منهج إصلاحي، بل إنهم لشدة وقاحتهم حصروا أنفسهم وأعمالهم في الإصلاح، بقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ويزينون ذلك للمؤمنين، ويعلنون أنهم مؤمنون إعلانًا يحقنون به دماءهم من المسلمين[2].

ولكنهم -على حد زعمهم- لهم رؤية

---

(١) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص١٩٧.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٢.

مستنيرة حضارية متقدمة، ولا يقبلون لأنفسهم ما يتلبس به المؤمنون من حال ينعتونه بالرجعية والتخلف والسفه، فهم يريدون النهوض بالمسلمين، والتقدم والازدهار، والتمسك على طريقة المؤمنين -الذين هم في منظورهم سفهاء- مليء بالمعوقات التي يجب عليهم أن يتحرروا منها، فلا ينبغي للدين أن يحكم في كل شيء، فالدين لله والوطن للجميع، وحكم الشعب للشعب، وما دخل الدين في لباس المرأة الذي يجعل الغرب ينظرون إلينا نظرة تخلف، وطاعة العلماء والأمراء والرضا بحاكم واحد مستمر، هذا استبداد وقهر وظلم، وما دخل الدين في السياسة، وأخوة الإنسانية تجمعنا مع جميع الناس فلنترفع عن البغض.

وليكن الحب رحبًا برحابة السماء يسع الجميع، ولا فرق بين الناس في الجنس واللون والدين، والناس أحرار لهم الحرية المطلقة في فعل ما يشتهون، ولهم اليوم أن يدينوا بدين، ويغيرونه في الوقت الذي يحبون، وحرية الرأي والتعبير متاحة للجميع لا لتكميم الأفواه، ولا للحجر على العقول، والناس مختلفون في وجهات النظر، فلكل واحد أن يحكم على الله جل جلاله من وجهة نظره، وله أن يحاكم الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوته وأفعاله وآرائه وأفكاره، فيخطئ ويصوب كيفما يحلو له، وينبغي أن نعتز بحضاراتنا القديمة، الفراعنة، والبابلية، والأمازيغية، والتركية،... وغيرها، وعدم المساواة بين الرجل والمرأة يعد ظلمًا، الفسق فن، والفجور كسب مشروع، والإباحية تنوير، والتمسك بنصوص الكتاب والسنة تعقيد وتشدد وتنطع، والآخر غير المسلم صالح، ولكن الخلل في نظرتنا له، كلنا نؤمن بالله عز وجل يهود ونصارى ومسلمين، الجميع مؤمنون، بل وكل صاحب فكر ومعتقد مؤمن بفكره ومعتقده، فلا نقول: الكافر، بل نقول: الآخر، لا يجوز التكفير، بل ينبغي إلغاء هذا المصطلح، وطمسه إن استطعنا من القرآن والسنة، وإن لم نستطع فلنحمل اللفظ مدلولًا آخر، كأن يراد به فقط أبو لهب وأبو جهل، وكلنا سواسية.

كلمات مزخرفة، وعبارات مبهرجة، فهؤلاء هم من قال الله فيهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

لينخدع بها ضعاف الإيمان، وهم في حقيقة الأمر لا يخدعون المؤمنين بالله حقًا، كما أن الله سبحانه وتعالى لا يخادع، فالخداع يقع منهم على أنفسهم، فلا يقتنع

به إلا من هو مثلهم، وأما الذين آمنوا فمتمسكون وثابتون على ما هداهم الله إليه من الحق، وهؤلاء المنافقون لهم زعماء ورؤساء يخلون بهم، ويثبتون ولاءهم لهم، فيقدمون لهم الدعم، ويعطونهم من ألوان المعونات والملذات؛ ما يفتنون به الناس، وإذا أصابهم خوف من الفضيحة أعلنوا الإيمان، وخنسوا كما يخنس الشيطان.

وإن خافوا من أوليائهم ورؤسائهم، أخبروهم أن هذا من قبيل الاستهزاء والسخرية والإغراء للمؤمنين؛ لينخدعوا بهم، والحقيقة التي لا يعلمونها، أن الله عز وجل قد يذلل لهم العقبات ويسهل لهم الصعاب؛ ليزدادوا غيًا إلى غيهم، وذنوبًا إلى ذنوبهم، وخسرانًا إلى خسرانهم؛ ليتبعهم من في قلبه مرض، وهو في صف المسلمين ظاهرًا.

لكنه يتخفى ويتكتم؛ ليظهر الله لهم حاله، كما أظهر كفر إبليس للملائكة بخلق آدم، فالله بهذا يستهزئ بهم بأن يريهم ما يرضونه، حتى إذا جاء وقت الحصاد وجدوا حصادهم هشيمًا، وألفوا جناهم نارًا؛ ليشتعل هشيمهم بنارهم فيزدادوا احتراقًا، ويجدوا أنفسهم في أسفل دركات النار، فقد اشتروا الضلال والانحراف والزيغ والهلاك وما هو الثمن، إنه الهدى والإيمان والاستقامة والأمان[1]، فهل بعد هذا الخسران من خسران؟ نسأل الله السلامة من الخذلان.

رابعًا: تنزيه الرسل عن الاستهزاء:

إنهم غلاظ الطباع، وقساة القلوب، الذين ما أدركوا نبيًا من أنبياء الله إلا ساموه ألوان الأذى، وقد ذكر الله من ذلك ما فعلوه بنبيه موسى عليه السلام أصنافًا، إنهم اليهود، الذين لا مواثيق لهم ولا عهود، أحوالهم مع أنبياء الله، لم يحفظوا للنبوة حقها ولا للرسالة قدرها، فظنوا أن الرسول يكون منه ما يكون من غيره من سفاهة العقل، وصلافة الهزل، وجلافة القول، كما يكون من أمثالهم، وخبر ذلك ما كان بينهم وبين نبي الله موسى الكليم الحليم عليه السلام في قصة البقرة.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

يخبرهم بأمر جاءه من عند الله، فيرمونه بالاستهزاء، وهذا الأمر لو وقع من إنسان معيب لزاده عيبًا، ولما سكت عنه من سمعه، فكيف يتهمون به نبيًا كريمًا من أولي العزم، وله خاصية التكليم، ورأوا على يديه من الآيات ما رأوا، وخاض بهم البحر وأنجاهم الله عز وجل به من سوء عذاب

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ١/ ٢٥٤.

فرعون، وأحياهم الله بدعائه بعد الموت، مواقف وآيات وعبر لا حصر لها، لكنهم لهم قلوب أشد قساوة من الحجارة، وأيبس من الصخر، فأجابهم عليه السلام بكل أدب، وسعة صدر وحلم، فقال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧][1].

إنه موطنٌ الاستهزاء فيه يكون حماقة، فالواقعة واقعة قتل، والحال حال لا يسوغ أن يكون الاستهزاء فيها لائقًا بنبي؛ لأنه في معرض سؤال عن أمر لا يجوز الجواب عنه إلا بالحق، ولا يكون فيه العلم إلا من عند الله عز وجل، والاستهزاء بحالة كهذه استهزاء نقص، لا يليق بمقام النبوة، ولو كان المقام مقام بيان لحال عجز آلهة عبدت من دون الله، واعتقاد باطل لا يسوغ لعاقل أن يرضاه، لكان جائزًا كما حدث مع إبراهيم عليه السلام مع قومه وآلهتهم، في قول الله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٨٨ - ٩٣].

فهو يعتذر لهم بالسقم الذي لم يكن مصابًا به، كما أخبر بذلك أبو هريرة رضي الله عنه فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذباتٍ، ثنتين منهن في ذات الله عز وجل قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩].

وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]...)[2].

فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن فعل إبراهيم في هذين المقامين إنما كان في ذات الله، أما في غير مثل هذه الحال فلا يليق بالرجل الكامل أن يستهزئ بشيء.

فالأول: استهزاء بالنجوم التي ليس بيدها الشفاء.

والثاني: استهزاء بالآلهة؛ لعلمه أنها لا تنطق، ولا تأكل ولا تشرب[3].

والثالث: استهزاء بقومه ومعتقدهم في آلهة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، ولا أن تجيب من يسألها[4]، ليس من باب الهزل، أو لغو القول، بل من باب إيقاظ العقل، ودفع الجهل، وكشف الظلمة، وإزاحة العتمة عن حقيقة الألوهية، وما هم فيه من قبيح العبودية، بطريقة من الاستهزاء مرضية.

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ١٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، ٤/ ١٤١، رقم ٣٣٥٧.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٩٨.

(٤) انظر: تفسير المراغي، ١٧/ ٤٩.

مواطن الاستهزاء

أولًا: الاستهزاء بالكتب المنزلة:

حينما يعجز المعاند للحق عن إقامة الدليل على صحة ما ينادي به وما يدعو إليه، تجده يلجأ إلى الحيل الدفاعية السلبية الرديئة، فيلجأ إلى الهروب والانسلاخ الوجداني والانفعالي من الموقف الذي يظهر فيه وضوح الحق، حتى لا يغلبه الحق على هواه، وهذه أولى خطواته، معززًا حاله بأسلوب السخرية والاستهزاء، ويكذب بالحق الذي يدعوه ما استقر في نفسه من اليقين بصدقه، لكنه يجحده، وينتهج أسلوب الغوغائية وإثارة غبار الكلام في عيون العقول؛ ليشوش بذلك على المستمعين بآذان الألباب؛ ليوقع الشكوك في نفوس أصحابها فيما جاءهم من الحق، وقد عرض القرآن استهزاءهم الذميم، والأحوال التي ترديهم في مهاوي الجحيم، وإن من صور استهزائهم ما يأتي:

الإعراض: وهو الأسلوب الذي أوصى به الله سبحانه وتعالى عند تطاول السفهاء فهو بلا أدنى شك أسلوب حكيم في مثل هذا الموطن، ولا يفعله العبد عن عجز، بل يترفع ويربأ بنفسه عن مجاراة السفيه في سفاهته، وفيه يقول الشاعر[1]:

يخاطبني السفيه بكل قبح
وأكره أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهةً وأزيد حلمًا
كعودٍ زاده الإحراق طيبا

وجاء ذلك في قول الله جل جلاله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

لكنه في مواطن أخرى يكون من أقبح السفه، وذلك حين يفعله من يفعله إعراضًا عما ينفعه ويرفعه، حيث يجد من داخله انهزامًا في مواجهة الحق ورده، فيعرض عنه عجزًا عن مقاومته، وهو بذلك ينزل بنفسه إلى أحط مستويات الدونية، ويلقي بها في أسفل دركات الردية، ويخبر الله عز وجل عن فاعليه بقولهم: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء: ٥ - ٦].

فإن الإعراض عما يأتيهم من رحمته سبحانه وتعالى مما يكون به محض منفعتهم شنيع قبيح؛ فما يأتيهم من المواعظ القرآنية تذكرهم أكمل تذكير، وتنبههم عن الغفلة أتم تنبيه، فإن الله سبحانه وتعالى بمقتضى رأفته الواسعة يجدد لهم تنزيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فيجددوا إعراضًا عنه على وجه التكذيب والاستهزاء وإصرارًا

(١) مجاني الأدب في حدائق العرب، شيخو، ٢/ ١٠١.

على ما كانوا عليه من الكفر والضلال[1].

الجدال بالباطل: يعلم أعداء الله أن النبي صلى الله عليه وسلم صادق، وكل خبر يأتي به فإنه حتمًا واقع، لكن عنادهم طغى عليهم، فأرادوا أن يبطلوا ما جاءهم به بباطلهم، لكنهم لا يملكون الحجة على رده، فاستهزءوا به على سبيل الجدل، يقول سبحانه وتعالى في شأنهم: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ [الكهف: ٥٦].

كان الذين جاء وصفهم في هذه الآية يريدون أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بالآيات على أهوائهم؛ ليبطلوا ما جاء به صلى الله عليه وسلم، وكان من جدالهم استهزاؤهم بالبعث، وبشجرة الزقوم، وبتحريم الميتة، وكذا بعدد خزنة جهنم[2].

إنكار الفائدة من نزول القرآن: كان المنافقون إذا نزلت سورة من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم لا ينتفعون بها؛ لأن مادة الخبث كلما زاد الخبث كانت أكثر نقصًا، أما مادة الخير كلما زاد الخير كانت أعظم زيادة وأوفر بركة؛ لذلك يقول الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

فهم لفساد طبعهم وسوء مادتهم لا يجدون ما يجده المؤمنون من انتفاع تظهر آثاره عليهم، فيستهزئون بهم بالتساؤل عن زيادة الإيمان التي يعلنها المؤمنون ولم يجدوها، فبين القرآن أن هذا الاستهزاء من الرجس والخبث الذي ازداد به رجسهم فازدادوا نقصًا، وأعقبهم كفرًا حتى ماتوا على الكفر[3].

الخوض: قد عد الله عز وجل عدم توقير الله جل جلاله عند قراءة كلامه كفر، وجعل الخوض فيها استهزاءً، فأمر المؤمنين بعدم مجالسة الفاعلين لهذا الأمر، ونهى عن القعود معهم، والذي لا يدفعه فعلهم هذا لمفارقتهم حاله مثل حالهم.

يقول المولى جل جلاله: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ٢٣٤.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٩٣.
(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٧١٨.

ثانيًا: الاستهزاء بالبراهين والحجج:

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه نموذجًا للمستهزئين، وهم الذين كانوا يستهزئون بالأدلة والبراهين القاطعة على صدق المرسلين، وقد مكن الله لهم في الأرض، وآتاهم أدوات الفهم والإدراك وأراهم الآيات ولكنهم اتخذوها هزوًا ولعبًا، يقول الله عز وجل مبينًا خبرهم: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦][1].

وأخبر عن الذين يفعلون مثل فعلهم، ويتخذون رسل الله عليهم السلام الذين هم حجة الله على خلقه[2] استهزاءً وسخريةً، يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٦].

فبين أن مصيرهم المحتوم ومآلهم المشؤوم جهنم، وبئس المستقر الدائم جزاءً لهم على استهزائهم.

ثالثًا: الاستهزاء بالوعيد:

تجرأ أعداء أنفسهم لما اغتروا به من سعة حلم الله وإمهاله لهم، وظنوا أن بمقدورهم إعلان التحدي، وحسبوا أن الله يعجل بعجلة أحدهم، فتساءلوا لقد اقترفنا ما نستحق به حلول الوعيد الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأين هذا العذاب؟! وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [هود: ٨].

ويذكر الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم أن ما وقع من قومه من ذلك وقع مثله من الأمم السابقة، يقول جل جلاله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١].

وقد أحاط بهم ووقع ما كانوا يجعلونه محط سخريتهم واستهزائهم من العذاب الذي كانوا يستعجلون وقوعه[3].

رابعًا: الاستهزاء بالأحكام الشرعية:

بين الله سبحانه وتعالى في كتابه حدود العلاقات بين الناس في القرآن الكريم، ورتب عليها أحكامًا؛ لمنع الخصومات وسدًا لباب الفساد، وذكر الله جل جلاله أن التلاعب بهذه الأحكام هو من الاستهزاء بآياته، خاصة إذا كان هذا في أمر وصف

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا، ١٢/ ٢٤.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٣/ ٤٦٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ١٣١.

الله ميثاقه بأنه غليظ، وقد ترتكب بسبب التلاعب به الفواحش، واستحلال ما حرم الله عز وجل، والمقصود هنا النكاح والطلاق، وما يتعلق بهما من أحكام، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وإن إنزال مثل هذه الأحكام في كتاب الله لهو من نعم الله عز وجل علينا والتي توجب علينا شكرها والقيام بحقها، لا أن يكون تعاملنا معها على سبيل الاستخفاف والتلاعب والاستهزاء[(١)].

خامسًا: الاستهزاء بالعبادات:

كان المشركون والكفار المخالفون للمسلمين -ولا زالوا- يقدحون في دين المسلمين، ويتخذونه هزوًا ولعبًا، خصوصًا الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين، وأجل عباداتهم، فإنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزوًا ولعبًا، وذلك لعدم عقلهم ولجهلهم العظيم، وإلا فلو كان لهم عقول لخضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس، ولقد علمتم -أيها المؤمنون- حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم، واستهزاءهم به، فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء.

فكيف تدعي لنفسك دينًا قيمًا، وأنه الدين الحق وما سواه باطل، وترضى بموالاة من اتخذه هزوًا ولعبًا، وسخر به وبأهله، من أهل الجهل والحمق؟! وهذا فيه من التهييج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم، وفيه يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٧ - ٥٨].

وكانوا يهزأون بالأذان، والقيام والركوع والسجود في الصلاة[(٢)].

---

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا، ٢/ ٣١٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٧.

أسباب الاستهزاء

الاستهزاء الذي لا يكون له هدف سامٍ نبيل، ولا مسوغ لاستعماله، ولا هو من قبيل مكافأة المسيء من جنس إساءته، لاشك أنه عبثٌ وسفه وجهل وحمق، ولا يصدر إلا عن ناقص بوجه من الوجوه، هذا إن كان الاستهزاء في أمر غير ذي بال، فكيف إذا كان الاستهزاء بأقدس ما أظلت السماء وأقلت الغبراء، أو بمن يحمله، إنه لمن المسلم به أن يكون فاعله يتصف بأقبح النعوت، ويتلبس بأخس الأحوال، وأن السبب الحامل لهم على ذلك هو وجود هذه الصفات فيهم، ولم يغفل القرآن بيان تجليتهم وإظهار حالهم، تسليةً للمؤمنين، وتوبيخًا للفاعلين، وقد وصف القرآن المستهزئين تارةً بالكفر، وذكر الفعل في معرض النفاق أخرى، أو أن منبعه الجهل ثالثة، وقد يكون الحامل عليه الكبر أخرى.

أولًا: الكفر:

عرفنا ما هي الحال التي يكون عليها الجاحدون من الاستهزاء والجدال بالباطل، وذلك عند عجزهم عن دحض الحق الذي ليس من شأنه أن يدحض، وما حملهم على هذا الفعل إلا الكفر الذي هم به متمسكون، والإنكار الذي هم به متشبثون، يقول الله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن دحض الحق بالباطل لا يكون أبدًا، ولو عقل هؤلاء لخضعوا وأذعنوا للحق الذي جعله الله دامغًا للباطل، يقول تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وبه تكون حجتهم داحضةً، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

وأن الحق هو الباقي فقال أيضًا: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨ - ٩].

«وكل شيء ثابت غير زائل ولا مضمحل تسميه العرب حقًّا»[1]، وكما هو معلوم أنه «ليس بعد الكفر ذنب»[2]، وهم بكفرهم هذا متلبسون بأعظم الظلم؛ لذلك أعقب الله جل جلاله ذكرهم فاعلين للاستهزاء بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٣٠٧.
(٢) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٣٩٤.

عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٥٧].

فإنه لا يوجد أحد أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها، واستهزأ بها وصد عنها، وهذا ذنبهم وهذا وصفهم الذي يستحقون(١).

ثانيًا: النفاق:

يفرح المنافقون بما انخدعوا به من إمهال الله عز وجل لهم، ومعاملتهم على وفق ما يريدون من معاملة في الدنيا، ظانين بذلك أنهم تمكنوا من خديعة المؤمنين، فيجرؤهم ذلك على التمادي في طغيانهم، فيصل بهم الأمر إلى الاستهزاء بالدين، والإعلان أنهم هم المصلحون على سبيل حصر أحوالهم وأفعالهم على الإصلاح، وأن ما عليه المؤمنون هو السفه، وما هم عليه هو الرشد، وذلك بمصانعة أعداء الله عز وجل وإثبات الولاء لهم، وإظهار شعائر الإيمان بين المؤمنين، وإعلان ما كتموه من الاستهزاء بالمؤمنين بين الكافرين.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة:٩-١٤].

وما علم هؤلاء أن ترك عقابهم هو جزاء من جنس العمل، كما يقول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٥].

وهم لضعف نفوسهم تجدهم يترقبون نزول القرآن خشية أن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ما يفضحهم، يقول تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:٦٤].

وهذا أمر كائن لا محالة، فإنه وإن لم ينزل بكشف أسمائهم، إلا أنه نزل ببيان ما يعرفون به من أحوالهم.

قال الله: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد:٣٠].

والفائدة في كشف حقيقتهم، وبيان سلوكهم، وما يعرفون به أعظم من ذكر أسمائهم؛ لأنهم قوم يتكررون في كل زمان،

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٣٠٧.

فيصير الحال أن كل من ظهرت منه هذه الصفات علم نفاقه، ولحن القول: هو فلتات لسانه التي تكشف أحوالهم، وقديمًا قالوا: كاد المريب أن يقول: خذوني، وقد جاء من وصفهم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (آية المنافق ثلاثٌ: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)[1].

ثالثًا: الكبر:

لا يسلم المتكبر من خصلة الاستهزاء أبدًا، فالكبر مرض، والاستهزاء عرض لازم، كما أن المزكوم الزكمة به مرض، والرشح لها عرض، وقد بين الله سبحانه وتعالى هذا الحال للمستهزئ، وأن استهزاءه هذا إنما هو عرض لداء مهلك موبق، ألا وهو الكبر الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه من موانع دخول الجنة، وذلك في الحديث الذي رواه عنه عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، أنه قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبرٍ)[2].

وهذا حاله كغيره من أهل النار لا يجتهد إلا في هلكة نفسه، والله سبحانه وتعالى حين أمره بطاعته لم يأمره إلا وهو غني عنه، وكذلك حين اختار هو معصية الله عز وجل لم يفعلها مع عجز الله عن منعه من معاقرتها، بل ليزداد كفرًا وطغيانًا، فيزداد في العذاب والنار بعدًا وامتهانًا.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦ - ٧].

وهذا الأحمق المتكبر ما الذي استبدله بالقرآن؟ إنه السفه والعته والعمه والضلال المبين، استبدله بالغناء.

قال ذلك ابن مسعود وابن عباس ومجاهد رضي الله عنهم، فقد أقسم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن لهو الحديث هو الغناء، والمتأمل لحال كثير من الناس إن لم يكن أكثرهم يقبلون على سماع الغناء وتأمله وتدبره والتفكر في معانيه، وإذا ما عرض على أسماعهم القرآن تجده أثقل شيء على أسماعهم، وهو قوله تعالى: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، أي: ثقلًا لا يطيق تحمله وسماعه[3].

ولا يحدث لهم هذا إلا لأنهم يرون أن ما يأتي به القرآن دون مستوى تطلعاتهم، وسيحول دون تحقيق مشروعاتهم،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، ١/ ١٦، رقم ٣٣.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الكبر وبيانه، ١/ ٩٣، رقم ٩١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ١٣١.

وسيحرمهم من خيرات أوليائهم، فيستصغرونه وأهله، ويتكبرون في أنفسهم.

رابعًا: الجهل:

يبقى الإنسان على أصله الذي خلقه الله سبحانه وتعالى عليه ما لم يرد الله عز وجل أن يكرمه بالعلم والهدى، وأعني بالأصل هنا: الجهل والضلال.

يقول الله جل جلاله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وإن جهله بحقيقة نفسه يجعله يهزأ بما لا علم له به أيضًا، فلا عجب من أن يظن بنو إسرائيل الذين شاقوا الأنبياء منهم أن نبي الله موسى عليه السلام يهزأ بهم حين أخبرهم بما أمرهم الله به من ذبح البقرة؛ لأن الاستهزاء عادتهم وديدنهم، فعرض بهم بقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين فيكم أمثالهم، فهم الذين يقع منهم الاستهزاء وخاصة في مثل هذه المواطن، ذلك أنه نبي ويعلم أن الاستهزاء على الشاكلة التي اتهموه بها لا يفعله إلا جاهل، وهذا ما ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

وفعل المستهزئين -أيضًا- بكونهم يشترون حديث الباطل واللهو، فإنه إن دل على شيء دل على أنهم ليس عندهم علم يفرقون به بين النافع والضار، والفاسد والصالح.

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

فيقبلون على ما يكون به هلاكهم، ويعرضون عما فيه خيرهم وصلاحهم، ولا يكون منهم هذا إلا لأنهم أهل جهل بلا علم، فهم أهل جهل حين يتفكهون بالاستهزاء بالخير وأهله، وأهل جهل حين ينفقون ويدفعون ثمنًا يشترون به الغرر والضرر، ويضيعون ما استخلفهم الله فيه شذر مذر، عابثين لاهين هازئين لاعبين[1]، وهم يسيرون في طريق يوصلهم إما إلى دار السلام أو إلى دار الجحيم.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٤٧.

علاج الاستهزاء

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن شفاءً للناس وهدى ورحمة، يقول تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد تبين لنا مما سبق أن الاستهزاء عرض وليس مرضًا، والعرض علاجه أسهل وأهون من علاج المرض، فبالإمكان تخفيض درجة حرارة المريض مع بقاء المرض حتى يبدو كأنه صحيح، أما الشفاء منه بالمطلق فإنه لا يتم حتى يزول سبب الداء وتستأصل شأفته، والأمراض التي يظهر معها هذا العرض هي أسبابه التي سبق أن بيناها، أما إذا لم نتمكن من استئصالها فيمكننا أن نخفف من أعراضها، والاستهزاء له علاجات يمكن أن يزول باستعمالها مع المستهزئين، فهم قوم مرضى النفوس، أغواهم الشيطان بتزيين الباطل لهم، وأغراهم بأن هذه الأفعال تجعل منهم أعلامًا ونجومًا، وتجمع الناس حولهم؛ لأنهم يجهلون حقيقة أنفسهم؛ لهذا فهم يجهلون السبب الذي جراهم على فعل الاستهزاء، وإنهم لينزعجون من وصفهم بالجهل، ويصرعون بكشف حقيقتهم وفضح أسرارهم، ويفزعون إذا نفر الناس من حولهم، لذلك جاءت علاجاتهم مكافئة لهم بما يكرهون، ووضعهم في المكان الذي يستحقون، وقد أرشدنا القرآن إلى طرق إزالة هذا العرض إن استحكم بأصحابه أصل المرض، على ما سيأتي بيانه.

أولًا: معالجة أسباب الاستهزاء:

وهذا الأمر هو ما تم تناوله سابقًا، فقد جاء بيان أسباب الاستهزاء بيانًا شافيًا، فحين يعرف المستهزئ السبب الذي أوقعه في هذا الأمر فإنه -إن كان عاقلًا- سرعان ما يقلع عنه، ويتوب منه، ويعتذر عما بدر منه، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

ولا يقنطهم الله جل جلاله من توبته عليهم، بل يفتح لهم باب الرجاء للعودة عما قارفته أيديهم بقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ وأبقاهم على وجل من الإصرار عليه، أو العودة لمثله بقوله: ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، لما علم من فيهم خير أن هذا العمل من أعمال الكفر تركوه واعتذروا منه تائبين توبة صادقة، أما الآخرون فقد كفوا عنه، ولكن لسبب آخر، سيكون الحديث عنه فيما يأتي.

ثانيًا: فضح المستهزئين:

يقول الله جل جلاله: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٤].

هذا أشد ما يحذروه؛ لأجل ذلك كان فضحهم بسوء أعمالهم هو أشد رادع لهم عن مقارفة استهزائهم، وذلك لقلة عقلهم، وشدة غفلتهم، فلو كانوا يعقلون لعلموا أن العذاب المدخر لهم بسبب ما يؤذون به المؤمنين أحرى بأن يكون لهم رادعًا عن الاستهزاء بأولياء الله عز وجل، ومع ما يدخره الله لهم من العذاب المهين، إلا أنه يفضحهم ويطلع المؤمنين على سرائرهم[1]، في سورة جعل أحد أسمائها الفاضحة[2]، ويجلي صفاتهم كما سبق وبينا.

يقول الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٩ - ٣٠].

فاللسان ترجمان القلب، ويفصح عما أخفاه، خاصة مع الحذر والخوف من انكشاف ما تكون به الفضيحة، وأخبرهم الله سبحانه وتعالى أنهم يفضحون أنفسهم باستهزائهم، فكان في هذا الخبر كفٌّ لاستهزائهم حذرًا من أن يفضحوا أنفسهم، فربما اطمأنوا لانقطاع الوحي بعدم نزول سورة كالتي نزلت فيها فضيحتهم، لكنهم بعد هذا الخبر لن ينعموا بالاطمئنان؛ حذرًا من خيانة ألسنتهم لهم.

ثالثًا: مقاطعة مجالس المستهزئين:

إن الهجر علاج أكيد لكثير من العادات السيئة، والأخلاق الذميمة، وقد شرعه الله جل جلاله في ديننا، ليتحقق به ردع المستهينين بحرمات الله عز وجل وأعراض المسلمين، والمستهزئين بالدين، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

وقد بين الله جل جلاله فيما أنزل من القرآن حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي التي يستهزأ فيها، ويستهان بآيات الله جل جلاله، وأحكام دينه، وذلك أن الواجب على كل مكلف الإيمان بآيات الله وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، فضد الإيمان الكفر بها، وضد

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠/ ٢٤٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٤٢.

تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم[1].

وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله؛ لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقًا، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده، ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم حتى يخوضوا في حديث غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، وإن قعد أحد معهم في الحال المذكورة فهو مثلهم؛ لأنه رضي بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها.

وقد جاء في حديث في سنده ضعف إلا أنه صحيح المعنى عن الحسين بن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: **(من شهد أمرًا فكرهه كان كمن غاب عنه، ومن غاب عن أمرٍ فرضي به كان كمن شهده)**[2].

والحاصل أن من حضر مجلسًا يعصى الله فيه، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة، أو القيام مع عدمها، وإن لم يفعلوا فإن الله سبحانه وتعالى سيجمعهم في نار جهنم يوم القيامة كما اجتمعوا على الكفر والموالاة في الدنيا، ولا ينفعهم مجرد كونهم في الظاهر مع المؤمنين[3].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٥٧٨.
(٢) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده، ١٢/ ١٥٤، رقم ٦٧٨٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢١٠.

عاقبة المستهزئين

من علم أن الحياة مغنم ومغرم، ما كان ينبغي في حقه أن يسخر منها، بل كان لابد له من اغتنام كل لحظة تمر به؛ ليحيى حياة الكرماء أهل الجد والعزم، وكان لزامًا عليه ألا يدع خبرًا ذا شأن إلا وقف معه، وتأمله، ونظر في الأدلة القائمة على ثبوته، فإن بلغت مرتبة الإقناع كان عليه أن يسير وفق ما تستقيم به حياته مع هذا الأمر، وإن لم يجدها قائمةً على وفق العقل السليم والفهم القويم، تركها وأعرض عنها، وليس ثمة داعٍ لأن يستهزئ بها فإن ذلك مضيعة للوقت وانشغال بالملهيات عن المهمات.

فكيف بمن جاءه الخبر عن أمر خطير بأدلته المقنعة الدامغة، فلم يكلف نفسه أن يتأمله أو يتدبره، بل واتخذه هزوًا، أليس حقيقًا بأن يذوق وبال أمره، وعاقبة خسره.

فكيف بالأمر وقد وصفه الله سبحانه وتعالى أنه عظيم.

يقول الله جل جلاله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧ - ٦٨].

ولم يكن إعراضهم إعراض ترك فحسب، بل ركبوا عليه الاستهزاء كما أسلفنا.

وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء: ٥-٦].

فماذا أخبر الله عز وجل عن العاقبة التي جعلها لهؤلاء؟ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا السُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: ١٠].

والعاقبة هنا قد تعجل لهم في الدنيا مع بقية منها تسوؤهم أكثر في الآخرة، وقد يؤجلها الله لهم إلى يوم القيامة[1].

أولًا: عاقبة المستهزئين في الدنيا:

١ . نعتهم بأقبح الصفات.

إن من أشد ما يسوء الإنسان أن يوصف بالكفر بأمر تثبته الشواهد والآيات، وتقطع به البراهين، ويسلم له العقلاء، أو بالنفاق لإصراره على إبطان ما يعاب به من السوء، وكان أمرًا ينأى أهل الكمال بأنفسهم عنه، أو بالجهل بأمر هو من المسلمات، بما قام عليه من الدلائل والآيات، فكان من المعلومات بالضرورة لكل الكائنات حتى البهائم والحيوانات، والأحياء والجمادات، والمستهزئون بآيات الله ورسله، كانوا مستحقين لأن يدمغوا بتلك الوصمات، وأن يختم عليهم بتلك السمات، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا

(١) انظر: تفسير المراغي، ٢١/ ٣٢.

نقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ [النساء: ١٤٠].

فقد جعلهم بين أن يكونوا منافقين أو كافرين باستهزائهم بآيات الله تبارك وتعالى[1]، وما أشينها من صفات، وما أبشعها من أخلاق؛ الكفر والنفاق، لكنهم بها جديرون وأهل استحقاق، وقد حكم نبي الله موسى عليه السلام على المستهزئين بأنهم جاهلون، وذلك حين ظنوا أنه يستهزئ بهم، فبين لهم أنه أمر لا يفعله إلا الجاهلون.

يقول الله عز وجل: ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ [البقرة: ٦٧]

٢. كثرة الوساوس والظنون، والحذر من فضحهم.

حين يظهر هؤلاء المستهزئون للمؤمنين الموافقة، إنهم يعلمون أنهم خاطئون بكتمان المخالفة، ولما رأوا ما في القرآن من إظهار الحقائق وصدق الأخبار، كانوا دائمًا على وجل وخوف من أن يهتك الله أستارهم، وقد كان القرآن ينزل بأخبارهم، فحين يقرع مسامعهم إخبارهم بما فعلوه فيما بينهم، يتساءلون كما أخبر الله عنهم بقوله جل جلاله: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ [التوبة: ١٢٧].

فحالهم كما بينها الله عز وجل: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ [المنافقون: ٤].

يحسب هؤلاء المنافقون من خبثهم وسوء ظنهم، وقلة يقينهم كل صيحة عليهم؛ لأنهم على وجل أن ينزل الله فيهم أمرًا يهتك به أستارهم ويفضحهم، ويبيح للمؤمنين قتلهم[2]، فحياتهم حياة قلق دائم، واضطراب مستمر.

٣. استئصالهم وقطع دابرهم.

وقد ذكر الله صنيعه هذا بهم في كثير من الأمم السابقة، حين كانوا يستهزئون برسلهم وأنبيائهم.

يقول تعالى: ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ [الرعد: ٣٢].

يذكر الله سبحانه وتعالى هذا الأمر تسليةً للنبي صلى الله عليه وسلم ببيان سنته مع من كانوا يستهزئون برسلهم من الأمم السابقة، وأن الله لم يعاجلهم بالعقوبة بل أمهلهم؛ ليؤمن منهم من سبق في علم الله إيمانه، ويستحق العقاب من أصر على

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٤١٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٣٩٥.

عصيانه[1]، وكذلك حال المستهزئين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الأمر ليس في الأمم الماضية فحسب؛ بل هو في الأمم اللاحقة أيضًا، فهو سنة ماضية باقية لا تتخلف، يقول الله عز وجل ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٥].

وقد جعل الله جل جلاله الحرف الدال على الاستقبال هنا بقوله: (سوف)، وفي موضع آخر جعله بـ(السين)؛ ليدل في هذا الموضع على بعد الزمان، أي: إنه مهما طال الزمان فإن سنة الله ماضية مع قانون العقوبات الرباني، فكلما حدث استهزاء أحدث الله له ما يتناسب معه من عقاب[2]، ونحن نرى اليوم من أساليب الاستهزاء ما يعتصر منه القلب ألمًا، ويتذوب منه كمدًا؛ لكونه يحدث من أبناء المسلمين، ولعل من أسباب حدوث هذا الأمر، اختلال الموازين ليس عندهم فحسب! بل وعند كثير ممن تلبسوا بثوب الدين، وهم على غير طريقة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، من الدعوة إلى التوحيد والصراط المستقيم، فصارت أولوياتهم ومعاييرهم سياسية أو قومية أو عصبية طائفية لشيخ أو طريقة أو عقيدة منحرفة، أو غير ذلك من ألوان الانحراف، وليس ذلك أننا نقلل من أمرها، لكنها أولًا عن آخر لابد وأن تكون تبعًا للتوحيد وأساسها العقيدة الصحيحة، وليس المعنى أن سبب الاستهزاء محصور في هذا السبب، لكنه شرك وقد نصب للمتحمسين من أبناء المسلمين؛ ليقعوا فريسةً لأهل الاستهزاء، من الكفرة والملحدين.

ثانيًا: عاقبة المستهزئين في الآخرة:

الحال في يوم القيامة أن الناس بين مثاب بخير الجزاء، ومأواه دار الكرامة والنعيم المقيم، ومعاقب بشر الجزاء، ومأواه دار المهانة والخزي والجحيم، فالذين عرفوا الحق بأماراته، وآمنوا بالله وآياته.

ومن جملة ما آمنوا به اليوم الآخر هم المثابون المكرمون، أما الذين اتخذوا ما جاءهم به المرسلون سخريةً واستهزاءً، ومن جملته الإيمان باليوم الآخر، هم المعذبون المهانون.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/ ٣٢٢.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا، ٧/ ٢٥٤.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٢ - ٣٧].

يخبر الله عز وجل عنهم أنهم كانوا إذا دعوا إلى التصديق بوعد الله سبحانه وتعالى وأنه-وحده- المستحق التوحيد والعبادة، وإلى الإيمان باليوم الآخر، أظهروا التجاهل والشك فيما جاءهم به النبي صلى الله عليه وسلم، واستهزأوا بهذه الأخبار.

فيخبر الله سبحانه وتعالى أنهم سيعاينون ما تجاهلوه، وسيبدو لهم عاقبة استهزائهم بأمر واقع بهم لا محالة، وحينها يدخلون أشد العذاب، ويتركون كما تركوا[1] اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وتصديق أخباره، واستهزأوا به وبما جاءهم به من ذكر هذا اليوم، وبما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا الزائل المخادع، فلا خروج لهم منه، ولا فرصة تمنح لهم؛ ليعتذروا عن أفعالهم القبيحة.

وغاية ما يخاطبون به توبيخهم وتقريعهم وتبكيتهم بتذكيرهم بما قارفوه من الفرح والاستهزاء، واغترارهم وفرحهم بما اعتقدوه من قدرتهم على الدنيا وتمكنهم منها، وأنها باقية لهم.

والله أكبر من أن يعجزه إيصال العقاب لمستحقيه، والله أكبر من كل ظن سيء فيه، والله أكبر وله الحمد في ربوبيته للكون وما فيه، والله أكبر بحلمه مع علمه بما يظن الخاطئون فيه، الله أكبر مع عزته وحكمته في إمهال الغاوين، والمستهزئين بآياته وأوليائه وأنبيائه ومرسليه.

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا، ٧/ ٢٥٤.

موضوعات ذات صلة:

الأذى، اللعب، اللهو





عناصر الموضوع



مفهوم الاسراف

أولًا: المعنى اللغوي:

إن المتتبع للمعاجم اللغوية يجد أن مادة (س ر ف) تدور في اللغة على معانٍ متعددة، تقارب السبعة معانٍ مذمومة، منها: تجاوز الحد والقصد، ووضع الشيء في غير موضوعه، والخطأ، والولوع بالشيء والجهل، والغفلة، والقلة، والإفساد.

السرف والإسراف مجاوزة القصد، أسرف في ماله عجل من غير قصد، والسرف: الخطأ، وأخطأ الشيء وضعه في غير حقه، والإسراف الإكثار من الذنوب، ورجل سرف العقل: أي قليله، وقيل: فاسده والمسرف الكافر، وسرف الماء ما ذهب منه في غير سقيٍ ولا نفعٍ، والسرف: الإغفال، وسرف القوم جاوزهم، والسرف الجاهل، وأسرف الرجل إذا جاز الحد، وأسرف إذا أخطأ أو غفل أو جهل[1].

وقال ابن فارس: «السين والراء والفاء أصل واحد يدل على تعدي الحد، والإغفال أيضًا للشيء، تقول: في الأمر سرف، أي: مجاوزة القدر»[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «السرف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان»[3].

وعرفه الطاهر ابن عاشور بقوله: «الإسراف: الإفراط والإكثار في شيءٍ غير محمودٍ»[4].

وعرفه الجرجاني فقال: «الإسراف هو إنفاق المال الكثير في الغرض الخسيس»[5].

أما الإمام الطبري فقد عرفه بقوله: «أصل الإسراف تجاوز الحد المباح إلى ما لم يبح، وربما كان ذلك في الإفراط وربما كان في التقصير»[6].

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٤/ ١٣٤٢، لسان العرب، ابن منظور، ٩/ ١٤٨، المصباح المنير، الفيومي، ١/ ٢٧٤، تاج العروس، الزبيدي، ٢٤/ ٤٣٣.

(٢) مقاييس اللغة، ٣/ ١٥٣.

(٣) المفردات، ص٤٠٧.

(٤) التحرير والتنوير، ١١/ ١١٢.

(٥) التعريفات، ص٢٤.

(٦) جامع البيان، ٧/ ٥٧٩.



الإسراف في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سرف) في القرآن (٢٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]
الفعل المضارع	٤	﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧]
المصدر	٢	﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء: ٦]
اسم الفاعل	١٥	﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]

وجاء الإسراف في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: تجاوز الحد في سائر الأفعال[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧]. يعني: لم يجاوزوا الحد في الإنفاق بالإنفاق في الحرام أو في ما لا ينبغي.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٤٩،٣٥٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب السين ص ٦٢٤.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ١٩٣-١٩٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ١٠٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٣٦٣-٣٦٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ التبذير:

التبذير لغة:

بذر: أي أفسد وأنفق في السرف، وكل ما فرقته وأفسدته، فقد بذرته، والتبذير: إفساد المال وإنفاقه في السرف[١].

التبذير اصطلاحًا:

حكى الإمام القرطبي عن الإمام الشافعي بأن التبذير هو: «إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير».

قال القرطبي تعليقًا على قول الإمام الشافعي: «وهذا قول الجمهور»، وحكى القرطبي أيضًا عن أشهب، عن الإمام مالكٍ: «أن التبذير هو أخذ المال من حقه، ووضعه في غير حقه»[٢].

الصلة بين الإسراف والتبذير:

أن التبذير أخص من الإسراف؛ لأن التبذير يستعمل في إنفاق المال في المعاصي أو في غير حق، وأما الإسراف فهو أعم من ذلك؛ لأنه مجاوزة الحد، سواء أكان في أمر محمود أو مذموم، ولا يختص بالأموال، فهو في الأموال وغيرها، وقد فرق ابن عابدين بين الإسراف والتبذير من جهة أخرى، فقال: «التبذير يستعمل في المشهور بمعنى الإسراف، والتحقيق أن بينهما فرقًا، وهو أن الإسراف: صرف الشيء فيما ينبغي زائدًا على ما ينبغي، والتبذير: صرف الشيء فيما لا ينبغي»[٣].

٢ السفه:

السفه لغة:

أصله الخفة والحركة، فقد ذكر أهل اللغة أن الأصل في السفه هو خفة في البدن ثم استعمل في خفة النفس لنقصان العقل[٤]، ويكون السفه في أمور الدين والدنيا.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٥٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٢٤٧.
(٣) انظر: حاشية رد المحتار، ٦/ ٧٥٩.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٢٣، تاج العروس، الزبيدي، ٣٦/ ٣٩٧.

السفه اصطلاحًا:

هو عبارة عن التصرف في المال بخلاف مقتضى الشرع والعقل بالتبذير فيه والإسراف- مع قيام خفة العقل، والسفيه: هو من ينفق ماله فيما لا ينبغي من وجوه التبذير، ولا يمكنه إصلاحه بالتمييز والتصرف فيه بالتدبير[1].

الصلة بين الإسراف والسفه:

هناك فرق بينهما، فالإسراف في النفقة سببه هو السفه والخفة الموجودة عند الشخص، فالسفه سبب للإسراف.

٣ التقتير:

التقتير لغة:

قَتَرَ فلان: ضاق عيشه، وضيق على عياله في النفقة[2].

التقتير اصطلاحًا:

عرفه المناوي بقوله: هو «تقليل النفقة، ويقابله الإسراف، وهما مذمومان»[3].

الصلة بين الإسراف والتقتير:

هما ضدان، ومذمومان.

٤ القصد:

القصد لغة:

استقامة الطريق، والقصد في المعيشة: أن لا يسرف ولا يقتر، وقصد في الأمر لم: يتجاوز فيه الحد، ورضي بالتوسط، يقال: فلانٌ مقتصدٌ في المعيشة وفي النفقة، وقد اقتصد[4].

القصد اصطلاحًا:

«استقامة الطريق، ومنه الاقتصاد وهو فيما له طرفان: إفراط وتفريط»[5].

الصلة بين الإسراف والقصد:

الإسراف: مجاوزة الحد في الشيء، والقصد: الاعتدال، فهو ترك الإسراف والتقتير جميعًا؛ وذلك أن نقيض الاقتصاد الإسراف، فالقصد فيما له طرفان إفراط وتفريط محمود على الإطلاق[6].

---

(١) انظر: الكليات، الكفوي، ص ٣٤٩، النظم المستعذب على المهذب، ابن بطال الركبي، ١/ ٣٣٨.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٧١٤.
(٣) التوقيف، ١/ ١٠٥.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٩/ ٣٥.
(٥) التوقيف، المناوي، ١/ ٢٧٢.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢١٢.

مجالات الإسراف

للإسراف مجالات تتناولها المطالب الآتية:

أولًا: الإسراف في الكفر والتكذيب:

لقد كثر في القرآن الكريم إطلاق المسرفين على الكفار في أكثر من موضع، وفي موضع واحد أطلق سبحانه على المسرف بأنه «كذاب»، وفي موضع آخر أطلق عليه اسم «مرتاب».

«وفُسِرَ المسرفون بالكافرين والكافر مسرفٌ؛ لتضييعه السعادة الأبدية بالشهوة الخسيسة المنقضية، كما يضيع المنفق ماله متجاوزًا فيه الحد ما كانوا يعملون من الإعراض عن جناب الله، وعن اتباع الشهوات»[1].

وهما قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

أي: مشرك مرتاب في وحدانية الله تعالى يجادل في آيات الله بغير علم متكبر جبار، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

أي: مسرف في عناده، كذاب في ادعائه، وهاتان الآيتان تتحدثان عن فرعون وجبروته وطغيانه[2].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢١.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٥٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٠٨.

وأما إطلاق الكفر على المسرف فلقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه أصنافًا شتى من المسرفين من الأمم الكافرة؛ ولذلك قال أهل العلم: سمي الكافر مسرفًا؛ لأنه أنفق ماله من الاستعداد الشريف من القوى البدنية والأموال النفيسة في الأمور الخسيسة الزائلة من الأصنام التي هي أحقر من لا شيء، ومن الشهوات الفانية التي لا أصل لها ولا دوام؛ فالأصل أن كل كافر مسرف؛ لأنه تجاوز حدود الله تعالى[3].

ولو تأملنا الآيات التي ذكر فيها وصف الكفر والكذب والارتياب على المسرفين نجدها تتحدث عن أصناف مختلفة من المسرفين من الكفار عمومًا، أو من أقوام معينة.

فالآيات التي وصف فيها الله تعالى فيها أهل الكفر عمومًا بالإسراف كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

فهذا إسراف في الكفر والطغيان والتكذيب بآيات الله تعالى، لقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه، وقال سفيان: أسرف هنا بمعنى: أشرك، فالإسراف هنا هو: الاعتقاد الضال وعدم الإيمان بالآيات ومكابرتها

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٢٢، غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٥٦٨، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٣١.

وتكذيبها، وأسرف بالانهماك في الشهوات والإعراض عن الآيات، وإنما سمي الكافر مسرفًا؛ لأنه أتلف نفسه وضيعها في عبادة الأصنام، وأتلف ماله وضيعه في البحائر والسوائب، وما كانوا ينفقون على الأصنام وخدامها[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

أي: مشرك شاك في التوحيد وصدق الرسل، واستمرار العناد في مواجهة الرسل، والكفر برسالاتهم.

فمن كان في مثل هذه الحال من الإسراف في الكفر والشرك، فإن الله يضله؛ ويزيده إسرافًا في المعاصي والاستكثار منها، وارتيابًا في دين الله، ووحدانيته ووعده ووعيده[2].

فهذه الآيات تبين أن الكافر والمشرك كلاهما مسرفٌ؛ لتجاوزهما حدود الله تعالى ، وكل من لم يؤمن بالله ويتبع رسله فهو مسرفٌ، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلى الله، وكذبوا رسوله.

فالذي وصفه السرف والكذب، لا ينفك عنهما، لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير؛ لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله، بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨][3].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

فالمجاوزون الحد في الكفر والمعصية زين لهم ما كانوا يعملون من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات، وإسرافهم لما أن الله تعالى إنما أعطاهم القوى والمشاعر؛ من أجل أن يصرفوها إلى مصارفها ويستعملوها فيما خلقت له من الأعمال الصالحة؛ فلما صرفوها إلى ما لا ينبغي وهي رأس مالهم فقد أتلفوها وأسرفوا إسرافًا ظاهرًا، والتزيين إما من جهة الله سبحانه على طريقه التخلية والخذلان

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٤٨، والسراج المنير، الشربيني ٢/ ٨ .

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٤٨ .

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٣٧.

أو من الشيطان بالوسوسة والتسويل، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الإعراض عن الذكر والدعاء والانهماك في الشهوات[1].

أحد النماذج التي ذكرها القرآن في الإسراف في الكفر والتكذيب:

كفار قريش:

وقد نص القرآن على إسرافهم في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥].

«أي: لأن كنتم منهمكين في الإسراف مصرين عليه، على معنى إن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة وتبقوا في العذاب الخالد، لكنا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك، بل نهديكم إلى الحق بإرسال الرسول الأمين وإنزال الكتاب، فالاستفهام في الآية إنكاري، أي: لا يجوز أن نضرب عنكم الذكر صفحًا من جراء إسرافكم، والذكر: التذكير، والمراد به القرآن. والصفح: الإعراض بصفح الوجه وهو جانبه وهو أشد الإعراض عن الكلام؛ لأنه يجمع ترك استماعه وترك النظر إلى المتكلم»، وعن قتادة قال: «والله لو أن هذا القرآن رفع حيث رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد عليهم بعائدته ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه».

والمقام دال على أنهم أسرفوا في الإعراض عن القرآن، وقرأ نافعٌ وحمزة والكسائي وأبو جعفرٍ وخلفٌ ﴿إن كُنتُمْ﴾ بكسر همزة إن فتكون «إن شرطيةً»، ولما كان الغالب في استعمال إن الشرطية أن تقع في الشرط الذي ليس متوقعًا وقوعه بخلاف (إذا) التي هي للشرط المتيقن وقوعه، فالإتيان بإن في قوله: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ لقصد تنزيل المخاطبين المعلوم إسرافهم منزلة من يشك في إسرافه؛ لأن توفر الأدلة على صدق القرآن من شأنه أن يزيل إسرافهم، وفي هذا ثقةٌ بحقية القرآن وضربٌ من التوبيخ على إمعانهم في الإعراض عنه، وقرأه ابن كثيرٍ وابن عامرٍ وعاصمٌ وأبو عمرٍو ويعقوب بفتح الهمزة على جعل إن مصدريةً وتقدير لام التعليل محذوفًا، أي: لأجل إسرافكم، أي: لا نترك تذكيركم بسبب كونكم مسرفين، بل لا نزال نعيد التذكير رحمةً بكم.

وإقحام ﴿قَوْمًا﴾ قبل ﴿مُّسْرِفِينَ﴾ للدلالة على أن هذا الإسراف صار طبعًا لهم، وبه قوام قوميتهم[2].

وتقرير هذه الحقيقة كفيل بأن يشعر القوم الذين جعل القرآن بلسانهم بقيمة الهبة الضخمة التي وهبها الله إياهم، وقيمة النعمة التي أنعم الله عليهم، ويكشف لهم

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٢٦.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٦٢-٦٣.

عن مدى الإسراف القبيح في إعراضهم عنها واستخفافهم بها، ومدى استحقاقهم هم للإهمال والإعراض ومن ثم يعرض بهم وبإسرافهم، ويهددهم بالترك والإهمال جزاء هذا الإسراف[1].

ثانيًا: الإسراف في الفواحش:

ومن النماذج الذين أسرفوا على أنفسهم بفعل الفاحشة:

قوم لوط عليه السلام:

إن قوم نبي الله لوط عليه السلام «كانوا مصابين بفساد العقل والنفس، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه على لسان رسوله لوط عليه السلام، هذا وقد وصفهم الله تعالى بالإسراف بطريق الجملة الاسمية الدالة على الثبات قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨١].

أي: أنتم قومٌ تمكن منهم الإسراف في الشهوات؛ فلذلك اشتهوا شهوةً غريبةً لما سئموا الشهوات المعتادة.

وهذه شنشنة الاسترسال في الشهوات حتى يصبح المرء لا يشفي شهوته شيءٌ، ونحوه قوله عنهم في آيةٍ أخرى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

ووجه تسمية هذا الفعل الشنيع فاحشةً وإسرافًا أنه يشتمل على مفاسد كثيرةٍ: منها استعمال الشهوة الحيوانية المغروزة في غير ما غرزت عليه؛ لأن الله خلق في الإنسان الشهوة الحيوانية لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل، حتى يكون الداعي إليه قهري ينساق إليه الإنسان بطبعه، فقضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي وضعها الله لأجله اعتداءٌ على الفطرة وعلى النوع[2].

وقال تعالى في وصفهم أيضًا: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

وفي آية أخرى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

وهذه الألفاظ من معاني الإسراف، ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل والنفس، بجمعهم بين الإسراف، والعدوان والجهل، فلا هم يعقلون ضرر هذه الفاحشة في الجناية على النسل وعلى الصحة وعلى الفضيلة والآداب العامة، ولا غيرها من منكراتهم فيجتنبونها ويجتنبون الإسراف فيها، ولا هم على شيء من الحياء وحسن الخلق يصرفهم عن ذلك»[3].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٧٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٣٢.

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٥٥.

ثم كانت نهاية القوم الذين أسرفوا في الكفر والكذب واتباع الشهوات المحرمة المخالفة للفطرة أن قال تعالى فيهم: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨].

أي: ثم أهلكنا القوم الذين انغمسوا في المنكرات، وكفروا بالله الذي خلقهم، ولم يؤمنوا برسله، وأنزلنا عليهم العذاب الذي عم جميعهم.

قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

وبين الله تعالى في مواضع أخر أنه مطر حجارةٍ أهلكهم الله بها، كقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

وأشار إلى أن السجيل الطين بقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣].

وبين أن هذا المطر مطر سوءٍ لا رحمةٍ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠].

فهذه العقوبة من الله تعالى لهؤلاء القوم الذين أسرفوا على أنفسهم بفعل الفاحشة؛ يبين خطورة هذه الفاحشة الشاذة التي قد أسرف فيها قوم لوط عليه السلام.

ثالثًا: الإسراف في الأموال:

١ . المسرفون في أموال اليتامى.

فالإسراف في أموال اليتامى من أقبح صور الإسراف؛ لأنها من خيانة الأمانة، التي أذن الله لهم في الأكل والأخذ منها.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ [النساء: ٦].

فالمسرفون في أموال اليتامى هم الذين يأكلون أموال اليتامى متجاوزين الحد الذي أحله الله لهم يقول الله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

وظاهر هذه الآية يدل على أنه تقسيمٌ لحال الوصي على اليتيم، فأمره تعالى بالاستعفاف عن ماله إن كان غنيًا، واقتناعه بما رزقه الله تعالى من الغنى، وأباح له الأكل بالمعروف من مال اليتيم إن كان فقيرًا، بحيث يأخذ قوتًا محتاطًا في تقديره.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾، أي: مسرفين ومبادرين كبرهم، أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون في إنفاقها، وتقولون: ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا. والجملة تأكيدٌ للأمر بالدفع وتقريرٌ لها، وتمهيدٌ لما بعدها من قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ فمن كان من الأولياء

والأوصياء غنيًا فليتنزه عن أكلها، وليقنع بما آتاه الله تعالى من الغنى والرزق إشفاقًا على اليتيم، وإبقاءً على ماله، ﴿وَمَن كَانَ﴾ من الأولياء والأوصياء ﴿فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر حاجته الضرورية، وأجرة سعيه وخدمته. وقد نص الفقهاء على أن من ولي مال اليتيم واستحق أجرًا، فله الأقل من أحد أمرين: إما نفقته في نفسه، وإما أجرته على عمله، أي: إن كان العمل يستحق أجرة ألف ريالٍ، ونفقته يكفي لها خمسمائةٍ أخذ نفقته فقط، وإن كان العمل يكفيه أجرة مائة ريالٍ، ونفقته خمسمائةٍ أخذ أجرته مائةً فقط؛ حفظًا لماله»[1].

فإذا أكل الغني و تجاوز الحد فهو مسرف في فعله هذا، إذا أكل الفقير بغير المعروف فقد تجاوز الحد فهو مسرف أيضًا .

ومما ينبغي التنبيه عليه أن الإسراف في الأمانات لا يختص بأموال اليتامى، بل من باب أولى أن يدخل فيه القائمون على أموال المسلمين؛ فإنهم بمثابة الأولياء على اليتامى في حفظ الأموال العامة، لكننا نجد اليوم أن أكثرهم مسرفون إلا من رحم الله.

وفي هذا التنبيه يقول العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله: «فإذا جرى لنا نحن المسلمين بعد هذه الوصايا، والحكم حتى صرنا أشد الأمم إسرافًا، وتبذيرًا، وإضاعةً للأموال، وجهلًا بطرق الاقتصاد فيها، وتثميرها، وإقامة مصالح الأمة بها في هذا الزمن الذي لم يسبق له نظيرٌ في أزمنة التاريخ من حيث توقف قيام مصالح الأمم، ومرافقها، وعظمة شأنها على المال، حتى إن الأمم الجاهلة بطرق الاقتصاد، التي ليس في أيديها مالٌ كثيرٌ قد صارت مستذلةً، ومستعبدةً للأمم الغنية بالبراعة في الكسب، والإحسان في الاقتصاد»[2].

٢ . المسرفون في النفقات.

الإسراف من أهم عوامل الفساد في الأرض، فبه يقع التبديد والتبذير للأموال في غير محلها، وفي غير حقها، وهو يعد من أحد صور عدم شكر نعمة الله تعالى على العباد، وأضف إلى ذلك ما يتسببه الإسراف من قسوة وفساد للقلب؛ فمن أجل ذلك قد نهى القرآن عن الإسراف، وقد ورد النهى في القرآن عن الإسراف عمومًا، وعن الإسراف في النفقة خصوصًا.

ومع أن الله تعالى قد أخرج الله لعباده الطيبات من الرزق وأباح لهم سبحانه أن يتمتعوا بها، وقد أنكر القرآن الكريم على من يحرم الانتفاع بالمباحات زهدًا وترفعًا، فهذا خطأ، فإن الطيبات من الرزق حلال للناس جميعًا في الدنيا، وخالصة خاصة للمؤمنين

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٢١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٤٠ .

(٢) انظر: المنار، ٨/ ٤٥٥.

يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين، ولكن أمرهم سبحانه وتعالى أن يأكلوا منها غير مسرفين، وبين سبحانه وتعالى أنه لا يحب المسرفين.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

ففي هذه الآيه قد وجه القرآن الكريم إلى قاعدة أساسية في الطب وتناول المباحات النافعة، وهي: الأكل والشرب من غير إسراف ولا تقتير.

قال ابن عباسٍ: «أحل الله في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا أو مخيلةً»[(١)]. فالإسراف مذموم لتجاوزه حدود الحاجة والاعتدال، والتقتير مذموم؛ لأنه بخل وشح، وكفى بالبخل داء، والمطلوب هو الاعتدال في المأكل والمشرب من غير تجاوز الحلال إلى الحرام، ولا الحاجة إلى التخمة، ولا التقصير في الإنفاق لأنه مضرة وبخل.

فعن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلةٍ ولا سرفٍ، فإن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عباده)**[(٢)].

وعن المقدام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيماتٌ يقمن صلبه، فإن كان لا بد فثلثٌ طعامٌ، وثلثٌ شرابٌ، وثلثٌ نفسٌ)**[(٣)].

«فالإسراف إذا اعتاده المرء حمله على التوسع في تحصيل المرغوبات، فيرتكب لذلك مذماتٍ كثيرةً، وينتقل من ملذةٍ إلى ملذةٍ فلا يقف عند حدٍ، وليس أضر على الإنسان والأمة من الإسراف، فإنه ضرر وخطر بل وحرام وبطر، كما أنه ليس من الحكمة والخير تحريم الزينة والطيبات من الرزق التي خلق الله موادها لعباده، وعلمهم كيفية الانتفاع بها، فهي مستحقة مخلوقة لعباد الله من المؤمنين وغيرهم عدلًا من الله وفضلًا ونعمةً»[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٤٧٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ١٨٢، رقم ٦٧٠٨، والحاكم في المستدرك، ٤/ ١٥٠، رقم ٧١٨٨.
قال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٤٢، رقم ١٧١٨٦، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، ٤/ ٥٩٠، رقم ٢٣٨٠.
قال الترمذي: «حسن صحيح».
وصححه الشيخ الألباني. في الإرواء، رقم ١٩٨٣.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٢٣.

رابعًا: الإسراف في السلوك:

١. نموذج ممن أسرفوا بالعلو والتكبر.

فرعون وملؤه:

فهذا النوع الأول من المسرفين وهو أشد المسرفين قبحًا وتجبرًا؛ حيث قد تجاوز كل الحدود فقد تجبر وادعى الإلهية وأمر الناس بعبادته، واستخف بعقولهم فأطاعوه؛ فأسرف في الكفر والعلو والكبر، وطغى وتجبر وتكبر، وهذا قد صور لنا القرآن إسرافه وتكذيبه، فقال عنه سبحانه وتعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

فهذه الآية تصف فرعون بالإسراف، وأنه قاهرٌ وغالبٌ لمن تحته بكثرة القتل والتعذيب لمن يخالفه، فكان بهذا من المجاوزين للحد في الكفر، والتكذيب؛ بسبب ما يفعله من القتل والصلب، وبتنويع العقوبات لمن خالفه. ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وإنه لمن المسرفين في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء، وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ إشارة أخرى إلى إسرافه لنفسه، ومجاوزة الحد بها في الظلم والجبروت، فهو من المجاوزين الحد في الكفر؛ لأنه كان عبدًا ادعى الربوبية[1].

ثم ازداد إسرافًا فادعى الربوبية: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

هذا وقد تعدد وصف القرآن لفرعون، فجاء وصف فرعون وملئه به نصًا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨].

أي: آثمين بكفرهم، قاصدين للذنب، مسرفين فيه، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾.

فهذه الجملة لتعليل ما قبلها، أو للاعتراض لقصد التأكيد؛ فهم عاصون آثمون في كل أفعالهم، وأقوالهم، وهو مأخوذٌ من الخطأ المقابل للصواب، وقرأ أبو جعفر المدني: (خاطين) بياءٍ من دون همزةٍ، فيحتمل أن يكون معنى هذه القراءة معنى قراءة الجمهور، ولكنها خففت بحذف الهمزة، ويحتمل أن تكون من خطا يخطو، أي: تجاوز الصواب، وأما جمهور المفسرين فقالوا: معناه: كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم، فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم ومن هو سبب

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٢١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٧٠.

هلاكهم على أيديهم[1].

«وازداد فرعون إسرافًا وكفرًا وتكذيبًا وطغيانًا وفسادًا في الأرض، فاستكبر هو وقومه عن الإيمان بالله وتصديق رسله، بل علا في الأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

ويذكر لنا الله تبارك وتعالى عن فرعون وهو يصف نفسه، وتباهيه بما له من ملك ومن سلطان، وتساؤله في فخر وخيلاء فيقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

ومقصود فرعون بذلك كله تعظيم أمر نفسه وتحقير أمر موسى، وأنه لا يمكن أن يتبع الفاضل المفضول. وكانت هذه الحال التي وصل إليها فرعون وتجهرم بذلك وأظهرها لقومه سببًا في هلاك قومه، واستخفافه بعقولهم، ثم يبين سبحانه وتعالى كيف استجابت لفرعون الجماهير المستخفة المخدوعة على الرغم من الخوارق التي عرضها عليهم موسى عليه السلام وعلى الرغم مما أصابهم من ابتلاءات، واستغاثتهم بموسى ليدعو ربه فيكشف عنهم البلاء: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وحق لموسى بعد هذا كله أن يسميهم قومًا مجرمين، وأن يدعوا عليهم بالهلاك؛ ليريح الأرض من شرهم: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ [الدخان: ٢٢].

أي: فكفروا فدعا ربه بأن هؤلاء ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي: مشركون، قد امتنعوا من إطلاق بني إسرائيل ومن الإيمان، قد أجرموا جرمًا يوجب تعجيل العقوبة؛ فاستجاب الله له فأهلكهم بالغرق: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧][2].

٢. نموذج ممن أسرفوا بالفساد في الأرض.

بنو إسرائيل وإسرافهم بالفساد في الأرض:

ومع الصنف الذين أسرفوا بعمل جميع المفاسد كلها من أصناف المسرفين الذين ذكرهم الله تعالى وهم «بنو إسرائيل»، وقد ذكر الله تعالى هذا الصنف من المسرفين في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ

(١) انظر: غرائب التفسير، الكرماني ٢/ ٨٦٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٨٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٣٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٧٣.

﴿جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

فنصت الآية في أولها على ذكر بني إسرائيل، وفي آخرها جاء الضمير عائدًا عليهم أيضًا، فالإسراف والفساد فيهم مع ما جاءتهم الرسل بالبينات من الله، ويدل على ذلك وجود ﴿ثُمَّ﴾ في الآية، وهي تدل على التراخي في الرتبة؛ ولأن مجيء الرسل بالبينات شأنٌ عجيبٌ، والإسراف في الأرض بعد تلك البينات أعجب.

وكان مقتضى مجيء رسل الله بالحجج الواضحة أن لا يقع منهم إسرافٌ وهو المجاوزة في الحد، فخالفوا هذا المقتضى، ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

فهم حيثما حلوا أسرفوا، وظاهر الإسراف في هذه الآية أنه لا يتقيد.

وقيل: ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾ أي: قاتلون بغير حقٍ؛ كقوله: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣].

وقيل: هو طلبهم الكفاءة في الحسب حتى يقتل بواحدٍ عدةٌ من قتلتهم[١]، فهم مسرفون بسفك الدماء وكثرة المعاصي.

ولعل الأقرب والراجح وهو اختيار ابن عاشور حيث قال: «... والمراد مسرفون في المفاسد كلها التي منها قتل الأنفس بقرينة قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؛ ويؤيد ذلك أنه كثيرًا ما استعمل القرآن ذكر الأرض مع ذكر الإفساد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

وقوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

وقد ذكر الله تعالى ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من أجل تصوير هذا الإسراف عند السامع وتفظيعه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[الأعراف: ٥٦].

وتقديم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ للاهتمام، وهو يفيد زيادة تفظيع الإسراف فيها مع أهمية شأنها»[٢].

٣. نموذج ممن أسرفوا وتشاءموا برسلهم.

أصحاب القرية المذكورون في سورة يس:

فقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٨-١٩].

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٣٩.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٣٩، البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٣٤.

وقرأ الجمهور: ﴿ذُكِّرْتُم﴾ بتشديد الكاف، وأبو جعفرٍ، وخالد بن إلياس، وطلحة، والحسن، وقتادة، وأبو حيوة، والأعمش من طريق زائدة، والأصمعي عن نافع: بتخفيفها[1].

فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه أرسل إلى أهل هذه القرية أولًا رسولين فكذبوهما.

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣-١٤].

وقرأ شعبة بالتخفيف، من: عزه: غلبه، أي: فغلبنا وقهرنا بثالثٍ، وحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه؛ ولأن المقصود ذكر المعزز به.

﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: قويناهما وشددنا قاله مجاهدٌ، وابن قتيبة، برسول ثالث على قراءة الجمهور؛ وذلك لكي يدعوهم إلى عبادة الله وحده فصاروا ثلاثة رسل، اعتناء من الله بهم، وإقامة للحجة بتوالي الرسل إليهم[2].

فكان موقف أصحاب القرية أن قالوا لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨].

فكذبوهم وتطيروا وتشاءموا منهم، «فالقول بالتشاؤم من دعوة أو من وجه هو خرافة من خرافات الجاهلية، والرسل يبينون لقومهم أنها خرافة وأن حظهم ونصيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم. إنما هو معهم. مرتبط بنواياهم وأعمالهم... هذه هي الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح. أما التشاؤم بالوجوه، أو التشاؤم بالأمكنة، أو التشاؤم بالكلمات، فهو خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم»[3].

فالسبب الحقيقي لتشاؤمكم هو تكذيبكم وكفركم، لا نحن، أمن أجل تذكيركم وأمرنا إياكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، ادعيتم أن فينا الشؤم عليكم، وتوعدتمونا وهددتمونا؟ بل الحق أنكم قوم جاوزتم الحد في مخالفة الحق، وأسرفتم في الضلال، وتماديتم في الغي والعناد.

قالوا: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

فمن الملاحظ أن قول أصحاب القرية لرسلهم: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ هو: بطريقة الاستفهام الإنكاري الداخل على إن الشرطية، فهو استفهامٌ على محذوفٍ دل عليه الكلام السابق، والتقدير: أتتشاءمون بالتذكير إن ذكرتم، لما يدل عليه قول أهل القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨].

أي: بكلامكم.

وأبطلوا أن يكون الشؤم من تذكيرهم

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٥٥.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٦٤، البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٥٣.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٦٢.

بقولهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، أي: لا طيرة فيما زعمتم، ولكنكم قومٌ كافرون، غشيت عقولكم الأوهام فظننتم ما فيه نفعكم ضرًا لكم، ونطتم الأشياء بغير أسبابها من إغراقكم في الجهالة والكفر وفساد الاعتقاد، ومن إسرافكم اعتقادكم بالشؤم والبخت.

وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ استفهامٌ تقريريٌّ، أي: ألأجل أن ذكرنا أسماءكم حين دعوناكم حل الشؤم بينكم، كناية عن كونهم أهلًا لأن تكون أسماؤهم شؤمًا.

وفي ذكر كلمة ﴿قَوْمٌ﴾ إيذانٌ بأن الإسراف متمكنٌ منهم، وبه قوام قوميتهم، فذكر لفظ ﴿قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾؛ لأن إجراء الوصف على لفظ قوم يومئ إلى أن ذلك الوصف سجيةٌ فيهم، ومن مكملات قوميتهم، فإن للقبائل والأمم خصائص تميزها وتشتهر بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

وقد تكرر هذا في مواضع كثيرةٍ من القرآن كما في قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤][1].

وهذا الموقف مشابه لموقف قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

ومماثل لموقف قوم صالح: قالوا: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧].

هكذا الحال إذا فسدت الفطرة، وارتكست الأفهام يصبح التطير عند الفساق والمجرمين من رسل الله الذين اختارهم الله لحمل رسالته وتبليغها، وهم الذين اصطفاهم الله من خيرة خلقه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

خامسًا: الإسراف في القتل:

حذر الله تعالى من الإسراف في القتل فقال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

ومعلومةٌ حالة العرب في الجاهلية من التسرع إلى قتل النفوس، فكان حفظ النفوس من أعظم القواعد الكلية للشريعة الإسلامية. ولذلك كان النهي عن قتل النفس من أهم الوصايا التي أوصى بها الإسلام أتباعه في هذه الآيات الجامعة.

قال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾، أي: قد جعل لولي المقتول تصرفًا في القاتل بالقود أو الدية، فنهى الله المسلمين عن أن يكونوا مثالًا سيئًا يقابلوا الظلم بالظلم كعادة الجاهلية، بل عليهم أن

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٨٩.

يتبعوا سبيل الإنصاف فيقبلوا القود، ولذلك قال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾.

والسرف: الزيادة على ما يقتضيه الحق، وليس خاصًا بالمال، بل هو كما مر مجاوزة كل أمر سواء أكان محمودًا أو مذمومًا.

والسرف في القتل هو أن يقتل غير القاتل، أما مع القاتل وهو واضحٌ كما قال المهلهل في الأخذ بثأر أخيه كليبٍ[1]:

كل قتيلٍ في كليبٍ غرةٌ

حتى يعم القتل آل مرة

وأما قتل غير القاتل عند العجز عن قتل القاتل فقد كانوا يقتنعون عن العجز عن القاتل بقتل رجلٍ من قبيلة القاتل. وكانوا يتكايلون الدماء، أي: يجعلون كليها متفاوتًا بحسب شرف القتيل، كما قالت كبشة بنت معديكرب[2]:

فيقتل جبرًا بامرىء لم يكن له

بواءً ولكن لا تكايل بالدم

البواء: الكفء في الدم.

تريد فيقتل القاتل وهو المسمى جبرًا، وإن لم يكن كفوًا لعبد الله أخيها، ولكن الإسلام أبطل التكايل بالدم[3].

هذا وقد اختلف المفسرون في تفسير «الإسراف» في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ على ثلاثة أقوالٍ:

الأول: لا يقتل غير قاتله.

قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبيرٍ.

الثاني: لا يقتل بدل وليه اثنين كما كانت العرب تفعله.

الثالث: لا يمثل بالقاتل.

قاله طلق بن حبيبٍ.

ولعل الراجح أن جميع المعاني مرادة كما قال القرطبي: «وكله مرادٌ؛ لأنه إسرافٌ منهيٌ عنه».

ويؤيد ذلك أن الخطاب في قوله: ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ هو للولي، والإسراف مجاوزة الحد إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل؛ فتكون جميع المعاني مرادة[4].

وبناء على ذلك يكون النهي عن الإسراف في القتل هنا شاملًا لثلاث صورٍ:

الأولى: أن يقتل اثنين أو أكثر بواحدٍ، كما كانت العرب تفعله في الجاهلية.

الثانية: أن يقتل بالقتيل واحدًا فقط ولكنه غير القاتل؛ لأن قتل البريء بذنب غيره إسرافٌ في القتل، منهيٌ عنه في الآية أيضًا.

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٣٤٧، الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني ٥/ ٥٢.
(٢) انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني ١٠/ ٢٤٨، شرح ديوان الحماسة، المرزوقي ص١٥٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٩١، ٩٤.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٤٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٥٥.

الثالثة: أن يقتل نفس القاتل ويمثل به، فإن زيادة المثلة إسرافٌ في القتل أيضًا[1].

وفي هذه الآية دليل إلى أن الحق في القتل للولي، فلا يقتص إلا بإذنه، وإن عفا سقط القصاص.

وأن ولي المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكن من قتله.

فائدة: قرأ الجمهور ﴿يُسْرِف﴾ بالياء، فيكون المراد بذلك الخطاب هو الولي، وقرأ ابن عامرٍ وحمزة والكسائي «تسرف» بالتاء من فوقٍ، وهي قراءة حذيفة. وروى العلاء بن عبد الكريم عن مجاهدٍ قال: «هو للقاتل الأول، والمعنى عندنا: فلا تسرف أيها القاتل». وقال الطبري: «هو على معنى الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والأئمة من بعده. أي: لا تقتلوا غير القاتل. وفي حرف أبيٍ: فلا تسرفوا في القتل»[2].

وقتل النفس البريئة يعد من أكبر الكبائر، بل هي بعد الشرك بالله في الجرم والإثم، وفي هذا المعنى يقول النبي صلى الله عليه وسلم في التحذير من أمر الدماء: **(لن يزال المؤمن في فسحةٍ من دينه، ما لم يصب دمًا حرامًا)**[3].

المعنى أنه في أي ذنب وقع من العبد كان له في الدين والشرع مخرج إلا القتل، فإن أمره صعب، ويوضح هذا ما في تمام الحديث عن ابن عمر أنه قال: «إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها: سفك الدم الحرام بغير حله»[4].

فقتل النفس البريئة حرام، لا تقتل إلا بالحق، وهذا الحق هو الذي حدده الشرع وليس لأحد من البشر، وليس هذا الحق متروكًا للرأي والهوى، فعن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا يحل دم امرئٍ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلَّا بإحدى ثلاثٍ: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة)**[5].

---

(1) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٨٨.

(2) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٤٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٥٥.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا، رقم ٦٤٦٩.

(4) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٢/ ٥٩٠.
وأثر ابن عمر رضي الله عنهما، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قوله تعالى: (ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم)، رقم ٦٨٦٣.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: (أن النفس بالنفس)، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، رقم ١٦٧٦.

سادسًا: الإسراف في المعاصي والذنوب:

«فالإسراف يطلق على الإفراط في الذنوب والمعاصي والكبائر، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

والإسراف أيضًا الإكثار من الذنوب والخطايا واحتقار الأوزار والآثام»[١]، أي: «﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أفرطوا في الجناية عليها، بالإسراف في المعاصي، والغلو فيها، ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾: لا تيأسوا من مغفرته أولًا، وتفضله بالرحمة ثانيًا، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، بالعفو عنها، لمن تاب ولجأ إلى جنابه وإن كثرت، وكانت كزبد البحر إلا الشرك»[٢].

ومن إطلاق الإسراف على الذنوب قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

قال ابن عباس: «إسرافنا: خطايانا»، وعن الضحاك: «الخطايا: الكبائر»، وعن مجاهد: «خطايانا وظلمنا أنفسنا»[٣].

قال الشوكاني: «والظاهر: أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنبًا من صغيرةٍ أو كبيرةٍ. والإسراف: ما فيه مجاوزةٌ للحد، فهو من عطف الخاص على العام.

قالوا ذلك مع كونهم ربانيين: هضمًا لأنفسهم ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في مواطن القتال، فآتاهم الله بسبب ذلك ثواب الدنيا من النصر والغنيمة والعزة ونحوها، وحسن ثواب الآخرة من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ثواب الآخرة الحسن»[٤].

ويؤيد ذلك ما رواه أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان يدعو بهذا الدعاء (رب اغفر لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي، وعمدي، وجهلي، وهزلي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيءٍ قديرٌ)[٥].

قال ابن حجر: «وقوله: (إسرافي في أمري) الإسراف: مجاوزة الحد في كل شيء»[٦].

---

(١) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٣٦٤.

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٩١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٧٢، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٣/ ٧٨٣.

(٤) انظر: فتح القدير ١/ ٤٤٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، رقم ٦٠٣٥.

(٦) انظر: فتح الباري، ١١/ ١٩٨.

المؤمنون والاسراف

أثنى الله تعالى في كتابه على المؤمنين بتوسطهم في الإنفاق، وسوف نتناول ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: التوسط في الإنفاق:

ذكر لنا سبحانه وتعالى صفات المؤمنين الذين هم عباد الرحمن، وجعل من صفاتهم الحميدة التي يتصفون بها هي: عدم الإسراف في الإنفاق، وعدم الإقتار فيه.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وفي قراءة نافع وابن عامرٍ: (ولم يُقْتِرُوا) بضم الياء المثناة التحتية وكسر التاء، مضارع أقتر الرباعي، وقرأه ابن كثيرٍ وأبو عمرٍو: (ولم يَقْتِرُوا) بفتح المثناة التحتية، وكسر المثناة الفوقية، مضارع قتر الثلاثي كضرب، وقرأه عاصمٌ وحمزة، والكسائي: ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ بفتح المثناة التحتية، وضم المثناة الفوقية، مضارع قتر الثلاثي كنصر، والإقتار على قراءة نافعٍ وابن عامرٍ، والقتر على قراءة الباقين معناهما واحدٌ، وهو التضييق المخل بسد الخلة اللازم[1].

هذا وقد اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية. فقال النحاس: «ومن أحسن ما قيل في معناه: أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار، ومن أنفق في طاعة الله تعالى فهو القوام»، وقال ابن عباسٍ: «من أنفق مائة ألفٍ في حقٍ فليس بسرفٍ، ومن أنفق درهمًا في غير حقه فهو سرفٌ، ومن منع من حقٍ عليه فقد قتر». وقاله مجاهدٌ وابن زيدٍ وغيرهما. وقال عون بن عبد الله: «الإسراف أن تنفق مال غيرك»[2].

ولكن هذه التأويلات ونحوها غير مرتبطٍ بالآية؛ وخلط الطاعة والمعصية بالإسراف والتقتير فيه نظر؛ ولأن الإسراف هو مجاوزة كل أمر سواء أكان محمودًا أو مذمومًا؛ ولأن النفقة في معصية أمرٍ قد حظرت الشريعة قليله وكثيره، وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، ولكن أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة أن الله يمدح عباده الصالحين بتوسطهم في الإنفاق، فلا يجاوزن الحد بالإسراف في الإنفاق ولا يقترون، أي: ولا يضيقون فيخلون بإنفاق القدر اللازم، والإسراف وضده الإقتار مذمومان، والاستواء هو التوسط؛ ولذلك قيل: دين الله بين القصور

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٤٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٧٢، وأضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٧٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٧٢-٧٣.

والغلو.

قال ابن عطية: «والوجه أن يقال: إن النفقة في معصية أمرٍ قد حظرت الشريعة قليله وكثيره وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقًا آخر أو عيالًا ونحو هذا، وألا يضيق أيضًا ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح، والحسن في ذلك هو القوام، أي: العدل، والقوام في كل واحدٍ بحسب عياله وحاله، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب»[1].

قال ابن كثيرٍ رحمه الله: «﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ الآية، أي: ليسوا مبذرين في إنفاقهم، فيصرفوا فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم، فيقصروا في حقهم فلا يكفوهم بل عدلًا خيارًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا»[2].

وكأن المعنى: من أراد أن يكون في وصف هؤلاء المؤمنين الموصوفين بعبوديتهم للرحمن فعليه أن لا يسرف في الإنفاق ولا يقتر، بل عليه بالقوام وهو الوسط بين الإسراف والإقتار.

ويؤيد صحة هذا التفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

فنهاه عن البخل بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ ونهاه عن الإسراف بقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، فيتعين الوسط بين الأمرين، كما بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

فيجب على المنفق أن يفرق بين الجود والتبذير، وبين البخل والاقتصاد. فالجود غير التبذير، والاقتصاد غير البخل. فالمنع في محل الإعطاء مذمومٌ. وقد نهى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، والإعطاء في محل المنع مذمومٌ أيضًا وقد نهى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾. كما قال الأديب أبو بكر الخوارزمي في الوزير الصاحب بن عباد[3]:

لا تمدحن ابن عبادٍ وإن هطلت
يداه كالمزن حتى تخجل الديما

فإنها فلتاتٌ من وساوسه
يعطي ويمنع لا بخلًا ولا كرم

وقد بين تعالى في مواضع أخر: أن الإنفاق المحمود لا يكون كذلك، إلا إذا

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٢٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٢٣-١٢٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٧٥.
(٣) انظر: غرر الخصائص الواضحة، الوطواط ص ٣٥١، زهر الأكم في الأمثال والحكم، نور الدين اليوسي ٢/ ٨٧.

كان مصرفه الذي صرف فيه مما يرضي الله. كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وصرح بأن الإنفاق فيما لا يرضي الله حسرةٌ على صاحبه في قوله: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦][1].

فالتوازن هو القاعدة الكبرى في المنهج الإسلامي، والغلو كالتفريط يخل بالتوازن، وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات ويتجه إليها في التربية والتشريع، يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال، والإسراف والتقتير يحدثان اختلالًا في المحيط الاجتماعي، والمجال الاقتصادي، وحبس الأموال يحدث أزمات ومثله إطلاقها بغير حساب، ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق، والإسراف مفسدة للنفس، والمال والمجتمع، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به، وانتفاع الجماعة من حوله، فالمال أداة اجتماعية؛ من أجل تحقيق خدمات اجتماعية[2].

ثانيًا: الدعاء بطلب المغفرة لما بدر منهم:

فالمؤمن يعيش دائمًا بين الخوف والرجاء، يخشى عذاب الله تعالى ويرجو رحمته، فالخوف والرجاء للمؤمن كالجناحين للطائر، لايستطيع أن يطير في الهواء بدونهما، وكذلك المؤمن لايستطيع العيش إلا بهما.

وقد ضرب الله لنا مثلًا لحال أوليائه المؤمنين الذين يطلبون من الله تعالى أن يغفر لهم إسرافهم من أمرهم وزلاتهم.

فيقص القرآن علينا خبر قوم من الربانيين المجاهدين الصابرين يلجأون إلى الله، ويدعونه أن يغفر لهم ذنوبهم، وإسرافهم في أمرهم.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

طلبهم التثبيت بتقديم الاستغفار حريًا بالإجابة، وذنوبنا وإسرافنا متقاربان من حيث المعنى، فجاء ذلك على سبيل التأكيد. وقيل: الذنوب ما دون الكبائر، والإسراف الكبائر. وقال أبو عبيدة: «الذنوب هي الخطايا، وإسرافنا أي: تفريطنا». وقال الضحاك: «الذنوب عامٌ، والإسراف في الأمر الكبائر خاصةً»[3].

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٧٥-٧٦.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٥٧٩.

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٧٤،

وقال ابن عاشور: «ويجوز عندي أن يكون المراد بالإسراف في الأمر التقصير في شأنهم ونظامهم فيما يرجع إلى أهبة القتال، والاستعداد له، أو الحذر من العدو، وهذا الظاهر من كلمة أمرٍ، بأن يكونوا شكوا أن يكون ما أصابهم من هزيمتهم في الحرب مع عدوهم ناشئًا عن سببين: باطنٍ وظاهرٍ، فالباطن هو غضب الله عليهم من جهة الذنوب، والظاهر هو تقصيرهم في الاستعداد والحذر، وهذا أولى من الوجه الأول»[1].

فالذنوب والإسراف في الأمور من أسباب البلاء والخذلان، وأن الطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والفلاح؛ ولذلك سألوا الله أن يمحو من نفوسهم أثر كل ذنبٍ وإسرافٍ، وأن يوفقهم إلى دوام الثبات[2].

«فهذا هو حال أهل الإيمان يضيفون الذنب لأنفسهم هضمًا لها؛ خشية أن يصيبهم العجب بحالهم؛ فهم قالوا ذلك القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين، هضمًا لها واستقصارًا. والدعاء بالاستغفار منها مقدمًا على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو؛ ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاء وطهارة وخضوع، وأقرب إلى الاستجابة فآتاهم الله ثواب الدنيا من النصرة والغنيمة والعز، وطيب الذكر»[3].

ثالثًا: عدم طاعة المسرفين:

يذكر لنا الله تعالى في كتابه موقفًا آخر لمواقف المؤمنين من أهل الإسراف، وهو التحذير من أهل الإسراف وعدم طاعتهم فيما يأمرون به، وكان ذلك الموقف من نبي الله صالح عليه السلام لقومه في تحذيره لقومه أن لا يطيعوا أمر المسرفين.

فقد جاء في معرض حديث القرآن عن قوم صالح في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١-١٥٢].

أي: ولا تطيعوا أمر المسرفين الكافرين المجاوزين الحد في الكفر والطغيان، ولا تنقادوا لأمرهم، ولا تتبعوا رأيهم، وهم الذين يفسدون في الأرض بالإسراف في الكفر والمعاصي، ولا يصلحون بالإيمان والطاعة. فهولاء القوم فسادهم خالص، لا يشوبه شيء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح. فالدعوة إلى الكفر والشرك ومخالفة الحق من أعظم الفساد في الأرض، وفسادهم هذا فسادٌ مصمتٌ ليس معه شيء من الإصلاح،

الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٣١.

(١) انظر: التحرير والتنوير ٤/ ١٢٠.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٢٤.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٢٥.

وجعل عملهم كله الإفساد في الأرض[1].

والمراد بالمسرفين أئمة القوم وكبراؤهم الذين يغرونهم بعبادة الأصنام ويبقونهم في الضلالة استغلالًا لجهلهم وليسخروهم لفائدتهم. والإسراف: الإفراط في شيء، والمراد به هنا: الإسراف المذموم كله في المال وفي الكفر، ووصفهم بأنهم يفسدون في الأرض، فالإسراف منوطٌ بالفساد. وعطف ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ على جملة: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تأكيدٌ لوقوع الشيء بنفي ضده، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩].

ولأن نفي الإصلاح عنهم يؤكد إثبات الإفساد لهم، فيتقرر ذلك في الذهن، ويتأكد معنى إفسادهم بنفي ضده[2].

فهذا هو حال الأنبياء وأهل الإيمان يحذرون قومهم من طاعة أهل الإسراف والكفر والمعاصي، الذين وصفهم ودأبهم الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إليها إفسادًا لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون؛ لأنه شر محض، وكأن أناسًا عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم موضعون في الدعوة لسبيل الغي فنهاهم صالح عليه السلام عن الاغترار بهم، وطاعة أمرهم[3].

المسرفون والتوبة

الأصل في الإنسان عدم العصمة، ولا تكون العصمة إلا لمن عصمه الله من جنس الذنوب، وليس جميع الذنوب؛ ولذلك قد يخطئ الإنسان ويقع في أخطاء تتطلب اللجأ إلى الله لطلب التوبة والمغفرة، روى مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقومٍ يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم)[4].

وقد نادى الله تعالى في كتابه هذا الصنف من الناس بقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وكان سبب نزول هذه الآية ما جاء عن سعيد جبير، عن ابن عباس: «أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسنٌ لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزلت: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]»[5].

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ١٥٥.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٧٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٩٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب سقوط الذنب بالاستغفار، رقم ٢٧٤٩.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير،

فسبب نزول هذه الآية يوضح لنا سعة رحمة الله تعالى وعظيم هذا النداء من الله تعالى لكل من أسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي وغيرهما؛ فنزلت في أناس من أهل الشرك كانوا قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا.

ففي هذه الآية نداءٌ من الله لكل مسرفٍ أن يرجع عن غيه ومعصيته، ويتوب إلى الله وينيب إليه قبل أن يصيبه الله بالعذاب، ويا له من نداءٍ عظيم لو سمعه العصاة المصرون على معاصيهم، ورجعوا إلى الله، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية»[1].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: قل أيها الرسول: يا عباد الله الذين أفرطوا في المعاصي واستكثروا منها، لا تيأسوا من مغفرة الله تعالى، فإن الله يغفر كل ذنب إلا الشرك الذي لم يتب منه صاحبه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

إن الله كثير المغفرة والرحمة، فلا يعاقب بعد التوبة. وقال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة دعوةٌ لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبارٌ بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبةٍ؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه»[2].

وقال الشوكاني: «واعلم أن هذه الآية أرجى آيةٍ في كتاب الله سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارةٍ، فإنه أولًا أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى، وبفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقي بعده شكٌّ ولا يتخالج القلب عند سماعه ظنٌّ، فقال: إن الله يغفر الذنوب فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده»[3].

وقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾، القنوط هو: اليأس، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥].

وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ هي تعليل للنهي عن اليأس من رحمة الله[4].

تفسير سورة الزمر، رقم ٤٨١٠.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١٠٦.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٣٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٤١.

«وقرأ الجمهور ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ بفتح ياء المتكلم، وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب بإسكان الياء»[1]. ولعل وجه ثبوت الياء في هذه الآية دون نظيرها وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١٠].

«فالخطاب هنا للذين أسرفوا، وفي مقدمتهم المشركون، وكلهم مظنة تطرق اليأس من رحمة الله إلى نفوسهم، فكان إثبات (يا) المتكلم في خطابهم زيادة تصريح بعلامة التكلم تقويةً لنسبة عبوديتهم إلى الله تعالى إيماءً إلى أن شأن الرب الرحمة بعباده، والإسراف: الإكثار. والمراد به هنا: الإسراف في الذنوب والمعاصي»[2].

(١) انظر: العنوان في القراءات السبع، السرقسطي ص ١٦٥، إتحاف فضلاء البشر، البنا ص ٤٨٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٤١.

عاقبة المسرفين

للمسرفين عاقبة وخيمة في الدنيا والآخرة نتناولها فيا يلي:

أولًا: عاقبة المسرفين في الدنيا:

فلقد ذكر الله تعالى لنا في القرآن الكريم عن أنواع العذاب الذي يلحق أهل الإسراف، وهذا العذاب في الدنيا والآخرة.

١ . حرمان الهداية للحق والصواب.

«إن إضلال أهل الإسراف وحرمانهم الهداية للحق والصواب، من أحد العقوبات التي يعاقب الله تعالى بها أهل الإسراف، وفي هذا النوع من العقاب يخبرنا الله سبحانه وتعالى فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

أي: إن الله لا يوفق للحق من هو متعدٍ إلى فعل ما ليس له فعله، كذابٌ عليه يكذب، ويقول عليه الباطل وغير الحق. ﴿كَذَّابٌ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفًا ولا كاذبًا»[3].

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٧٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٦.

«وقد اختلف المفسرون في معنى الإسراف الذي ذكره الله تعالى في هذا الموضع، فقال بعضهم: عني به الشرك، وأراد: إن الله لا يهدي من هو مشركٌ به مفترٍ عليه. فعن قتادة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾: مشرك أسرف على نفسه بالشرك. وقال السدي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ قال: المسرف: هو صاحب الدم، ويقال: هم المشركون. والصواب من القول في ذلك، وهو اختيار ابن جرير الطبري أن يقال: إن الله أخبر عن هذا النوع من الإسراف أنه عم جميع أهل الإسراف بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ فالشرك من الإسراف، وسفك الدم بغير حق من الإسراف، وقد اجتمعا في فرعون الأمران كلاهما، فالحق أن يعم»[1].

فهذه هي سنة الله تعالى قد اقتضت أنه سبحانه لا يهدي إلى الحق والصواب من كان مسرفًا في أموره، متجاوزًا الحدود التي شرعها الله تعالى، ومن كان مسرفًا أو كذابًا لايهديه الله تعالى للحق والصواب.

٢. تزيين الباطل.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

أي: زين للمسرفين ما كانوا يعملون من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات، فهم قد نسوا حال خلقهم وتكوينهم والإيمان بربهم، وزين لهم الغرور والإسراف فيه ما كانوا يعملونه من شرور وآثام وظلم للعباد وطغيان في أنفسهم، وإسرافهم في الشر يجترعونه اجتراعًا، وعبر الله عنهم بالمسرفين لأنهم أسرفوا على أنفسهم فاعتقدوا الباطل، واعتقدوا أن الحياة الدنيا هي الوجود كله، وأسرفوا على الناس فطغوا، وبغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، وهكذا التزيين الشيطاني زين لهم ما كانوا يعملون من أعمالهم في ماضي أزمانهم في الدعاء وغيره من ضلالاتهم[2].

قال الشوكاني: «والتزيين هو إما من جهة الله تعالى على طريقة التحلية وعدم اللطف بهم، أو من طريق الشيطان بالوسوسة، أو من طريق النفس الأمارة بالسوء. والمعنى: أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء، والغفلة عن الشكر، والاشتغال بالشهوات»[3].

٣. الهلاك.

هذا وقد حكم الله على أهل الإسراف بالهلاك.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٧٧.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠٧، البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٤٥٥.

(٣) انظر: فتح القدير، ٢/ ٤٨٨.

«والمراد بالمسرفين: المجاوزون للحد المفرطون في التكذيب والكفر والمعاصي، وبالإصرار والاستمرار على إسرافهم؛ حتى حل بهم العذاب، ولذلك يكثر في القرآن إطلاق المسرفين على الكفار والمشركين»[1].

«فإن الله تعالى أرسل رسله من البشر وصدقهم وعده فنصرهم على المكذبين، وأنجاهم ومن آمن معهم، وأهلك الذين أسرفوا على أنفسهم بتكذيب رسل الله»[2]؛ ولهذا جاء بعد هذه الآية خبر إهلاك الكفار المسرفين في كفرهم وعصيانهم، فقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

فبين جل وعلا أنه أرسل الرسل إلى الأمم فكذبوهم، وأنه وعد الرسل بأن لهم النصر، وأهلك المسرفين وهم الكفار المكذبون للرسل.

«فهذه هي سنة الله تعالى في إهلاك أهل الإسراف الذين كانوا يسرفون عليهم، ويتجاوزون الحد معهم، فهذه السنة يخوف الله بها المشركين الذين كانوا يواجهون الرسول صلى الله عليه وسلم بالإسراف عليه، وتكذيبه، وإيذائه والمؤمنين معه»[3].

هذا وقد بين الله تعالى في كتابه في موضع آخر الطريقة التي قد أهلك الله تعالى بها المسرفين، وكان ذلك الموضع مختصًا بالمسرفين من قوم لوط عليه السلام ، فقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢-٣٤].

والحجارة: اسم جمعٍ للحجر، ومعنى كون الحجارة من طينٍ: أن أصلها طينٌ، وهي في غاية الشدة والقوة. والمسومة: التي عليها السومة، أي: العلامة، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ قال: «المسومة: الحجارة المختومة، يكون الحجر أبيض فيه نقطةٌ سوداء، أو يكون الحجر أسود فيه نقطةٌ بيضاء»[4]. أي: عليها علاماتٌ من ألوانٍ تدل على أنها ليست من الحجارة المتعارفة. والدليل على قوتها وشدتها: أن الله ما عذبهم بها في حالة غضبه عليهم إلا لأن النكال بها بالغٌ شديدٌ[5].

فهذه هي نهاية الذين أسرفوا على أنفسهم بفعل الفاحشة؛ فأهلكهم الله تعالى واستأصلهم في الدنيا؛ من أجل ما ارتكبوه من فعل الفواحش.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٧٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٤٧ .
(٢) انظر: تفسير المراغي ١٧/ ١٠ .
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٦٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٢٩.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٩٢.

ثانيًا: عذاب أهل الإسراف في الآخرة:

١. المسرفون يعذبون في قبورهم ويحشرون عميًا.

❁ تعذيبهم في القبور.

فقد أخبرنا تعالى في كتابه أن من عقوبة المسرفين في الأخرة بأن لهم معيشةً ضنكًا؛ وذلك نتيجة إسرافهم في معصية الله تعالى والإعراض عن أمر الله تعالى، وعدم طاعة رسله.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٤-١٢٧].

فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه، أو ما هو أعظم من ذلك، بأن يكون على وجه الإنكار له، والكفر به ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، أي: فإن جزاءه، أن نجعل معيشته ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذابًا.

وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه ويعذب، جزاء إعراضه عن ذكر ربه، وهذا أصح الأقوال. فتلك المعيشة الضنكة التي قال الله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾.

وعن النعمان ابن أبي عياش، عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا. ولفظه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (معيشة ضنكا قال: عذاب القبر)[1].

وقد رجح الطبري هذا التفسير مستندًا إلى قوله في آخر الآيات: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾.

قال: «فكان معلومًا بذلك أن المعيشة الضنك التي جعل الله لهم قبل عذاب الآخرة. ثم قال: وهذا العذاب ليس في الحياة الدنيا أيضًا، فإن هناك كثيرًا ممن أعرض عن ذكر الله من الكفار أوسع معيشة من كثير من المقبلين على ذكر الله، فبقي أن ذلك في البرزخ»[2].

وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك، عامة في دار الدنيا، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقييدها. ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ أي: هذا المعرض عن ذكر ربه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ البصر على الصحيح،

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٣٨١. قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) انظر: جامع البيان، ١٦/ ٢٢٨.

كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾. قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيقٌ حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلقٍ وحيرةٍ وشكٍ، فلا يزال في ريبةٍ يتردد. فهذا من ضنك المعيشة»[1].

* يحشرون يوم القيامة عميًا.

فقد ذكر الله تعالى لنا أيضًا أن من عقوبة المسرفين في الآخرة أنهم يحشرون يأخذ الله بأبصارهم وأعينهم، ولا يكون لديهم قدرة على الرؤيا؛ وذلك نتيجة إسرافه في الكفر والمعاصي والإعراض عن ذكر الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

فذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن من أعرض عن ذكره يحشره يوم القيامة في حال كونه أعمى هذا أصح التفاسير. وقال مجاهدٌ، وأبو صالح، والسدي: أعمى أي: لا حجة له. وقال عكرمة: عمي عليه كل شيء إلا جهنم[2].

ولكن الصحيح أن الله تعالى يحشره يوم القيامة في حال كونه أعمى، ويؤيد صحة هذا التفسير أن في نفس الآية الكريمة قرينةً متصلةً دالةً على خلاف قول مجاهدٍ وأبي صالح، وعكرمة. وأن المراد بقوله: ﴿أَعْمَى﴾، أي: أعمى البصر لا يرى شيئًا. والقرينة المذكورة هي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥].

فصرح بأن عماه هو العمى المقابل للبصر وهو بصر العين؛ لأن الكافر كان في الدنيا أعمى القلب كما دلت على ذلك آياتٌ كثيرةٌ من كتاب الله، وقد زاد جل وعلا في سورة «الإسراء» أنه مع ذلك العمى يحشر أصم أبكم أيضًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧][3].

ثم يخبرنا تعالى أن هذا العذاب ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي﴾، أي: مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي مَنْ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ١٦/ ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٢٨-٢٢٩.

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٢٧-١٢٨.

﴿أَسْرَفَ﴾ أي من جاوز الحد في المعصية، فهذا هو أحد أنواع عذاب الكفار المسرفين يوم القيامة، فهذا الجزاء الأليم كان لعلة إسراف الكافر على نفسه في الطغيان والمعاصي والتكذيب بآيات الله سبحانه وتعالى، ونسيانه لآيات الله تعالى تركها، وعدم الإيمان بها.

٢. أن المسرفين هم أصحاب النار.

حكم الله تعالى في كتابه بأشد العذاب على أهل الإسراف، وأنهم هم أصحاب النار الذين لايخرجون منها إن ماتوا على الكفر والشرك بالله.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

قال قتادة وابن سيرين: يعني المشركين. وقال ابن مسعود ومجاهدٌ والشعبي: هم السفهاء والسفاكون للدماء بغير حقها. وقال عكرمة: الجبارون والمتكبرون. وقيل: هم الذين تعدوا حدود الله. قال القرطبي: «وهذا جامعٌ لما ذكر»[(١)].

فبهذا يتبين شدة عقاب الله تعالى لأهل الإسراف، وأنهم في الآخرة من أصحاب النار.

موضوعات ذات صلة:

الاستطاعة، الاقتصاد، الإنفاق، السعة

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٥٩ .





عناصر الموضوع



مفهوم الأسرة

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الهمزة والسين والراء أصل واحد، وقياسٌ مطرد، وهو الحبس، وهو الإمساك»[1]، والأسرة: الدرع الحصينة، وأهل الرجل وعشيرته والجماعة يربطها أمر مشترك، والأسرة من الرجل: الرهط الأدنون وعشيرته؛ لأنه يتقوى بهم، وقيل: أقارب الرجل من قبل أبيه[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف د. محمد عقلة الأسرة بأنها «رابطة اجتماعية تتكون من زوج وزوجة وأطفالهما، وتشمل الجدود والحفدة، وبعض الأقارب على أن يكونوا مشتركين في معيشة واحدة»[3].

يتبين مما سبق أن كل التعريفات السابقة تؤكد على أن الأسرة هي اللبنة والوحدة الاجتماعية الأولى للمجتمع، وأن هناك علاقة وطيدة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي حيث إن من معاني كلمة الأسرة في اللغة الحبس، وهو الإمساك فكأنه لوحظ معنى الشد والربط والوثاق، حيث إن الأسرة ترابط اجتماعي وتماسك إنساني لدرجة الثبات والقرار، ومن المعاني -أيضًا-: الدرع الحصينة، وكأن الأسرة يتحقق بها حماية الإنسان مما يهدد كيانه، فبالأسرة يتقوى الفرد ويشتد عوده، كل هذه المعاني العظيمة قصدها الإسلام من تشريع الزواج وتكوين الأسرة، وذلك لحماية الأفراد والمجتمعات.

ولم يرد لفظ الأسرة في الاستعمال القرآني، ولكن جذر الكلمة مادة (أ س ر) موجودة في القرآن، والتي تعني: الشد بالقيد[4].

(١) مقاييس اللغة ١/ ١١٦.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ٥١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٧.
(٣) نظام الأسرة في الإسلام ١/ ١٨.
(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٣.



الألفاظ ذات الصلة

١ الأهل:

الأهل لغة:

«الهمزة والهاء واللام أصلان متباعدان، أحدهما الأهل. قال الخليل: أهل الرجل زوجه. والتأهل التزوج. وأهل الرجل: أخص الناس به. وأهل البيت: سكانه. وأهل الإسلام: من يدين به. وجميع الأهل أهلون. والأهالي جماعة الجماعة»[١].

الأهل اصطلاحًا:

من يجمع الفرد وإياهم نسب أو دين، أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد[٢].

الصلة بين الأسرة والأهل:

أن الأهل أعم من الأسرة؛ حيث يكون من جهة النسب والاختصاص، فمن جهة النسب قولك: أهل الرجل لقرابته الأدنين، ومن جهة الاختصاص قولك: أهل البصيرة وأهل العلم، أما الأسرة فهي رابطة اجتماعية تتكون من زوج وزوجة وأطفالهما، وتشمل الجدود والحفدة، وبعض الأقارب على أن يكونوا مشتركين في معيشة واحدة[٣].

١ العشيرة:

العشيرة لغة:

«العين والشين والراء أصلان صحيحان: أحدهما في عددٍ معلوم ثم يحمل عليه غيره، والآخر يدل على مداخلةٍ ومخالطة»[٤].

العشيرة اصطلاحًا:

اسم لكل جماعة من أقارب الرجل الذين يتكثر بهم[٥].

الصلة بين العشيرة والأسرة:

ذكرنا أن عشيرة الرجل هم من يتكثر بهم من أقاربه، أما الأسرة فهي أخص، حيث تشمل من يشترك معهم الرجل في معيشة واحدة من الزوجة والأبناء والأقارب.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٥٢.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٩٦.
(٣) انظر: الفروق الغوية، العسكري ١/ ٨٤.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٢٤.
(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٦٧.

١ الرهط:

الرهط لغة:

«الراء والهاء والطاء أصلٌ يدل على تجمعٍ في الناس وغيرهم. فالرهط: العصابة من ثلاثةٍ إلى عشرة. وقيل: ما دون السبعة إلى الثلاثة نفرٌ»[١].

الرهط اصطلاحًا:

«الجماعة نحو العشرة، ورهط الرجل: قومه وقبيلته»[٢].

الصلة بين الرهط والأسرة:

الرهط أعم من الأسرة، فهم قوم الرجل وقبيلته الأقربون، أما الأسرة: فهم من يشترك الرجل معهم في معيشة واحدة من الزوجة والأبناء والأقارب[٣].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٥٠.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٦٧، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٧٢.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري١/ ٥٤٨.



مكانة الأسرة ومقاصدها

تبرز مكانة الأسرة من خلال وظائفها والدور الذي تؤديه للأفراد والمجتمعات على حد سواء، فيجد فيها الفرد سكنه وحمايته، وأمنه، وهي تلبي الحاجات الغريزية للزوجين، والحاجات الفطرية للآباء والأمهات والأبناء، فالإنسان يتطلع بفطرته لأن يكون له نسل، والابن يسعى بفطرته إلى أحضان والديه، والأسرة تحافظ على الأنساب، وتساهم بشكل فاعل في تقوية الأواصر بين الناس، وهي منبت للفضائل ومصدر للتربية، وهي في المحصلة اللبنة الأساسية والأولى للمجتمع.

أولًا: مكانة الأسرة:

الفكرة الأساسية التي قامت عليها الأسرة، وهي تلبية نداء فطري غريزي في الإنسان لعبادة الله سبحانه، وأي أسرة كيفما كان شكلها ونوعها إن لم تقم على هذا الأساس فهي أسرة جاهلية، فالأسرة تقوم للمحافظة على الجنس البشري وبقائه، وبناء الأسرة في الإسلام لا يكون من أجل إشباع الغرائز فقط، ولا لأي مطلب من مطالب الدنيا الزائلة، بل يكون من أجل تطبيق الناموس الإلهي في الكون.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢].

والمعنى: أي جعل لكم من أزواجكم بنين وبنات، تزوجونهم فيحصل بسببهم الأختان والأصهار[1].

يقول سيد قطب عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[البقرة: ٢٢٣]: «وينبثق نظام الأسرة في الإسلام من معين الفطرة وأصل الخلقة، وقاعدة التكوين الأولى للأحياء جميعًا وللمخلوقات كافة.. تبدو هذه النظرة واضحة في قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقوله سبحانه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

ثم تتدرج النظرة الإسلامية للإنسان فتذكر النفس الأولى التي كان منها الزوجان، ثم الذرية، ثم البشرية جميعًا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم تكشف عن جاذبية الفطرة بين الجنسين، لا لتجمع بين مطلق الذكران

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٣١.

ومطلق الإناث، ولكن لتتجه إلى إقامة الأسر والبيوت.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم: ٢١].

وقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[البقرة: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[البقرة: ٢٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠].

فهي الفطرة تعمل، وهي الأسرة تلبي هذه الفطرة العميقة في أصل الكون وفي بنية الإنسان، ومن ثم كان نظام الأسرة في الإسلام هو النظام الطبيعي الفطري المنبثق من أصل التكوين الإنساني، بل من أصل تكوين الأشياء كلها في الكون على طريقة الإسلام في ربط النظام الذي يقيمه للإنسان بالنظام الذي أقامه الله للكون كله، ومن بينه هذا الإنسان، والأسرة هي المحضن الطبيعي الذي يتولى حماية الفراخ الناشئة ورعايتها، وتنمية أجسادها وعقولها وأرواحها، وفي ظله تتلقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل، وتنطبع بالطابع الذي يلازمها مدى الحياة وعلى هدية ونوره تتفتح للحياة، وتفسر الحياة، وتتعامل مع الحياة»[(١)].

نخلص مما سبق إلى أن بناء الأسرة في الإسلام لا يكون من أجل إشباع الغرائز فقط، ولا لأي مطلب من مطالب الدنيا الزائلة، بل يكون من أجل تطبيق الناموس الإلهي في هذا الكون، وقد رفض الإسلام أن يمتنع المسلم عن ممارسة ما تقتضيه الفطرة بهدف التعبد.

ويدل على ذلك ما ورد عن أنس بن مالكٍ، رضي الله عنه قال: **جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها!! فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا! وقال آخر: أنا أصوم الدهر، ولا أفطر! وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا!! فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له! لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد. وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)**[(٢)].

ثانيًا: مقاصد الأسرة:

إن ما يدل على عناية الإسلام بتكوين الأسرة وإحكام بنائها، ورعايتها لتحصيل

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٥٠٦٣، ٧/ ٢.

مقصودها ما يلي:

١. حصول العفة للزوجين وإشباع الغريزة في الحلال.

قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

«جعل اللباس كناية عن الزوج؛ لكونه سترًا لنفسه ولزوجه أن يظهر منهما سوء، كما أن اللباس ستر يمنع أن يبدو منه السوأة. وعلى ذلك كنى عن المرأة بالإزار، وسمي النكاح حصنًا؛ لكونه حصنًا لذويه عن تعاطي القبيح»[(١)].

يتبين مما سبق أنه بحصول الزواج وتكون الأسرة يحمي كل من الزوجين صاحبه من الوقوع في الفاحشة، فهو إعفاف للنفس عن الحرام وكبح جماحها حتى لا تورد صاحبها مواد الهلكة.

٢. السكن الفطري للزوجين المبني على المودة والرحمة.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

قال ابن عاشور: «وهي آية تنطوي على عدة آيات منها: أن جعل للإنسان ناموس التناسل، وأن جعل تناسله بالتزاوج ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه، وأن جعل أزواج الإنسان من صنفه ولم يجعلها من صنف آخر؛ لأن التأنس لا يحصل بصنف مخالف، وأن جعل في ذلك التزاوج أنسًا بين الزوجين، ولم يجعله تزاوجًا عنيفًا، أو مهلكًا كتزاوج الضفادع، وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبة، فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وأن جعل بينهما رحمة، فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة»[(٢)].

نفهم مما سبق أن الله سبحانه جعل للرجل والمرأة دورين متكاملين يتمم أحدهما الآخر، ولا يتحقق هذا إلا بالتزام كل من الزوجين بشرع الله تعالى، وهدي نبيه، وذلك بالقيام بواجباتهما.

٣. إقامة البيت المسلم.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجا؛ ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولادًا تقر بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم،

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٧٨.

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ٣٢.

ويتفعون بهم من وجوه كثيرة[١].

٤ . التعارف والتعاون بين الناس على البر والتقوى.

شاء الله تعالى أن يخلق الإنسان مدني الطبع، يميل إلى الجماعة ويكره العزلة، وخلق الناس ذكرانًا وإناثًا وجعلهم شعوبًا وقبائل؛ ليتعارفوا، كما ورد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله تعالى بث منهما رجالًا كثيرًا ونساءً، وفرقهم، وجعلهم شعوبًا وقبائل، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون، والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوبًا وقبائل؛ لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف، ولحوق الأنساب، هذا عن التعارف، أما التعاون فهو واضح؛ إذ تقوم الزوجة ببعض أعباء الحياة ويقوم الرجل بالبعض الآخر، فالزوجة تهيئ للزوج ما يحتاج إليه ويسعده بالإضافة إلى تربية الذرية، والزوج يسعى ويكدح لطلب الرزق الحلال لنفسه ولأهل بيته[٢].

٥ . ابتغاء النسل الصالح والولد الصالح.

والتناسل هو النتيجة الطبيعية لالتقاء الزوجين الذكر والأنثى، وهو حتمي لاستمرار حياة الكائنات، ويعتبر التناسل أهم ثمرات الزواج، ولقد أشار القرآن إلى هذا المعنى فقال تعالى: ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٧].

يقول سيد قطب عند تفسير الآية: «ابتغوا هذا الذي كتبه الله لكم من المتعة بالنساء، ومن المتعة بالذرية، ثمرة المباشرة، فكلتاهما من أمر الله، ومن المتاع الذي أعطاكم إياه، ومن إباحتها لكم طلبها وابتغاؤها، وهي موصولة بالله فهي من عطاياه، ومن ورائها حكمة، ولها في حسابه غاية، فليست إذن مجرد اندفاع حيواني موصول بالجسد، منفصل عن ذلك الأفق الأعلى الذي يتجه إليه كل نشاط، بهذا ترتبط المباشرة بين الزوجين بغاية أكبر منهما، وأفق أرفع من الأرض ومن لحظة اللذة بينهما، وبهذا تنظف هذه العلاقة وترق وترقى.. ومن مراجعة مثل هذه الإيحاءات في التوجيه القرآني وفي التصور الإسلامي ندرك قيمة الجهد المثمر الحكيم الذي يبذل لترقية هذه البشرية وتطويرها، في حدود

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٤.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٨٠٢.

فطرتها وطاقتها وطبيعة تكوينها»[1].

يتضح مما سبق أن الغاية من بناء الأسرة إنجاب النسل الصالح، وحصول السكن النفسي بين الزوجين، وانسجام أفراد الأسرة في ظلال شرع الله الخالد، وبقدر ترابط الأسر يقوى تماسك المجتمع ويشتد.

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٧٤.

الحقوق والواجبات الأسرية

إن العلاقة بين الرجل والمرأة ليست علاقة غريزية فحسب، بل هي علاقة شراكة بالروح والجسد، ومثل هذه العلاقة المقدسة تظهر ثمرتها على الأولاد، فما أجمل أن تسود علاقتهما المحبة والاحترام والتفاهم، المنبثقة من شرع الله سبحانه .

أولًا: حقوق الوالدين وواجباتهم:

إن أقوى رباط في الأسرة هو رباط الولد بأبويه، المتمثل بالإحسان إليهما، لذلك قرن الله سبحانه الإحسان إليهما بعبادته سبحانه، وعدم الشرك به في أكثر من موضع في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الأنعام: ١٥١].

يقول سيد قطب: «بهذه العبارات الندية، والصور الموحية، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء، ذلك أن الحياة وهي مندفعة في طريقها بالأحياء، توجه اهتمامهم القوي إلى الأمام، إلى الذرية. إلى الناشئة الجديدة، إلى الجيل المقبل. وقلما توجه اهتمامهم

إلى الوراء، إلى الأبوة، إلى الحياة المولية، إلى الجيل الذاهب! ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة؛ لتنعطف إلى الخلف، وتتلفت إلى الآباء والأمهات، إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد، إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات، وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر، كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين، فإذا هما شيخوخة فانية -إن أمهلهما الأجل-، وهما مع ذلك سعيدان! فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام، إلى الزوجات والذرية.. وهكذا تندفع الحياة، ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء، إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة؛ ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف! وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله»[1].

كما بين القرآن حقوق الآباء على الأبناء، وقد تمثل ذلك جليًا في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

ومعنى الإحسان إلى الأبوين أن تبلغ أقصى درجات الوفاء لهما في البر والمكافأة، وأن تزيد في المعاملة الحسنة، عما كان يكون منهما؛ احتياطًا للرعاية والشفقة فإذا بلغ الوالدان أو أحدهما سن الكبر، وصارا عندك في آخر العمر بحال من الضعف والعجز، كما كنت عندهما في بدء حياتك، فعليك اتباع الواجبات الخمسة التالية:

١. ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾: أي: لا تسمعهما قولًا سيئًا فيه أدنى تبرم، حتى ولا التأفف، وهو التضجر والتألم الذي هو أدنى مراتب القول السيء، وذلك في أي حال، ولا سيما حال الضعف والكبر والعجز عن الكسب؛ لأن الحاجة إلى الإحسان حينئذ أشد وأولى وألزم. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه، قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة)[2].

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٢٢١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة،

٢. ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح.

٣. ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: وقل لهما قولًا لينًا طيبًا حسنًا مقرونًا بالتوقير والتعظيم والحياء والأدب الجم.

٤. ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما بفعلك، والتواضع ينبغي أن يكون رحمةً بهما، وشفقةً عليهما، لا لأجل امتثال الأمر وخوف العار والنقد فقط.

٥. ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾: أي: اطلب لهما الرحمة من الله في حال كبرهما وعند وفاتهما، وخصهما بالذكر؛ ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقًا لهما وحنانًا عليهما[1].

ثانيًا: حقوق الزوج وواجباته:

نظم الإسلام الحنيف العلاقة بين الزوجين بما يكفل دوام العشرة الزوجية، ويحقق سعادة الطرفين، ويرعى الأسرة في بدايتها، وأثناء وجودها، وبعد انتهاء الرابطة الزوجية:

أولًا: حقوق الزوج:

١. **الحفاظ على النسب، وحقه في نسبة الولد إليه.**

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

لا يحل للمرأة أن تكتم شيئًا مما في رحمها من حمل أو حيض إن كانت مؤمنةً بالله واليوم الآخر إيمانًا صادقًا، فإذا انتهت الزوجية وجب على المرأة شرعًا ما يسمى بالعدة، وعدة الطلاق ثلاث حيضات، وعدة الحامل بوضع الحمل، وعدة الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام، وذلك تقديرًا لنعمة الزواج، وإظهارًا للأسى والحزن على الفراق، وللتعرف على براءة الرحم من الولد، حتى لا تختلط الأنساب[2].

٢. **القوامة في الأسرة.**

قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[النساء: ٣٤].

فالزوج هو المسئول في نظام الإسلام عن النفقة عليها، ومسئوليته عن النفقة على أسرته تجعله أكثر تحفظًا واحترازًا من الاستجابة السريعة للشهوات العابرة، والانفعالات الحادة المصحوبة بالرعونة والطيش، وليس في هذا إهمال للمرأة، أو إنقاص من أهليتها، أو الطعن في كفايتها

باب رغم أنفه من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر، رقم ٢٥٥١، ٤/ ١٩٧٨.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٥٦.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ١/ ١٤٣.

وعقلها وعلمها، بل إن الإسلام في هذا أراد صون المرأة، والحفاظ على كرامتها، وعدم تعريضها للأذى والسوء، والقوامة ليست استبدادًا أو تعسفًا أو تسلطًا وترفعًا، وإنما هي تكليف بالإدارة والرعاية والولاية والنفقة، وهذا التكليف عبء على الرجال أكثر من النساء[1].

٣. ألا تكون ناشزًا خارجة عن طاعته.

ما لم يأمرها الزوج بما فيه معصية لله، أو هضم لحقوقها التي شرفها الله بها، وقد أرشد الإسلام إلى استخدام وسائل التربية والتأديب الحكيمة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

كما بين النبي صلى الله عليه وسلم حقوق الرجل على زوجته في العديد من الأحاديث، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير النساء: التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها)[2].

وهؤلاء ليس لكم عليهن إلا المعاشرة بالمعروف، والمخالطة بالحسنى والآداب الإسلامية[3].

ثانيًا: واجبات الزوج:

١. الإنفاق على المرأة.

دفع المهر وتوفير الكفاية لها من مسكن وملبس ومطعم ومشرب ومداواة ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

أي: فضلوا على النساء بما أنفقوا من أموالهم عليهن من المهر والنفقة[4].

٢. حسن العشرة.

قال تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

أي: خالقوا أيها الرجال نساءكم، وصاحبوهن بما أمرتكم به من المصاحبة، وذلك: إمساكهن بأداء حقوقهن التي فرض الله -جل ثناؤه- لهن عليكم إليهن[5]، وتتضمن هذه الحقوق أن يتزين لزوجته مثلما تتزين له، وأن يداعبها ويمازحها، وأن لا يزهد فيها بهجر مضجعها تبتلًا أو بدون سبب شرعي، وأن يحافظ على دينها بتوجيهها إلى السلوك السليم.

٣. العدل بين الزوجات.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٢٢.
(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، ٤/ ٨٦، رقم ٢٤٤٤.
(٣) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ١/ ٣٧٠.
(٤) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٣٨١.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٢١.



من حق الزوجة العدل بينها وبين غيرها من زوجاته.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].

فقد أخبر الله تعالى: أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قدرتهم العدل التام بين النساء؛ وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك. وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطاع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾.

أي: لا تميلوا ميلًا كثيرًا بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل. فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب والوطء ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للتزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها[(١)].

ثالثًا: حقوق الزوجة وواجباتها:

كانت المرأة قبل الإسلام مهضومة الحق، فقرر لها الله تعالى حقوقًا في شئون الزواج، ونهى عن الاعتداء عليها، وأوجب عليها العديد من الواجبات:

أولًا: حقوق الزوجة:

١. تحريم التحكم في ميراث المرأة وتحريم وراثتها كالمتاع.

ليست المرأة متاعًا يورث، فلا تورث زوجة المتوفى، ولا يحل لكم أيها المؤمنون تقليد أهل الجاهلية، فترثون المرأة كما ترثون الأموال والأمتعة، وتتصرفون فيها كما تشاءون، وهن كارهات لذلك.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩].

أي: لا يحل لكم أيها الذين آمنوا بالله ورسوله أن تسيروا على سنة الجاهلية في هضم حقوق النساء فتجعلوهن ميراثًا لكم كالأموال والعبيد، وتتصرفوا فيهن كما تشاءون، وهن كارهات لذلك، فإن شاء أحدكم تزوج امرأة من يموت من أقاربه، وإن شاء زوجها غيره، وإن شاء أمسكها ومنعها الزواج[(٢)].

٢. الزواج وعدم منعها منه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩].

أي: منعها من الزواج والتضييق عليها حتى تفتدي نفسها منكم بالمال من ميراث

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٠٧.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٤/ ٢١٢.

أو صداق ونحو ذلك، ثم استثنى الله تعالى حالة واحدة يجوز فيها العضل -أي: الحبس والتضييق-، وهي حالة إتيان الفاحشة المبينة كالزنى والسرقة والنشوز عن الطاعة، ونحو ذلك من الأمور الممقوتة شرعًا وعرفًا[1].

٣. المعاشرة بالمعروف.

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

قال السعدي: «وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف، من الصحبة الجميلة، وكف الأذى وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال»[2].

٤. حق المرأة في كامل المهر.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠].

أي: إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأته ويستبدل مكانها غيرها، فلا يأخذن من الصداق الذي أعطاها إياه شيئًا، ولو كان قنطارًا من مال[3].

ثانيًا: واجبات الزوجة:

١. وجوب طاعة الزوج.

قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

قال ابن كثير: «أي: في الفضيلة في الخلق، والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، والقيام بالمصالح، والفضل في الدنيا والآخرة»[4].

٢. تمكين الزوج من الاستمتاع بها.

قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة: ٢٢٨].

أي: لهن من حقوق الزوجية على الرجال بمثل ما للرجال عليهن، فيحسن عشرتها بما هو معروف من عادة الناس أنهم يفعلونه لنسائهم، وهي: كذلك تحسن عشرة زوجها بما هو معروف من عادة النساء أنهن يفعلنه؛ لأزواجهن من طاعة، وتزين، وتحبب، ونحو ذلك[5].

ومما يؤكد ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة**

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١٠٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص١٧٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٤٣.
(٤) المصدر السابق ١/ ٦١٠.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣١٦.

حتى تصبح)[1].

رابعًا: حقوق الأبناء وواجباتهم:

اهتم الإسلام بتربية الأبناء اهتمامًا كبيرًا، وجعل على الآباء لأبنائهم حقوقًا، كما جعل للآباء على أبنائهم حقوقًا، وهذه الحقوق هي:

أولًا: حقوق الأبناء:

١. اختيار الأم الصالحة.

ينبغي أن يختار الأب لأبنائه أمًا صالحة تقوم على تربية أبنائه تربية صحيحة، بحيث يكون هؤلاء الأبناء قادرين عل حمل أمانة الإسلام، والوصول بها إلى غايتها، والدفاع عنها. قال تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾[البقرة: ٢٢١].

قال الطبري: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله، خيرٌ عند الله وأفضل من حرة مشركة كافرة، وإن شرف نسبها وكرم أصلها. يقول: ولا تبتغوا المناكح في ذوات الشرف من أهل الشرك بالله، فإن الإماء المسلمات عند الله خير منكحًا منهن»[2].

٢. الحضانة والتربية.

فهي أمر له شأن عظيم، وأثر كبير في حياة الطفل، ولذا جعله الله عز وجل من أعظم حقوق الأبناء على الآباء، وهو حق واجب في ذمة الأبوين معًا، وتقوم به الأم بالدرجة الأولى.

قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[البقرة: ٢٣٣].

قال الزحيلي: «على جميع الوالدات مطلقات أو غير مطلقات أن يرضعن أولادهن مدة سنتين كاملتين دون زيادة عليهما، إذا أريد إتمام المدة، ولا مانع من نقص ذلك إذا رئيت المصلحة فيه، والأمر متروك للاجتهاد والتقدير»[3].

ومما يؤكد على وجوب تربية الأبناء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦].

والمعنى: «احفظوا أهليكم منها بأن تأمروهن بالمعروف وتنهوهن عن المنكر، وتعلموهن الخير وأوامر الشرع وتؤدبوهن بأدب القرآن، والأهل: هم الزوجة والأولاد والخدم ومن هم في حوزتك ومعيشتك»[4].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه: ١٣٢].

قال القرطبي: «أمره تعالى بأن يأمر أهله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها، رقم ٤٨٩٧، ٥/ ١٨٩٣.

(٢) جامع البيان ٤/ ٣٦٨.

(٣) التفسير المنير ٢/ ٣٥٩.

(٤) التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ٧٠٥.

بالصلاة ويمتثلها معهم، ويصطبر عليها ويلازمها: وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل في عمومه جميع أمته، وأهل بيته على التخصيص»[1].

٣. النفقة والواجبات المالية.

النفقة واجبة على الأب لأبنائه ذكورًا كانوا أو إناثًا ما داموا في كفالته، وذلك حتى لا يتركهم يتعرضون للضياع والانحراف، وذلك بتوفير كل ما يحتاجون إليه عادةً من غذاء وكساء ودواء ومأوى.

قال تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٧].

قال القرطبي: «أي: لينفق الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير على قدر وسعه حتى يوسع عليهما إذا كان موسعا عليه. ومن كان فقيرًا فعلى قدر ذلك، فتقدر النفقة بحسب الحالة من المنفق والحاجة من المنفق عليه بالاجتهاد على مجرى حياة العادة»[2].

كما أكد ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: (كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول)[3].

٤. اختيار الاسم الحسن للمولود.

يجب على الوالدين اختيار الاسم الحسن لمولودهما.

قال تعالى: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٧].

وفي هذه الآية دليل وشاهد على أن الأسماء الجميلة جديرة بالأثرة، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية؛ لكونها أنبه وأنزه عن النبز[4].

٥. العدل بين الأولاد.

تفضيل بعض الأبناء على بعض يؤدي إلى إثارة الحقد والحسد والبغض؛ مما يضر بالترابط الأسري، الذي صانه الإسلام، وحافظ عليه بكل السبل. وقد أمر الله سبحانه بالعدل في كل الأمور ومن باب أولى العدل بين الأبناء.

قال تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨].

أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى[5].

ثانيًا: واجبات الأبناء:

سبق وأن ذكرنا حقوق الآباء على الأبناء عند الحديث عن حقوق الوالدين، من حيث طاعتهما وبرهما والإحسان إليهما، وتجنب عقوقهما، وغير ذلك من الواجبات.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٦٣.

(٢) المصدر السابق ١٨/ ١٧١.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب إثم من ضيع عياله، ٨/ ٢٦٨، رقم ٩١٣١، والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، رقم ٨٥٢٦، ٤/ ٥٤٥.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٨٣.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٢٤.

مشكلات الأسرة وعلاجها

إن الأسرة التي تسير في حياتها وسلوكها وفق منهج الله سبحانه هي أسرة سعيدة مهما قلت ذات يدها، وهي أبعد ما تكون عن الخلاف بين الزوجين، ولكن الالتزام المطلق بكل هذا المنهج، ربما لا يتيسر في بعض الأسر أو لدى بعض الأشخاص في بعض الظروف والأحوال، فإذا نشأ الخلاف بينهما فإن الإسلام وضع منهجًا محددًا واضحًا، إذا ما طبقه الزوجان على هذا الخلاف تلاشى -بإذن الله- وزال أثره، وعادت الحياة الزوجية بينهما إلى سابق عهدها من الوفاق والألفة:

أولًا: مشكلات الوالدين:

من أهم المشكلات التي تقع بين الزوجين، أن يختار الزوج المسلم شريكة حياته من ليس على دينه وملته، فيكون ذلك وبالًا على الأولاد الذين يتربون في أحضان أم لا تعرف شرع الله سبحانه، فيقع الأب في مشكلات قد تودي بالأسرة إلى الدمار والهلاك، لذلك رغب الإسلام في نكاح المؤمنة التي تحفظ على زوجها دينه وأبناءه.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

أجاز الشرع زواج المسلم بالكتابية، ولم يجز زواج المسلمة بالكتابي؛ لأمر واضح وهو أن الكتابية لها أن تبقى على دينها بزواجها بمسلم ولا تتضرر فيما تدين به، ولأن المسلم يؤمن بدينه المتضمن الإقرار بأصول الأديان الأخرى، ومنها الدين اليهودي والدين النصراني في أصوله الأولى التي تتفق مع الإسلام في الدعوة إلى التوحيد والفضائل الإنسانية، فهي مع المسلم في دائرة متسعة تسع دينها وغيره، وربما إذا لمست روح التسامح وحسن المعاملة من زوجها عاشت سعيدة هانئة معه دون تضرر، وبما أن للرجل عادة سلطة القوامة على المرأة، وهي أقوى من سلطة المرأة، فلو تزوج الكتابي المسلمة أمكن التأثير عليها، فربما تركت دينها، وتضررت غالبًا بمعاشرة زوجها؛ لعدم توافر الانسجام والوئام الروحي والحسي، والكتابي لا يؤمن بالإسلام، فتكون معه في دائرة ضيقة الأفق، وهي متسعة الاعتقاد، والإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فعزة المسلمة تأبى عليها أن تكون زوجة لكتابي، هذا ما عليه جمهور العلماء، مع القول بأن زواج المسلم بالكتابية مكروه[١].

وذكر الزحيلي في ختام حديثه عن نكاح الكتابيات كلامًا جميلًا، يؤكد الواقع

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٢٩٣.

الذي نعيش فيه ويعمل على معالجة ما يقبل الشباب المسلم على الافتتان به، وأخيرًا يمكن القول: إن إباحة زواج المسلم بالكتابية هو في الواقع حالة استثنائية، وليست أصلًا، ولذا فإنا نشجب إقبال الشبان على الزواج بالأجنبيات؛ افتتانًا بالجمال الأشقر، واستسهالًا للزواج، لكونه بغير مهر يذكر؛ لأن تلك الزوجات تفسد على الرجل غالبًا دينه ووطنيته، وتعزله عن انتمائه لبلاده وقومه، وتربي الأولاد على هواها ودينها، فضلًا عن نظرة الاستعلاء والفوقية عندها، واحتقار العرب والمسلمين، وقد تقتل الزوج، وقد تأخذ الأولاد إلى بلادها وتترك الزوج، وقليل جدا منهن من أسلم، فلا مطمع فيهن.

وأما زواج المسلمة بغير المسلم فهو أشد وأنكى؛ إذ الزواج باطل حرام بإجماع المسلمين، والأولاد أولاد زنا، والعلاقة القائمة بينها وبين الرجل لا تجيز الاستمتاع وإن طال الأمد؛ لبطلانها أصلا، فإن استحلت المرأة ذلك فهي مرتدة كافرة[(١)].

ثانيًا: مشكلات الزوجين:

أولًا: الظهار:

الظهار: قول الرجل لامرأته: أنتِ علي كظهر أمي[(٢)].

والظهار من المشكلات التي قد تقع بين الزوجين، وقد أوجد القرآن الكريم الحلول لهذه المشكلة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٣-٤].

وهذا هو المجمع عليه عند العلماء في الظهار قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، فإذا قال لها ذلك فليست تحل له حتى يكفر كفارة الظهار التي أوجبها الله على المظاهر بعتق رقبة، فإذا لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا، يعطي كل مسكين مدًا من غالب قوت أهل البلد، وهذه الكفارة لها وقعها في نفوس المحتاجين[(٣)].

وبهذا يعالج القرآن مشكلة اجتماعية طالما أفسدت على الأسر حياتهم.

ثانيًا: الإيلاء:

الإيلاء: حلف على ترك قربان المرأة

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٢٩٦.

(٢) انظر: أنيس الفقهاء، قاسم القونوي ١/ ٥٧.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٨٠.

مدته[1].

وقد تحدث القرآن عن الإيلاء، فقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦ - ٢٢٧].

يقول سيد قطب في سياق تفسير الآية: «إن هناك حالات نفسية واقعة، تلم بنفوس بعض الأزواج، بسبب من الأسباب في أثناء الحياة الزوجية وملابساتها الواقعية الكثيرة، تدفعهم إلى الإيلاء بعدم المباشرة، وفي هذا الهجران ما فيه من إيذاء لنفس الزوجة ومن إضرار بها نفسيًا وعصبيًا ومن إهدار لكرامتها كأنثى، ومن تعطيل للحياة الزوجية ومن جفوة تمزق أوصال العشرة، وتحطم بنيان الأسرة حين تطول عن أمد معقول.

ولم يعمد الإسلام إلى تحريم هذا الإيلاء منذ البداية؛ لأنه قد يكون علاجًا نافعًا في بعض الحالات للزوجة الشامسة المستكبرة المختالة بفتنتها وقدرتها على إغراء الرجل وإذلاله أو إعناته، كما قد يكون فرصة للتنفيس عن عارض سأم، أو ثورة غضب، تعود بعده الحياة أنشط وأقوى.. ولكنه لم يترك الرجل مطلق الإرادة كذلك؛ لأنه قد يكون باغيًا في بعض الحالات يريد إعنات المرأة وإذلالها أو يريد إيذاءها لتبقى معلقة، لا تستمتع بحياة زوجية معه، ولا تنطلق من عقالها هذا لتجد حياة زوجية أخرى.

فتوفيقًا بين الاحتمالات المتعددة، ومواجهة للملابسات الواقعية في الحياة، جعل هنالك حدًا أقصى للإيلاء لا يتجاوز أربعة أشهر، وهذا التحديد قد يكون منظورًا فيه إلى أقصى مدى الاحتمال؛ كي لا تفسد نفس المرأة، فتتطلع تحت ضغط حاجتها الفطرية إلى غير رجلها الهاجر، وعلى أية حال فإن الطبائع تختلف في مثل هذه الأمور، ولكن أربعة أشهر مدة كافية ليختبر الرجل نفسه ومشاعره. فإما أن يفيء ويعود إلى استئناف حياة زوجية صحيحة، ويرجع إلى زوجه وعشه، وإما أن يظل في نفرته وعدم قابليته، وفي هذه الحالة ينبغي أن تفك هذه العقدة، وأن ترد إلى الزوجة حريتها بالطلاق»[2].

يتبين مما سبق أن الله سبحانه رحيم بأمته، حيث أوجد الحلول لكل مشكلة تحاول أن تعصف بالأسرة، ومشكلة الإيلاء من المشكلات التي عالجها القرآن الكريم، وأوجد الحلول لها حتى يعيش المجتمع في استقرار وأمان.

ثالثًا: الطلاق:

الطلاق: إزالة عقد النكاح[3].

---

(١) انظر: أنيس الفقهاء، قاسم القونوي ١/ ٥٦.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٢٤٥.

(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، موقع يعسوب

وقد عرض القرآن الكريم في بعض سوره للحديث عن هذه المشكلة التي قد تواجه كثيرًا من الأسر، بل سمى سورة من سور القرآن باسم سورة الطلاق، وحذر منه، وأوجد العلاج الناجع للتعامل مع كل حالة من حالاته، حتى تبقى الأسرة المسلمة في أمن وأمان، ويأخذ كل صاحب حق حقه، وبالتالي يعيش المجتمع المسلم سليمًا بعيدًا عن الفوضى والاضطراب، وقد بين المفسرون أحكام الطلاق عند حديثهم عن الآيات التي تتناول ذلك، ومن هؤلاء الشوكاني الذي يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾[البقرة: ٢٣٦-٢٣٧].

«واعلم أن المطلقات أربع: مطلقة مدخول بها مفروض لها، وهي التي تقدم ذكرها قبل هذه الآية: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وفيها نهى الأزواج عن أن يأخذوا مما آتوهن شيئًا، وأن عدتهن ثلاثة قروء، ومطلقة غير مفروض لها، ولا مدخول بها، وهي المذكورة هنا، فلا مهر لها، بل المتعة، وبين في سورة الأحزاب أن غير المدخول بها إذا طلقت فلا عدة عليها، ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾[الأحزاب: ٤٩].

ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها وهي المذكورة بقوله سبحانه هنا: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤]»[1].

رابعًا: النشوز:

النشوز: ترك المرأة بيت الزوجية من غير مبرر مشروع[2].

سبق وأن تم الحديث عن نشوز المرأة، وعلاج هذا النشوز، كما بينه قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

أما من ناحية نشوز الرجل فقد عالج القرآن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ

١/ ٢٩١.

(١) فتح القدير ١/ ٣٣٩.
(٢) انظر: أنيس الفقهاء، قاسم القونوي ١/ ٤٨٠.

﴿مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ [النساء: ١٢٨].

يقول سيد قطب: «فإذا خشيت المرأة أن تصبح مجفوة وأن تؤدي هذه الجفوة إلى الطلاق - وهو أبغض الحلال إلى الله - أو إلى الإعراض، الذي يتركها كالمعلقة، لا هي زوجة ولا هي مطلقة، فليس هنالك حرج عليها ولا على زوجها، أن تتنازل له عن شيء من فرائضها المالية أو فرائضها الحيوية، كأن تترك له جزءًا أو كلًا من نفقتها الواجبة عليه، أو أن تترك له قسمتها وليلتها، إن كانت له زوجة أخرى يؤثرها، وكانت هي قد فقدت حيويتها للعشرة الزوجية أو جاذبيتها هذا كله إذا رأت هي-بكامل اختيارها وتقديرها لجميع ظروفها- أن ذلك خير لها وأكرم من طلاقها... ثم يعقب على الحكم بأن الصلح إطلاقًا خير من الشقاق والجفوة والنشوز والطلاق: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ فينسم على القلوب التي دبت فيها الجفوة والجفاف، نسمة من الندي والإيناس، والرغبة في إبقاء الصلة الزوجية والرابطة العائلية»[1].

يتبين مما سبق أن القرآن الكريم ذكر علاجًا ناجعًا في حال أحد الزوجين، وهذا العلاج الناجع الذي ذكره القرآن الكريم؛ ليزيد الأسرة قوةً وارتباطًا، ويهيىء الحياة الكريمة السعيدة داخل الأسرة بعيدًا عن المشاحنات.

خامسًا: قذف الزوجة:

القذف: الرمي بالزنا خاصة، صراحةً أو ضمنًا[2].

إن قذف الزوجة يختلف عن قذف الأجنبية، حيث إن ضرر القذف لا ينحصر في المقذوفة فقط بل يقع على القاذف، وهو الزوج من حيث الفضيحة التي تطاله، وصحة نسبة أبنائه إليه؛ لذا فإن الزوج غالبًا لا يقذف زوجته إلا صادقًا، ولهذا وضع القرآن الكريم الحلول لمثل هذه المشكلة.

فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٦-١٠].

فهذه الآية الكريمة فيها الفرج والمخرج للأزواج، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة؛ أن يلاعنها، كما أمر الله عز وجل، وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٦٨.

(٢) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس حامد قنيبي ١/ ٣٥٩.

أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء، ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فيما رماها به من الزنى ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحرمت عليه أبدًا، ويعطيها مهرها، ويتوجه عليها حد الزنى، ولا يدرأ عنها العذاب إلا إن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، أي: فيما رماها به، ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ولهذا قال: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ يعني: الحد، ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنى إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به. ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها. والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه.

ثم ذكر تعالى لطفه بخلقه، ورأفته بهم، وشرعه لهم الفرج والمخرج من شدة ما يكون فيه من الضيق[1].

سادسًا: الشقاق:

الشقاق: أن ينال الفرد من صاحبه ما كربه وآذاه وأثقلته مساءته[2].

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

والمعنى: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة حتى يكون كل منهما في شق ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ أي: رجلين مكلفين مسلمين عدلين عاقلين يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق.

فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك، قنعا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه.

فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما إلا على وجه المعاداة والمقاطعة ومعصية الله، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح؛ فرقا بينهما[3].

يتبين مما سبق رأفة الله سبحانه بعباده، ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج، ومن شدة ما يكون بهم من الضيق، ومن وقوع هذه المشكلة التي لا علاج لها سوى ما ذكره الله تعالى من

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٦٠٢.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٧٧.

الأحكام التي سبق ذكرها.

ثانيًا: مشكلات الأبناء:

يعتبر استقرار الأسرة من أقوى دعائم تربية الأولاد تربية صالحة، والعمود الفقري في ذلك قوة العلاقة بين الزوجين والاحترام المتبادل بينهما حقيقةً لا تكلفًا، وما قد يحدث بينهما من مشكلات أو اختلاف يجب ألا يكون أمام الأبناء بل في معزل عنهم، ويجب على كل واحد منهم أن يعظم قدر الآخر في نظر الأولاد ويحافظ على هيبته ومكانته، ومن هذه المشكلات ما يلي:

١ . عقوق الوالدين.

تمثل ذلك في قصة الابن العاق الذي ورد في القرآن متمردًا ورافضًا ما يدعوه إليه والداه من الخير والإيمان، مصرًا على الكفر والانحراف.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

يقول سيد قطب: «فالوالدان مؤمنان، والولد العاق يجحد برهما أول ما يجحد فيخاطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾... ثم يجحد الآخرة بالحجة الواهية: ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾.. أي: ذهبوا ولم يعد منهم أحد.. والساعة مقدرة إلى أجلها، والبعث جملة بعد انتهاء أجل الحياة الدنيا، ولم يقل أحد إنه تجزئة، يبعث جيل مضى في عهد جيل يأتي، فليست لعبةً وليست عبثًا، إنما هو الحساب الختامي للرحلة كلها بعد انتهائها! والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر، ويفزعان مما يقوله الولد العاق لربه ولهما، ويرتعش حسهما لهذا التهجم والتطاول ويهتفان به: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.. ويبدو في حكاية قولهما الفزع من هول ما يسمعان، بينما هو يصر على كفره، ويلج في جحوده: ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.. هنا يعاجله الله بمصيره المحتوم»[1].

وقد ظهر ذلك أيضًا من موقف ابن سيدنا نوح عليه السلام مع أبيه حيث رفض الاستجابة له، والالتحاق بهم في السفينة، والانصياع لدين الله سبحانه فكان عاقبته الموت غرقًا.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٣].

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٦٣.

وهكذا يفرق الضلال بين الابن وأبيه، حتى ليأبى الولد وهو بين يدي هذا البلاء المحيط به أن يستجيب لأبيه، وأن يستمع له، فيخرج عن أمره، وهو يدعوه إلى ما فيه سلامته ونجاته، وهكذا يوفى كل من الأب والابن جزاء ما كسب، فينجو الأب بإيمانه، ويهلك الابن الكافر بكفره[1].

٢. الغيرة والحسد بين الأبناء.

العدل بين الأبناء مهم جدًا لاستقرار الحياة داخل الأسرة، وقد أظهر القرآن الكريم أن الغيرة بين الأبناء قد تؤدي إلى أن يفكر بعض الأبناء في إيذاء أو قتل بعضهم البعض بسبب ذلك، ونفهم ذلك من القصص الواردة في القرآن، التي تعرض لمثل هذه الحوادث، ومن ذلك ما حصل بين قابيل وهابيل.

قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

قال الزحيلي: «أورد الله تعالى هذه القصة لبيان تأثير الحسد والحقد وحب الذات، وأن ذلك يؤدي إلى المخاطر والمهالك والقبائح، فقضى على رابطة الأخوة التي تجمع بين الأخوين، وأدى إلى سفك الدماء»[2].

ومن الأمثلة التي تؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٧-٩].

والمعنى: أن هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم؛ ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم، وتكونوا من بعد إعدامه قومًا صالحين[3].

٣. سرعة الغضب وعدم التحكم في الأقوال والأفعال.

من المشكلات التي يقع فيها الأبناء، هي سرعة الغضب وعدم التحكم في الاقوال والأفعال، وقد حذر القرآن الكريم الأبناء من الوقوع في هذه المشكلة؛ لأنها تؤدي إلى إيذاء الآخرين وتوقعهم فيما لا تحمد عقباه، وخصوصًا سخط الله سبحانه وكذلك سخط الآباء.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾ [الإسراء: ٢٣].

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب٦/ ١١٤١.

(٢) التفسير المنير ٦/ ١٥٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٢.

والمعنى: لا تؤفف من شيء تراه من أحدهما أو منهما مما يتأذى به الناس، ولكن اصبر على ذلك منهما، واحتسب في الأجر صبرك عليه منهما، كما صبرا عليك في صغرك[1].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ [الأحقاف: ١٧].

أي: قال لأبويه حينما دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر: أف لكما، أي: أتضجر وأتبرم مما تقولانه، أتنما تخبرانني أنني سأبعث من قبري بعد الموت لموعد الله؟ إن هذا البعث بعد الموت المستبعد مستنكر، فقد مضت الأمم السابقة الكثيرة من قبلي، كعاد وثمود، ماتوا ولم يبعث منهم أحد، وذهبوا ولم يرجع منهم مخبر[2].

٤. التلفظ بالألفاظ النابية مع الآخرين.

حذر القرآن الكريم المسلمين من استخدام الألفاظ النابية، التي تثير الحقد وتدفع إلى الكراهية، وبالتالي لابد للمسلم أن يربي أبناءه على اجتناب مثل هذه الألفاظ، حتى يكون أبناؤه مثالًا يقتدى في الأخلاق الحميدة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[الحجرات: ١١].

بين القرآن ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن، فذكر أنه لا ينبغي أن يسخر منه ولا أن يعيبه بالهمز واللمز، ولا أن يلقبه باللقب الذي يتأذى منه؛ لأن ذلك من الأمور التي تؤدي إلى ضياع الأمة وتفشي الظلم والكراهية فيها[3].

هذا وقد بين القرآن الكريم أهمية خفض الصوت أثناء الحديث مع الآخرين في الحديث عن وصايا لقمان لابنه قال تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

قال سيد قطب: «والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته، وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلا سيء الأدب، أو شاك في قيمة قوله، أو قيمة شخصه يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق! والأسلوب القرآني يرذل هذا الفعل ويقبحه في صورة منفرة محتقرة بشعة حين يعقب عليه بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.. فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية، مع النفور والبشاعة»[4].

٥. الصحبة السيئة.

قد يقع بعض الأبناء في سوء اختيار الصديق، مما يؤدي إلى تأثيرات سلبية على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤١٥.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ٤٣.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٦/ ١٣٣.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٩٠.

هذا الابن وعلى أسرته من حوله، حيث إنه يتعلم من هذه الصحبة السيئة أمورًا تؤدي إلى انحراف سلوكه في المجتمع وداخل الأسرة انحرافًا كبيرًا، فيتفشى لديه الكذب، وقد يتعاطى المخدرات، وبالتالي يهمل في دروسه، الأمر الذي يؤدي به إلى السرقة، أو القتل، فتكون نهايته وخيمة في الدنيا والآخرة، لذا يجب على الوالدين متابعة أبنائهم في ذهابهم وإيابهم، ومعرفة من يتقرب إليهم ويحيط بهم، ومساءلتهم عند التقصير، وقد حذرنا القرآن الكريم من رفقاء السوء، فقال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

يقول سيد قطب: «وإن عداء الأخلاء لينبع من معين ودادهم.. لقد كانوا في الحياة الدنيا يجتمعون على الشر، ويملي بعضهم لبعض في الضلال، فاليوم يتلاومون، واليوم يلقي بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشر. واليوم ينقلبون إلى خصوم يتلاحون، من حيث كانوا أخلاء يتناجون! ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.. فهؤلاء مودتهم باقية فقد كان اجتماعهم على الهدى، وتناصحهم على الخير، وعاقبتهم إلى النجاة»[1].

٦. الطمع في ملذات الحياة الدنيا.

قد يتربى الأبناء على الاهتمام بتحصيل ما يستطيعون من ملذات الحياة والانشغال عن حقوق الله سبحانه ، وقد تناول القرآن بيان ذلك عند حديثه عن أصحاب الجنة، التي طمع أصحابها في ثمر جنتهم، واتفقوا على عدم إعطاء الفقراء منه، كما كان يفعل والدهم فأحرق الله لهم جنتهم عقابًا لهم على ما فعلوه، فتابوا إلى الله سبحانه، ورجعوا نادمين على فعلتهم[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧-٢٠].

يتبين مما سبق أن الأبناء قد يقعون في مثل هذه المشكلات، بل أكثر من ذلك إذا وجدت الأرض الخصبة لذلك، لذا لابد من الوالدين القيام بواجباتهم تجاه أبنائهم على أكمل وجه، حتى يكونوا صالحين نافعين لهم ولوطنهم، وقد ذكر القرآن في موضعين أن الأولاد كالأموال فتنة يجب الحذر منها وإعدادها إعدادًا سليمًا لتكون عنصر بناءٍ لا عنصر هدم في مجتمعها، وحتى لا تكون وبالًا وخسارًا على نفسها ومن حولها.

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

يقول أبو حيان عند تفسيره للآية: «أي:

(١) المصدر السابق ٥/ ٣٢٠١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٩٦.

سبب الوقوع في الفتنة وهي الإثم أو العذاب أو محنة واختبار لكم، وكيف تحافظون على حدوده فيها، ففي كون الأجر العظيم عنده إشارة إلى أن لا يفتن المرء بماله وولده، فيؤثر محبته لهما على ما عند الله، فيجمع المال ويحب الولد حتى يؤثر ذلك»[1].

الأسرة في القرآن والمواثيق الدولية

إن مما لاشك فيه أن الوضع الفطري الطبيعي بالنسبة للرجل أن تكون له زوجة يرتبط بها برباط وثيق يجمعهما، ويتعاونان من خلاله على إنشاء أسرة متماسكة قوية البنيان؛ لإنجاب النسل الصالح الذي يرفد المجتمع بأفراد صالحين، يرثون عن سلفهم مسئوليات المجتمع، لكن هناك من انحرف عن جادة الصواب وخالف الفطرة الإنسانية، وشذ عن الطبيعة التي فطر الله سبحانه الناس عليها، فابتلاهم الله سبحانه بالأمراض والأوبئة التي لم تكن في أسلافهم.

أولًا: الأسرة في القرآن:

الأسرة في نظر القرآن كيان مقدس، وهي اللبنة الصالحة الأساسية في بناء المجتمع الإنساني السليم، ولهذا أولى القرآن بناءها عناية خاصة، وأحاط إنشاءها بأحكام وآداب تكفل أن يكون البناء متماسكًا قويًا، يحقق الغاية الكبرى من وجوده، وجعل الزواج ميثاقًا محكمًا تأخذه المرأة على زوجها.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

قال الطبري: «وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك، قول من قال: الميثاق الذي عني به في هذه الآية: هو ما أخذ للمرأة على زوجها

(١) البحر المحيط ٥/٣٠٨.

عند عقدة النكاح من عهدٍ على إمساكها بمعروف أو تسريحها بإحسان، فأقر به الرجل؛ لأن الله -جل ثناؤه- بذلك أوصى الرجال في نسائهم»[1].

وقال الشعراوي عند تفسيره للآية: «والميثاق هو: العهد يؤخذ بين اثنين، ساعة سألت وليها: زوجني، فقال لك: زوجتك، ومفهوم أن كلمة الزواج هذه ستعطي أسرة جديدة، وكل ميثاق بين خلق وخلق في غير العرض هو ميثاق عادي، إلا الميثاق بين الرجل والمرأة التي يتزوجها؛ فهذا هو الميثاق الغليظ، أي: غير اللين، والله لم يصف به إلا ميثاق النبيين فوصفه بأنه غليظ، ووصف هذا الميثاق بأنه غليظ، ففي هذه الآية ﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ فهنا إفضاء، وفي آية أخرى يكون كل من الزوجين لباسًا وسترًا للآخر ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ لهذا كان الميثاق غليظًا.

وهذا الميثاق الغليظ يحتم عليك إن تعثرت العشرة أن تتحملها وتعاملها بالمعروف، وإن تعذرت وليس هناك فائدة من استدامتها فيصح أن تستبدلها، فإن كنت قد أعطيتها قنطارًا إياك أن تأخذ منه شيئًا، لماذا؟ لأن ذلك هو ثمن الإفضاء، وما دام هذا القنطار هو ثمن الإفضاء وقد تم، فلا تأخذ منه شيئًا، فالإفضاء ليس شائعًا في الزمن كي توزعه، لا والحق يقول: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ هنا يجب أن نفهم أن الحق حين يشرع فهو يشرع الحقوق، ولكنه لا يمنع الفضل، بدليل أنه قال: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤]»[2].

ولم يقتصر القرآن الكريم على اعتبار الميثاق في الأسرة ما يكون بين المرء وزوجه، بل اعتبر أن طلب الميثاق يكون من الأب لأبنائه، وهذا ما ذكره القرآن الكريم عند حديثه عما جرى في قصة يوسف عليه السلام، عندما طلب يعقوب من أبنائه الميثاق حتى يوافق على اصطحاب أخيهم بنيامين لهم في رحلتهم لجلب المؤنة من مصر.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦].

قال الشوكاني: «﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ حتى تحلفوا بالله لتأتنني به، أي: لتردن بنيامين إلي، والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ هو من أعم العام؛ لأن ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ وإن كان كلامًا مثبتًا فهو في معنى النفي، فكأنه قال: لا تمنعون من إتياني به

(١) جامع البيان ٨/ ١٣٠.

(٢) تفسير الشعراوي ١/ ١٤٢٤.

في حال من الأحوال لعلة من العلل إلا لعلة الإحاطة بكم، والإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو، ومن أحاط به العدو فقد غلب أو هلك، فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين إلا أن تغلبوا عليه أو تهلكوا دونه، فيكون ذلك عذرًا لكم عندي ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ﴾ أي: أعطوه ما طلبه منهم من اليمين ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ أي: قال يعقوب: الله على ما قلناه من طلبي الموثق منكم وإعطائكم لي ما طلبته منكم مطلع رقيب، لا يخفى عليه منه خافية، فهو المعاقب لمن خاس في عهده، وفجر في الحلف به، أو موكول إليه القيام بما شهد عليه منا»[1].

ثانيًا: الأسرة في المواثيق الدولية:

هناك عدد من القضايا المهمة تتمحور حولها اتفاقيات الأمم المتحدة التي تمس الأسرة بشكل مباشر، وتؤثر عليها تأثيرًا خطيرًا، من حيث التركيب، والقيم، والهوية، والتماسك، من أهم تلك القضايا:

١. اعتبار الأسرة المكونة من رجل وامرأة ارتبطا برباط الزواج الشرعي أسرة نمطية تقف في طريق الحداثة، ويجب استبدالها بالنموذج اللا نمطي الإبداعي للأسرة.

٢. إقرار الشذوذ الجنسي، وإعطاء الشواذ كافة الحقوق منها الزواج، وتكوين أسر، بما يعني إقرار العلاقات غير الشرعية، سواءً بين الرجال والنساء، أو العلاقات الشاذة بين مثليي الجنس، فالأشكال المختلفة للأسرة تشمل النساء والرجال الذين يعيشون معًا بلا زواج، والشواذ، كما تشمل النساء اللائي يأتين بالأطفال سفاحًا، ويحتفظن بهؤلاء الأطفال فيقمن بالإنفاق عليهم، ويطلق على هذا التشكيل اسم الأسرة ذات العائل المنفرد، وتسمى الأم بـ(الأم المعيلة).

٣. العلاقات الجنسية في الاتفاقيات الدولية غير مرتبطة بالزواج الشرعي، فالجنس في الثقافة الغربية هو كالماء والهواء، وأنه ضمن الاحتياجات الفسيولوجية للجسم، بما يعني أنه لا يحق لكائن من كان أن يجبر آخر على أن يكبت رغبته الجنسية إلى مرحلة سنية معينة، وقد ورد في تقرير لجنة الخبراء الصادر عن قسم الارتقاء بالمرأة في الأمم المتحدة، تحت عنوان -القضاء على جميع أشكال العنف والتمييز ضد الطفلة الأنثى-: «كثير من أسوء أشكال العنصرية والعنف ضد الفتيات تحدث في بيوتهم ومجتمعاتهم، مجتمعات الرجال والأولاد دائمًا تركز على التحكم

---

(١) فتح القدير ٤/ ٥٠.

الجنسي والإنجابي، والكبت الجنسي للفتيات شاملًا التركيز الشديد على عذرية الفتاة وخصوصيتها بما يقود للتميز وإذعان الفتيات».

٤. تعتبر الوثائق الدولية قوامة الرجل في الأسرة- والتي تشير إليها بانعدام المساواة في علاقات القوة بين الرجل والمرأة- من أسباب تعويق حصول المرأة على الجنس الآمن، حيث إن الزوج قد لا يوافق على استخدام تلك الوسائل، كما في (البند ٩٨- بكين): «الضعف الاجتماعي وانعدام المساواة في علاقات القوة بين النساء والرجال هما من العقبات التي تعترض الممارسة الجنسية المأمونة».

٥. الأمومة ليست صفة لصيقة بالمرأة اقتضاها تكوينها البيولوجي والنفسي، بل هي وظيفة اجتماعية يمكن أن يقوم بها أي إنسان آخر؛ لذا نادى تفسير الأمم المتحدة للاتفاقية بضرورة وضع نظام إجازة للآباء لرعاية الأطفال، وقد جاء إعلان بكين ليؤكد على نفس المطلب، بل وجعله هدفًا استراتيجيًا، فجاء ليحث الحكومات على القيام عن طريق التشريعات، بتوفير الحوافز والتشجيع على تهيئة الفرص للنساء والرجال على الإجازات الوالدية، وتشجيع التقاسم المتساوي لمسئوليات الأسرة بين الرجل والمرأة، بما في ذلك عن طريق التشريعات الملائمة والحواف. كما يجب توفير شبكات من دور رعاية الطفل حتى تتفرغ الأم لمهمتها الأساسية، وهي العمل بأجر خارج البيت[١].

يتضح مما سبق أن هناك فارقًا كبيرًا بين مكانة الأسرة في قرآننا العظيم وبين مكانة الأسرة في المواثيق الدولية، حيث إن القرآن العظيم حفظ الأسرة ورعاها وحماها زوجًا وزوجةً وأبناءً وآباءً، وعرف كل واحد من أفراد الأسرة ما له وما عليه، فإن التزم كل واحد منهم بذلك سعدوا جميعًا، بخلاف ما أعطته المواثيق الدولية المنبثقة من القوانين الوضعية لكل فرد من أفراد الأسرة من تحلل وانحراف وإباحة لكل ما حرم الله سبحانه، حتى اختلطت الأنساب، وانتشرت بينهم الأمراض التي لم تكن في أسلافهم، وترجلت المرأة وتخنث الرجل، وأصبح المجتمع فوضى لا مجال للأخلاقيات فيه.

والله المستعان..

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الأخوة، الطلاق، النكاح، اليتيم.

(١) انظر: مصطلح الأسرة في المواثيق الدولية، كاميليا حلمي ٤/ ٥٠.



أسماء الله الحسنى

عناصر الموضوع



مفهوم أسماء الله الحسنى

أولًا: المعنى اللغوي:

الاسم لغة:

ذكر الجوهري أن في الاسم أربع لغات: «اسم» بكسر الهمزة وضمها، و«سم» بكسر السين وضمها، وهو مشتق من السمو والعلو[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الاسم مشتق من السمو وهو العلو كما قال النحاة البصريون؛ لأن الاسم يظهر به المسمى ويعلو، فيقال للمسمي: «سمه» أي: أظهره، و«أعله» أي: أعل ذكره بالاسم الذي يذكر به»[(٢)].

«وقيل: هو اللفظ الموضوع لمعنًى تعيينًا أو تمييزًا، وقيل: هو العلامة توضع على الشيء يعرف بها»[(٣)].

الحسنى لغة:

حسنى على وزن (فعلى) تأنيث أفعل التفضيل، فحسنى تأنيث أحسن، ككبرى تأنيث أكبر، وصغرى تأنيث أصغر، ولذلك يخطئ من يقول: «إنها تأنيث حسن»؛ لأن تأنيث (حسن) (حسنة)، ومن أجل ذلك لا يصح أن نقول: «إن أسماء الله حسنة»، والصواب هو أن نقول: «إن أسماء الله حسنى» كما وصفها الله بذلك[(٤)].

والحسنى في اللغة: جمع الأحسن، لا جمع الحسن، فإن جمع الحسن حِسان وحَسَنَة، فأسماء الله تعالى التي لا تحصى كلها حُسْنَى، أي: أنها أحسن الأسماء.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الأسماء الحسنى المعروفة هي التي يدعى الله بها، وهي التي جاءت في الكتاب والسنة، وهي التي تقتضي المدح والثناء بنفسها»[(٥)].

(١) انظر: الصحاح ٦/ ٢٣٨٣.
(٢) مجموع الفتاوى ٦/ ٢٠٧.
(٣) معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، التميمي ص ٢٩.
(٤) انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، التميمي ص ٣٠.
(٥) شرح العقيدة الأصفهانية ص٣١.



إحصاء أسماء الله الحسنى

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة)[1].

أولًا :معنى الإحصاء:

قيل في معنى الإحصاء عدة أقوال، بيانها فيما يلي[2]:

١ . الحفظ.

أن يعدها حتى يستوفيها حفظًا ويدعو ربه بها، ويثني عليه بجميعها.

قال تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[الجن: ٢٨].

ودليل ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (لله تسعة وتسعون اسمًا، من حفظها دخل الجنة)[3].

قال ابن حجر: «لا يلزم من مجيئه بلفظ: (حفظها) تعيين السرد عن ظهر قلب، بل يحتمل الحفظ المعنوي»[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم، رقم ٧٣٩٢، ٩/ ١١٨.
(٢) انظر: النهج الأسمى، النجدي ١/ ٥٢، ٥٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدا، ٩/ ١١٨، رقم ٧٣٩٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله، ٤/ ٢٠٦٢، رقم ٢٦٧٧.
(٤) فتح الباري ١١/ ٢٢٦.

٢ . الإطاقة.

كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠] أي: لن تطيقوه[5]، وكقول النبي صلى الله عليه وسلم: (استقيموا ولن تحصوا..). أي: لن تبلغوا كل الاستقامة، فيكون المعنى: أن يطيق الأسماء الحسنى، ويحسن المراعاة لها وأن يعمل بمقتضاها، وأن يعتبرها فيلزم نفسه بواجبها، فإذا قال: «يا رحمن يا رحيم»، تذكر صفة الرحمة، واعتقد أنها من صفات الله سبحانه، فيرجو رحمته ولا ييأس من مغفرته، وإذا قال: «السميع البصير»، علم أنه يراه ويسمعه، وأنه لا تخفى عليه خافية، وأنه يعلم السر كما يعلم العلن، ويعلم الباطن كما يعلم الظاهر، فيحافظ على قدسيتها ويرعى حرمتها، فيخافه في سره وعلنه، ويراقبه في كافة أحواله، فإذا حدثته نفسه بمعصيةٍ ذكرها بقدرة الله وعظمته وأسمائه وصفاته؛ لعلها تنزجر[6].

٣ . العقل والمعرفة.

فيكون معناه أن من عرفها، وعقل معانيها، وآمن بها دخل الجنة. وهو مأخوذ من الحصاة وهي: العقل، والعرب تقول: فلان ذو حصاة، أي: ذو عقل ومعرفة

(٥) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٤٦٠.
(٦) انظر: شأن الدعاء، الخطابي ص٢٧-٢٨، فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٢٢٥-٢٢٦.

بالأمور[(١)].

ومن كرم الله تعالى، أن من حصل له إحصاء هذه الأسماء على إحدى هذه المراتب مع صحة النية أن يدخله الله الجنة؛ وهذه المراتب الثلاثة للسابقين والصديقين وأصحاب اليمين[(٢)].

قال ابن القيم: «إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم؛ فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقًا له تعالى أو أمرًا، إما علم بما كونه أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى، وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم، والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فأمره كله مصلحة وحكمة ولطف وإحسان؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنى، وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنى، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلًا ولا سدًى ولا عبثًا، وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده، فوجود من سواه تابع لوجوده تبع المفعول المخلوق لخالقه، فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواه، فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم؛ إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها. وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى، ولهذا لا تجد فيها خللًا ولا تفاوتًا؛ لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله إما أن يكون لجهله به، أو لعدم حكمته، وأما الرب تعالى فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض»[(٣)].

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في معنى الإحصاء[(٤)]:

١. الإحاطة بها لفظًا ومعنى.

٢. دعاء الله بها، لقوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وذلك بأن تجعلها وسيلة لك عند الدعاء، فتقول: «يا ذا الجلال والإكرام»، «يا حي يا قيوم»، وما أشبه ذلك.

٣. أن تتعبد لله بمقتضاها، فإذا علمت أنه رحيم تتعرض لرحمته، وإذا علمت أنه غفور تتعرض لمغفرته، وإذا علمت أنه سميع اتقيت القول الذي يغضبه، وإذا علمت أنه بصير اجتنبت الفعل الذي لا يرضاه.

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٢٢٥.
(٣) بدائع الفوائد، ١/ ١٦٣.
(٤) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ٢/ ٢١٤.



وقال أيضًا: أما قوله صلى الله عليه وسلم: (إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة)[1]، فلا يدل على حصر الأسماء بهذا العدد، ولو كان المراد الحصر لكانت العبارة: إن أسماء الله تسعة وتسعون اسمًا من أحصاها دخل الجنة أو نحو ذلك[2].

أما عن رأي المفسرين في قضية إحصاء أسماء الله عز وجل، فقد قال الإمام الألوسي، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]: «والذي أراه أنه لا حصر لأسمائه- عزت أسماؤه- في التسعة والتسعين، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما قال عبدٌ قط إذا أصابه هم وحزن: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله عز وجل همه، وأبدله مكان حزنه فرحًا). قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟ قال: (أجل، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن)[3].

فهذا الحديث صريح في عدم الحصر، وحكى النووي اتفاق العلماء على ذلك، وأن المقصود من الحديث الإخبار بأن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، وهو لا ينافي أن له تعالى أسماء غيرها»[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا، رقم ٧٣٩٢، ٩/ ١١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله، ٤/ ٢٠٦٢، رقم ٢٦٧٧.

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ٢/ ٢١٤.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبدالله بن مسعود، رقم ٤٣١٨، ٧/ ٣٤١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٣٨٣.

(٤) روح المعاني، ٥/ ١١٥.

الإيمان بأسماء الله الحسنى

الإيمان بأسماء الله عز وجل ركن من أركان الإيمان بالله تعالى، وللإيمان بأسماء الله وصفاته أسس وقواعد يرتكز عليها، أصلها إثبات ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له رسله، ونفي ما نفوه، مع الجزم بنفي مماثلته لخلقه، وعدم الإلحاد في شيء منها.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: «إن الإيمان بأسماء الله الحسنى ومعرفتها يتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان وروحه، وأصله وغايته، فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد إيمانه وقوي يقينه»[1].

أركان الإيمان بأسماء الله وصفاته:

الأول: تنزيه خالق السموات والأرض عن مشابهة المخلوقين في الذات، والأسماء، والصفات، والأفعال.

الثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله من الأسماء، والصفات.

الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية أسماء الله، وصفاته، وأفعاله[2].

فكما لا نعلم كيفية ذاته سبحانه لا نعلم كيفية أسمائه، وصفاته، وأفعاله، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

يقول محمد بن إبراهيم: «مذهب أهل السنة والجماعة الإيمان بما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته لفظًا ومعنًى، واعتقاد أن هذه الأسماء والصفات على الحقيقة لا المجاز، وأن لها معاني حقيقية تليق بجلال الله وعظمته، وأدلة ذلك أكثر من أن تحصر، ومعاني هذه الصفات ظاهرة معروفة من القرآن كغيرها لا لبس فيها ولا إشكال ولا غموض، فقد أخذ أصحاب رسول الله عنه القرآن، ونقلوا عنه الأحاديث، لم يستشكلوا شيئًا من معاني هذه الآيات والأحاديث؛ لأنها واضحة صريحة وكذلك من بعدهم من القرون الفاضلة»[3].

هناك مجموعة من الأسس التي تقوم عليها عقيدة أهل السنة والجماعة في قضية الإيمان بأسماء الله عز وجل، منها:

الأساس الأول: إثبات ما أثبته الله ورسوله.

قال الإمام الشافعي: «آمنت بما جاء عن الله، وبما جاء عن رسوله، على مراد رسول الله»[4].

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، ص ٤١.
(٢) مختصر الفقه الإسلامي، التويجري ص ٤٨.
(٣) فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم ١/ ٢٢٣.
(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٢.

ويدل على صحة هذا الأساس أمور منها:
أن أسماء الله غيبٌ لا يعرف إلا من قبل الوحي الصادق.
أن رد ما أثبته الله لنفسه، أو الرسول لربه، تكذيبٌ لله ولرسوله.
النصوص الآمرة بالإيمان بأسماء الله -عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].
وكما في قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤][1].

الأساس الثاني: اعتقادهم أن أسماء الله كلها حسنى، وصفاته كلها كاملةٌ عليا.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

قال ابن تيمية: «الكمال ثابت لله، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب تبارك وتعالى يستحقه بنفسه المقدسة»[2].

(١) انظر: الأسماء والصفات، الأشقر ص٩٩-١٠١.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/ ١٧

الأساس الثالث: تنزيه الباري تبارك وتعالى عن التشبيه والتمثيل وكل صفات النقـص.

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].
وقال أيضًا: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

يقول ابن تيمية: «الله سبحانه ليس كمثله شيء، لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة، وله أفعال حقيقة، فكذلك له صفات حقيقة، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وكل ما أوجب نقصًا أو حدوثًا، فإن الله منزه عنه حقيقة؛ فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه، ويمتنع عنه الحدوث لامتناع العدم عليه»[3].
وأهل السنة والجماعة يعرفون ربهم بأسمائه الواردة في القرآن والسنة، ويصفون ربهم بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ويثبتون لله ما أثبته لنفسه من غير تمثيل، ولا تكييف ولا تعطيل، ولا تحريف، وقاعدتهم في كل ذلك قول الله تبارك

(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٦.

وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]

فالإيمان بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله أساس بنيان الدين، وهو من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، ومتى كان الأساس راسخًا حمل البنيان، والأقوال والأعمال بنيان الدين، وسقفه الأخلاق الحسنة.

وأساس كل ذلك الإيمان بالله وأسمائه وصفاته وتوحيده بها، ومتى كان الأساس قويًا حمل البنيان، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه.

وإن كان الأساس غير وثيق لم يحمل البنيان، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان كله.

وعلى قدر إحكام الأساس يكون علو البنيان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥- ٦٦]

وأوثق أساس يبني عليه العبد بنيانه مركبٌ من أمرين:

معرفة الله وتوحيده بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.. وتجريد الانقياد لله ورسوله.

والقرآن كله بيان لهذا الأساس، وترسيخ له، ودعوة إلى إتقانه، والعمل به، فهو الغاية التي خلق الله الخلق من أجلها كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٧]

وقد ذكر الله سبحانه في القرآن كثيرًا من أسمائه وصفاته وأفعاله، وأظهرها في آياته ومخلوقاته؛ ليعرف عباده بها، ليؤمنوا بها، وليعبدوه بموجبها، ويدعوه بها.

تعدد وتنوع أسماء الله الحسنى

أسماء الله الحسنى وصفاته العلى كثيرة لا تحد بعدد معين، ولا يحيط بعلمها إلا الله عز وجل الذي تسمى بها واتصف بها، فأسماؤه عز وجل متعددة ومتنوعة، وهذا ما سيوضحه البحث في الأسطر التالية.

أولًا: تعدد أسماء الله عز وجل:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

هذه الآية دلت على تعدد أسماء الله عز وجل بشكل واضح وصريح، فقال عز وجل ﴿الْأَسْمَاءُ﴾ وهو جمع (اسم).

قال الألوسي: «والذي أراه أنه لا حصر لأسمائه -عزت أسماؤه- في التسعة والتسعين»[1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة)[2].

«واتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصرٌ لأسمائه سبحانه وتعالى، فليس معناه أنه ليس له أسماءٌ غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء»[3].

ولهذا جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما قال عبد قط إذا أصابه همٌّ وحزن: «اللهم إني عبدك، وابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي»، إلا أذهب الله عز وجل همه، وأبدله مكان حزنه فرحًا).

قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟ قال: (أجل، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن)[4]، فهذا الحديث صريح في تعدد أسمائه عز وجل.

ثانيًا: تنوع أسماء الله عز وجل:

أسماء الله عز وجل كلها مترادفة في الدلالة على الذات، متباينة في الدلالة على الصفات، لدلالة كل اسم منها على

(١) روح المعاني، ٥/ ١١٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم، رقم ٧٣٩٢، ٩/ ١١٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧/ ٥.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٤٣١٨، ٧/ ٣٤١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٣٨٣.

معنى خاص مستفاد منه كالعظيم، والكبير، والعزيز، والخالق، والرزاق، والكريم، وغيرها من الأسماء الحسنى، فكل أسماء الله الحسنى تدل على ذات الله، وتدل على صفات متعددة للرب، كالخلق، والتصوير، والعلم، والقدرة، والرزق، والكرم، وهكذا[1].

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات يوم فدعا الله تعالى فقال: (يا الله، يا رحمن)، فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابيء ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين، فنزلت الآية[2].

وقال أبو السعود: «والضمير في (له) للمسمى؛ لأن التسمية له لا للاسم، وكان أصل الكلام (أيًا ما تدعو فهو حسن)، فوضع موضعه (فله الأسماء الحسنى) للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه؛ إذ حسن جميع أسمائه يستدعي حسن ذلك الاسمين، وكونها حسنى لدلالتها على صفات الكمال من الجلالة والجمال والإكرام»[3].

إن تنوع أسماء الله عز وجل ليس عبثًا، فأسماؤه عز وجل أعلام وأوصاف، أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني، وهي بالاعتبار الأول مترادفة؛ لدلالتها على مسمى واحد، وهو الله عز وجل، وبالاعتبار الثاني متباينة؛ لدلالة كل واحد منهما على معناه الخاص، فـ «الحي، العليم، القدير، السميع، البصير، الرحمن، الرحيم، العزيز، الحكيم» كلها أسماء لمسمى واحد وهو الله- سبحانه وتعالى-، لكن معنى الحي غير معنى العليم، ومعنى العليم غير معنى القدير، وهكذا.

وإنما قلنا بأنها أعلام وأوصاف لدلالة القرآن عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

فإن الآية الثانية دلت على أن الرحيم هو المتصف بالرحمة، ولإجماع أهل اللغة والعرف أنه لا يقال: «عليم» إلا لمن علم، ولا «سميع» إلا لمن سمع، ولا «بصير» إلا لمن له بصر، وهذا أمر أبين من أن يحتاج إلى دليل[4].

ومما يوضح الصورة أكثر في قضية تنوع

(١) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه، ابن عثيمين ١/ ١٢.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره، ١٧/ ٥٨٠.
(٣) إرشاد العقل السليم، ٥/ ٢٠٠.
(٤) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه، ابن عثيمين ١/ ٨.

أسماء الله عز وجل ما جاء في أواخر سورة الحشر.

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

[الحشر: ٢٣-٢٤]

ذكرت هذه الآيات بعضًا من أسمائه عز وجل، فكل اسم من أسمائه سبحانه له ما يميزه عن غيره، كقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ﴾ أي: المالك لجميع الأشياء، والحاكم على جميع المخلوقات، والمتصرف فيها تصرف المالك في ملكه[١]، وقوله ﴿الْقُدُّوسُ﴾ أي: المنزه عن كل نقص، البالغ أقصى ما يتصوره العقل في الطهارة، وفي البعد عن النقائص والعيوب، وعن كل ما لا يليق[٢]، وقوله: ﴿السَّلَامُ﴾ أي: ذو السلامة من كل ما لا يليق، أو ذو السلام على عباده في الجنة[٣] وهكذا...

وكما ورد عند أبي داود وصححه الألباني من حديث أنس رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا ورجلٌ يصلي ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى)**[٤].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٥٤.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٥/ ٣١٧.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الدعاء، ٢/ ٧٩، رقم ١٤٩٥.

اقتران أسماء الله الحسنى

لعل أكثر ما يشد انتباه قارئ القرآن (أسماء الله عز وجل) وما تحمل من كل معاني الكمال والقوة والعظمة، فنلاحظ أن أسماءه -جل وعلا- تأتي مفردة: كالقدير، والسميع، والبصير... إلخ، ومقترنة بعضها ببعضٍ، نحو: السميع البصير، الغفور الرحيم، الغني الحميد، النافع الضار.. وهكذا، وهذا الاقتران فيه حكمة عظيمة مما يدل على كمال الرب سبحانه وتعالى، وفي الأسطر الآتية سيتطرق البحث إلى قضية الاقتران ويذكر أمثلة لها لتتضح صورتها أكثر.

إن ظهور أثر هذه الأسماء ومتعلقاتها في الخليقة كظهور آثار سائر الأسماء الحسنى ومتعلقاتها، فكما أن اسمه الخالق يقتضي مخلوقًا، والبارئ يقتضي مبروءًا، والمصور يقتضي مصورًا ولا بد، فأسماؤه الغفار التواب تقتضي مغفورًا له وما يغفره له، وكذلك من يتوب عليه وأمورًا يتوب عليه من أجلها، ومن يحلم عنه ويعفو عنه، وما يكون متعلق الحلم والعفو، فإن هذه الأمور متعلقة بالغير، ومعانيها مستلزمة لمتعلقاتها[1].

فكل اسم من أسماء الله هو الأعظم في موضعه بظهور أثره في العباد، وحكمة الله في ترتيب المصالح المقصودة والغايات الحميدة، والله عز وجل من حكمته أيضًا أنه يقرن بين أسمائه في كثير من المواضع لتظهر دلالتها على أوصافه ككمال فوق الكمال، وجلال فوق الجلال، بحيث تتجلى عظمة رب العزة والجلال في أسمائه وصفاته وأفعاله، كما قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

وفيما يلي بعض الأمثلة على اقتران أسماء الله تعالى:

١ . اقتران العليم بالحكيم.

كقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

يفيد اقتران الاسمين أن الله سبحانه وتعالى حكيم في تعليمه ما شاء لمن يشاء، ومنعه ما شاء عمن يشاء، وفي هذا المعنى يقول ابن كثير: «﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك، وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء، لك الحكمة في ذلك والعدل التام»[2].

ويقول السعدي: «لما خلق الله آدم، وعلمه أسماء كل شيء مما جعله الله له، وبين يديه، وعجزت الملائكة عن معرفتها، وأنبأهم آدم بها ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا

(١) انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٨٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٧٥.

﴿مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فاعترفوا لله بسعة العلم، وكمال الحكمة»[1].

٢. اقتران التواب بالرحيم.

كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]

إذا تأملنا الآيات السابقة وجدنا أن التوبة موضوع أساسي في هذه الآيات، فناسب تذييل الآيات بذكر اسم (التواب)، حثًا للعباد عليها، وترغيبًا لهم فيها. واقترن اسم (الرحيم) مع (التواب)؛ لأن التوبة بقسميها، سواء كان التوفيق للتوبة، أو قبولها، فإن ذلك كله من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده؛ لأن بقاءهم على الذنب من غير توبة سبب للعقوبة، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أن يجعل التوبة سببًا لدفع العقوبة عنهم.

وفي هذا يقول الإمام الطبري: «وأما قوله: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، فإنه يعني أنه المتفضل عليه مع التوبة بالرحمة، ورحمته إياه إقالة عثرته وصفحه عن عقوبة جرمه»[2].

ومن رحمة الله سبحانه أنه لم يعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلهم ليتمكنوا من التوبة[3].

قال أبو السعود في اقتران الاسمين: «وفي الجمع بين الوصفين[4] وعدٌ بليغ للتائب بالإحسان مع العفو والغفران»[5].

٣. اقتران الواسع بالعليم.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]

قال الإمام الطبري في معنى ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: «يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال، والجود والتدبير، وأما قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ فإنه يعني أنه عليم بأفعالهم، لا

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن، ص ٦٠.
(٢) جامع البيان ١/ ١٩٥.
(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا، ١/ ٣٢١.
(٤) الوصفان اللذان يتضمنهما الاسمان.
(٥) إرشاد العقل السليم، ١/ ٩٢.

يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم»[(١)].

وقال السعدي: «واسع الفضل والصفات عظيمها، عليم بسرائركم ونياتكم. فمن سعته وعلمه وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر»[(٢)].

وفي الآية الثانية قال الطبري: «وأما قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فإنه يعني بذلك: والله واسع بفضله، فينعم به على من أحب، ويريد به من يشاء، (عليم) بمن هو أهل لملكه الذي يؤتيه، وفضله الذي يعطيه، فيعطيه ذلك لعلمه به، وبأنه لما أعطاه أهل، إما للإصلاح به، وإما لأن ينتفع هو به»[(٣)].

وقال ابن كثير: «﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحق»[(٤)].

وفي الآية الثالثة قال الطبري في تفسيره: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني -تعالى ذكره- بذلك: والله واسع أن يزيد من يشاء من خلقه المنفقين في سبيله على أضعاف السبعمائة التي وعده أن يزيده، عليم من يستحق منهم الزيادة»[(٥)].

وقال ابن القيم: «وقد ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها، وهما الواسع والعليم، فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه[(٦)]، فإن المضاعف واسع العطاء، واسع الغنى، واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق؛ فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها، فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته، بل يضع فضله موضعه لسعته ورحمته، ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه»[(٧)].

ويتضح مما سبق أن هذين الاسمين (واسع عليم) اقترنا لبيان سعة عطاء الله سبحانه وتعالى، وعلمه بمن يستحق هذا العطاء، والمواضع الأخرى من القرآن الكريم التي اقترن فيها هذان الاسمان لا تخرج عن المعنى المذكور.

٤ . اقتران السميع بالعليم.

كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم

(١) جامع البيان، ١/ ٤٠٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص١٢٩.
(٣) جامع البيان، ٢/ ٦٢٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٠٢.
(٥) جامع البيان ٣/ ٤٢.

(٦) العطن للإبل كالوطن للناس، وقد غلب على مبركها حول الحوض، ورجل رحب العطن أي: رحب الذراع، كثير المال، واسع الرحل. انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢٨٦.
(٧) أسماء الله الحسنى، ص ٣٠٠.

بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

تختلف مناسبة اقتران هذين الاسمين من آية إلى أخرى، وذلك لاختلاف موضوع الآيات، فالآية الأولى في شأن الدعاء، ولذا ناسب أن يختم الدعاء بالتوسل إلى الله سبحانه باستجابة الدعاء بهذين الاسمين، فالسميع بمعنى السامع للدعاء، أو مجيب الدعاء، والعليم بحال الداعي وحاجته، فإن البشر لو سأل بشرًا مثله لابد له أن يعلمه بحاله وما فيه من العوز، أما الله - سبحانه وتعالى- لا يخفى عليه شيء من حال الداعي، فهو السامع لدعائه، العالم بحاله.

وأما في الآية الثانية فإن اقتران هذين الاسمين يحمل معنى التهديد والوعيد لأعداء الله، فالله سبحانه وتعالى هو السامع لأقوالهم، العليم بأفعالهم.

قال الطبري: «فسيكفيك الله يا محمد هؤلاء الذين قالوا لك ولأصحابك: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ من اليهود والنصارى، إن هم تولوا عن أن يؤمنوا بمثل إيمان أصحابك بالله، وبما أنزل إليك، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وسائر الأنبياء غيرهم، وفرقوا بين الله ورسله، إما بقتل السيف، وإما بجلاء عن جوارك، وغير ذلك من العقوبات، فإن الله هو السميع لما يقولون لك بألسنتهم، ويبدون لك بأفواههم من الجهل والدعاء إلى الكفر والملل الضالة، العليم بما يبطنون لك ولأصحابك المؤمنين في أنفسهم من الحسد والبغضاء. ففعل الله بهم ذلك عاجلًا وأنجز وعده، فكفى نبيه صلى الله عليه وسلم بتسليطه إياه عليهم حتى قتل بعضهم وأجلى بعضًا، وأذل بعضًا وأخزاه بالجزية والصغار»[(١)].

قال ابن سعدي: «ولهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم؛ لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم، وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر، والبواطن، فإذا كان كذلك كفاك الله شرهم»[(٢)].

وفي الآية الثالثة أيضًا جاء اقتران الاسمين تهديدًا ووعيدًا لمن بدل الوصية، لذا قال القرطبي في تفسيره عن هذين

(١) جامع البيان، ١/ ٤٤٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص١٤٩.

الاسمين وما تضمناه من الصفات: «صفتان لله تعالى لا يخفى معهما شيء من جنف[(١)] الموصين وتبديل المعتدين»[(٢)].

وفي الآية الرابعة أيضًا يدل اقتران الاسمين فيها على التهديد لمن جعل الحلف مانعًا له من الخير، وفي ذلك يقول الطبري: «والله سميع لما يقوله الحالف منكم بالله إذا حلف، فقال: والله لا أبر، ولا أتقي، ولا أصلح بين الناس، ولغير ذلك من قيلكم وأيمانكم. عليم بما تقصدون وتبتغون بحلفكم ذلك الخير تريدون أم غيره، لأني علام الغيوب وما تضمره الصدور، لا تخفى علي خافية، ولا ينكتم عني أمر علن فظهر، أو خفي فبطن، وهذا من الله تعالى ذكره تهديد ووعيد ...»[(٣)].

الخلاصة: أن اقتران هذين الاسمين (السميع العليم) جاء في آيات الدعاء للإشعار بقربه وسمعه للداعين، وعلمه بأحوالهم، وفي الجزاء لبيان سماعه لأقوالهم وعلمه بأعمالهم من خير وشر.

٥. اقتران العزيز بالحكيم.

كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

تختلف مناسبة اقتران الاسمين من آية إلى أخرى، ففي الآية الأولى جاء اقتران الاسمين على لسان إبراهيم عليه السلام في دعائه لربه تعظيمًا وإجلالًا، فذكر اسم (العزيز) إشعارًا بقدرة الله سبحانه وتعالى على تحقيق مطلوبه، وذكر (الحكيم) تفاؤلًا بتحقيق الخير من الله - سبحانه وتعالى- لن يفعل بذريته إلا ما هو خير، وفي هذا يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: «إنك يا رب أنت العزيز القوي الذي لا يعجزه شيء أراده، فافعل بنا وبذريتنا ما سألناه وطلبناه منك. والحكيم: الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل، فأعطنا ما ينفعنا وينفع ذريتنا، ولا

(١) الجنف: الميل.
انظر: الصحاح، الجوهري، ٤/ ١٣٣٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ١٨٠.
(٣) جامع البيان ٢/ ٢٤٠.

ينقصك ولا ينقص خزائنك»[1].

ويقول السعدي: «كما أن بعثك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة، ففيه تمام عزتك، وكمال حكمتك، فإنه ليس من حكمة أحكم الحاكمين أن يترك الخلق سدى هملًا، لا يرسل إليهم رسولا، فحقق الله حكمته ببعثته خاتمًا، كما حقق حكمته ورحمته ببعثة إخوانه المرسلين من قبله. لئلا يكون للناس على الله حجة. والأمور كلها: قدريها، وشرعيها، لا تقوم إلا بعزة الله، ونفوذ حكمه»[2].

والآية الثانية جاء اقتران الاسمين فيها للتهديد والوعيد لمن عدل عن الحق بعد ما تبين له، فإن العزيز الحكيم إذا عصاه العاصي عن علم، قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة، يقول ابن كثير في هذه الآية: «وقوله: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، أي: عدلتم عن الحق بعدما قامت عليكم الحجج، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب، حكيم في أحكامه ونقضه وإبرامه»[3].

قال الطبري في تفسيره: «فإن أخطأتم الحق، فضللتم عنه، وخالفتم الإسلام وشرائعه، من بعد ما جاءتكم حججي وبينات هداي، واتضحت لكم صحة أمر الإسلام بالأدلة التي قطعت عذركم أيها المؤمنون، فاعلموا أن الله ذو عزة، لا يمنعه من الانتقام منكم مانع، ولا يدفعه عن عقوبتكم على مخالفتكم أمره ومعصيتكم إياه دافع، حكيم فيما يفعل بكم من عقوبته على معصيتكم إياه بعد إقامته الحجة عليكم، وفي غيره من أموره»[4].

واقتران الاسمين في الآية الثالثة لبيان أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يضيق عليكم، ولكن حكمته سبحانه لم تقتض ذلك، بل شرع لكم كل ما هو محكم ومتقن، ويقول الطبري في تفسير الآية: «إن الله عزيز في سلطانه، لا يمنعه مانع مما أحل بكم من عقوبة، لو أعنتكم بما يجهدكم القيام به من فرائضه، فقصرتم في القيام به، ولا يقدر دافع أن يدفعه عن ذلك ولا عن غيره مما يفعله بكم وبغيركم من ذلك لو فعله هو، لكنه بفضل رحمته من عليكم بترك تكليفه إياكم ذلك، وهو حكيم في ذلك لو فعله بكم، وفي غيره من أحكامه وتدبيره لا يدخل أفعاله خلل ولا نقص ولا وهن ولا عيب؛ لأنه فعل ذي الحكمة الذي لا يجهل عواقب الأمور، فيدخل تدبيره مذمة عاقبة، كما يدخل ذلك أفعال الخلق لجهلهم بعواقب الأمور، لسوء

(١) المصدر السابق ١/ ٤٣٦.
(٢) القواعد الحسان لتفسير القرآن، ص ٦٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٤٩.
(٤) جامع البيان ٢/ ١٨٩- ١٩٠.

اختيارهم فيها ابتداء»[(١)].

واقتران الاسمين في الآية الرابعة فيه التهديد والوعيد لمن خالف شرع الله المحكم، وفي هذا يقول الطبري: «وأما قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فإنه يعني تعالى ذكره: والله (عزيز) في انتقامه ممن خالف أمره ونهيه وتعدى حدوده من الرجال والنساء، فمنع من كان من الرجال نساءهم وأزواجهم ما فرض لهن عليهم في الآيات التي مضت قبل: من المتعة، والصداق، والوصية، وإخراجهن قبل انقضاء الحول، وترك المحافظة على الصلوات وأوقاتها، ومنع من كان من النساء ما ألزمهن الله من التربص عند وفاة أزواجهن عن الأزواج، وخالف أمره في المحافظة على أوقات الصلوات، (حكيم) فيما قضى بين عباده من قضاياه التي قد تقدمت في الآيات قبل قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وفي غير ذلك من أحكامه وأقضيته»[(٢)].

الخلاصة: أن اقتران (العزيز الحكيم) في الآيات السابقة جاء بمناسبة الدعاء إجلالًا لله وتعظيمًا، وإشعارًا بقدرته على تحقيق المطلوب، وتفاؤلًا بحصول الخير، فإن ذلك من حكمة الله سبحانه وتعالى. كما جاء اقتران الاسمين بمناسبة ما جاء من أمر الله وشرعه المحكم الذي لا نقص فيه ولا خلل، وأن الله سبحانه وتعالى مقابل هذا الإحكام في شرعه وأمره قادر على الانتقام ممن خالف ذلك، لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

٦ . اقتران الرءوف بالرحيم.

كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]

قال محمد رشيد رضا في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: «الجملة استئنافية لبيان علة النفي فيما قبلها»[(٣)].

قال أبو السعود: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تحقيق وتقرير للحكم، وتعليل له، فإن اتصافه عز وجل بهما يقتضي لا محالة أن لا يضيع أجورهم، ولا يدع ما فيه صلاحهم»[(٤)].

ولما كانت هذه الآية فيها طمأنة للمسلمين على إيمانهم وعلى صلاتهم، وأنهم ليسوا على ضلال، وأن صلاتهم لم تضع، ناسب ختامها باجتماع هذين

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٢١.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٥٩٨.
(٣) المنار، ٢/ ١١-١٢.
(٤) إرشاد العقل السليم، ١/ ١٧٤.

الاسمين (رءوف رحيم)، فإن ذلك كله من رأفة الله سبحانه وتعالى بعباده ورحمته بهم. ولما كان هذا في حال المؤمنين الأوائل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتصر على ذكر الرحمة فحسب، بل أكد ذلك بالرأفة وهي أشد الرحمة.

الخلاصة: إذا تأملنا المواضع الأخرى من القرآن الكريم التي اقترن فيها هذان الاسمان (الرءوف الرحيم) وجدنا أنها لا تخرج عن امتنان الله سبحانه على عباده بأمر ديني أو دنيوي. فكل ما وهبه الله سبحانه وتعالى لعباده من خير، أو ما دفعه عنهم من سوء، فهو من رأفته ورحمته بهم.

٧. اقتران الغفور بالرحيم.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٢].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]

في تفسير الآية الأولى قال السعدي: «والإنسان في هذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهي أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه. فيجب إذًا عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلًا لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أخبر أنه غفور، فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصًا وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة»[١].

وقال ابن كثير: «قال سعيد بن جبير: غفور لما أكل من الحرام رحيم إذ أحل له الحرام في الاضطرار»[٢].

وأما الآية الثانية فقد قال الطبري في تفسيرها: «وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإنه يعني: والله غفور رحيم للموصي فيما كان حدث به نفسه من الجنف والإثم، إذا ترك أن يأثم ويجنف في وصيته، فتجاوز له عما كان حدث به نفسه من الجور، إذ لم يمض ذلك فيغفل أن يؤاخذه به، رحيم بالمصلح بين الموصي وبين من أراد أن يجنف عليه لغيره أو يأثم فيه له»[٣].

وأما الآية الثالثة فقال ابن كثير في تفسيرها: «أي: فإن تركوا القتال في الحرم وأنابوا إلى الإسلام والتوبة فإن الله يغفر

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٠٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٢٠٧.
(٣) جامع البيان، ٢/ ٧٥.

ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره لمن تاب منه إليه»[1].

والآية الرابعة جاء اقتران الاسمين بعد الأمر بالاستغفار بعد الفراغ من العبادة للخلل الواقع فيها، وكثيرًا ما يأمر الله سبحانه وتعالى عباده بالاستغفار بعد الفراغ من العبادات، واقترن هذان الاسمان في الآية المذكورة ترغيبًا في الاستغفار[2].

٨. اقتران الغفور بالحليم.

كقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]

وقال الطبري: «والله غفور لعباده فيما لغوا من أيمانهم التي أخبر الله -تعالى ذكره- أنه لا يؤاخذهم بها، ولو شاء واخذهم بها، ولما واخذهم بها فكفروها في عاجل الدنيا بالتكفير فيه، ولو شاء واخذهم في آجل الآخرة بالعقوبة عليه، فساتر عليهم فيها، وصافح لهم بعفوه عن العقوبة فيها وغير ذلك من ذنوبهم. حليم في تركه معاجلة أهل معصيته العقوبة على معاصيهم»[3].

وفي الآية الثانية يقول الطبري: «﴿وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، يعني: أنه ذو ستر لذنوب عباده، وتغطية عليها فيما تكنه نفوس الرجال من خطبة المعتدات وذكرهم إياهن في حال عددهن، وفي غير ذلك من خطاياهم، وقوله ﴿حَلِيمٌ﴾، يعني: أنه ذو أناة لا يعجل على عباده بعقوبتهم على ذنوبهم»[4].

الخلاصة: أن الله سبحانه وتعالى عقب باقتران هذين الاسمين بعد الإخبار بتجاوزه سبحانه وتعالى عن عباده المؤمنين في بعض الأمور، ففي الآية الأولى بين سبحانه وتعالى تجاوزه عنهم في اللغو في الأيمان، وفي الآية الثانية بين التجاوز عنهم في التعريض بخطبة النساء.

٩. اقتران الغني بالحميد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٢٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٤٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٤٧.
(٣) جامع البيان ٢/ ٢٤٩.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٣٢٧.

﴿...بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[البقرة: ٢٦٧].

قال السعدي في هذه الآية: «فهو الغني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المنفقين، وعن طاعة الطائعين. وإنما أمرهم بها وحثهم عليها، لنفعهم، محض فضله عليهم، ومع كمال غناه، وسعة عطاياه، فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام»[(١)].

وقال ابن القيم رحمه الله : «فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما»[(٢)].

الخلاصة: الآيات التي اقترن فيها هذان الاسمان نجد أن اقترانهما ورد في ختام الآيات التي فيها إخبار عن إعراض المعرض؛ إما عن الإيمان بالكلية أو عن طاعة من الطاعات. كما جاء أيضًا في ختام الآيات التي تشير إلى عظمة ملك الله سبحانه وتعالى.

أحكام تتعلق بأسماء الله الحسنى

هذا الجزء من البحث يوضح أهم الأحكام المتعلقة بأسماء الله عز وجل، كوقفيتها، والدعاء بها، والإلحاد فيها.

أولًا: أسماء الله الحسنى توقيفية:

وبيان ذلك في النقاط الآتية:

١ . معنى الوقف في أسماء الله تعالى.

معنى الوقف في أسماء الله سبحانه وجوب الوقوف على ما جاء نصًا في الكتاب والسنة دون زيادة أو نقصان، والاقتصار في هذا الباب على ذلك، فلا يجوز أن نسمي الله عز وجل باسم من عندنا؛ لأن فتح هذا الباب يوقع الإنسان في الخطأ، وقد ناظر أبو الحسن الأشعري رحمه الله شيخه حين أجاز أن يطلق على الله اسم (العاقل) فقال له شيخه: وأنت تطلق عليه (الحكيم) والحكيم يطلق على المخلوق، فأجابه أبو الحسن بقوله: المسألة عندي ليست بالقياس، أنا أطلقت حكيمًا؛ لأن الشرع أطلقه، ومنعت عاقلًا؛ لأن الشرع منعه[(٣)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٣٠.
(٢) بدائع الفوائد، ١/ ١٦١.
(٣) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، ابن عثيمين ص ١٣.

٢. الأدلة على أن أسماء الله توقيفية.

قال السفاريني[١]:

لكنها في الحق توقيفية   لنا بذا أدلة وفية

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

هذه الآية دلت على أن أسماء الله توقيفية من وجهين:

الأول: أن الله سبحانه قال فيها: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ﴾، فالأسماء هنا جاءت مقترنة بأل، وهي هنا للعهد، فالأسماء بذلك لا تكون إلا معهودة.

الوجه الثاني: قوله: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ يعني: وصف الله عز وجل لأسمائه بالحسنى؛ لأن هذا الوصف يدل على أنه ليس في الأسماء الأخرى أحسن منها، وأن غيرها لا يقوم مقامها ولا يؤدي معناها، ودليل آخر من هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال الإمام البغوي: «قال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله تعالى: تسميته بما لا يسمى به، ولم ينطق به كتاب الله، ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم»[٢].

وقال ابن حجر: «أهل التفسير: ذكروا أن من الإلحاد في أسمائه تسميته بما لم يرد في الكتاب أو السنة الصحيحة»[٣]، فمعنى الآية: «ذروا من لا يتوقفون على ذلك عند حدود النص الوارد في كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم»[٤].

والنبي صلى الله عليه وسلم من أعرف الناس بالله عز وجل وأعلم الناس به، وقد بين لأمته كل ما تحتاج إليه، فعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما أصاب عبدٌ قط همٌّ ولا غمٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك؛ أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحد من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك)[٥].

الشاهد في هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: (أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك).

هذا المقطع من الحديث شاهد ودليل على أن أسماء الله عز وجل توقيفية.

٣. أسباب وقفية الأسماء الحسنى.

أنها من أمور الغيب التي لا يعلمها الخلق

(١) لوامع الأنوار البهية ١/ ١٢٤.
(٢) معالم التنزيل ٣/ ٣٠٦.
(٣) فتح الباري، ١١/ ٢٢١.
(٤) انظر: الدر المصون، الحلبي ٥/ ٥٢٢.
(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند، رقم ٣٧١٢، ٦/ ٢٤٦.
وصححه الألباني في التعليقات الحسان ٢/ ٢٩٧.

إلا أن يعلمهم الله إياها من خلال الوحي إلى الأنبياء والرسل.

قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

أن عقل الإنسان قاصرٌ لا يمكنه إدراك ما يستحقه الله تعالى من الأسماء.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا أحصي ثناءً عليك)[1]، لذلك يجب الوقوف في معرفة أسماء الله على الشرع.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

أن القول على الله بغير علم من أشد المحرمات، فتسمية الله تعالى بما لم يسم به نفسه، أو إنكار ما سمى به نفسه جناية في حقه تعالى وتوعد الله من فعل ذلك بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ١/ ٣٥٢، رقم ٤٨٦.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ٣-٤].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من تعمد علي كذبًا فليتبوأ مقعده من النار)[2].

هذا عقاب الكاذب على النبي صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن يكذب على الله عز وجل.

ثانيًا: الدعاء بأسماء الله الحسنى:

دعاء الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ثلاثة أنوع:

الأول: دعاء الإيمان والعبادة:

كما في قوله تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤٨].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله: ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له»[3].

وكما في قوله جل وعلا: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الجن: ٢٠].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم، ١/ ٣٣، رقم ١٠٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١١٩.

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستجير به، وأتوكل عليه ولا أشرك به أحدًا»[1].

الثاني: دعاء الحمد والثناء:

أفضل ما يقوله أهل الجنة -وهم في أعظم نعمة، وأكمل رحمة، وقد امتلأت قلوبهم بحب ربهم- هو: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

قال تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

دعاؤهم هنا أن يقولوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي: تنزيهًا لك وتقديسًا يا الله، فإذا ما طلبوه وجدوه عندهم، فهم يدعون الله ويطلبونه باسمه المعروف[2].

قال الإمام القرطبي: «ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن التهليل، والتسبيح، والحمد يسمى دعاء»[3].

الثالث: دعاء المسألة والطلب:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠].

هذا أمر من الله عز وجل لعباده المؤمنين أن يكثروا من التضرع إليه بالدعاء، والمعنى: تضرعوا إلي أيها المؤمنون بالدعاء، وتقربوا إلي بالطاعات، أستجب لكم، ولا أخيب لكم رجاء[4].

هذه الآية عامة في قضية الدعاء بأسماء الله عز وجل، وهناك آيات يكون فيها الدعاء بأسماء معينه من أسماء الله عز وجل منها:

دعاء سليمان عليه السلام ربه باسم الوهاب.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

ومن دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

الإلحاد في أسماء الله:

قال تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال الإمام الطبري: «واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ فقال بعضهم: يكذبون، وقال آخرون: يشركون، وكان إلحادهم في أسماء الله، أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسموا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسموا بعضها (اللات) اشتقاقًا منهم لها من اسم الله الذي هو (الله)، وسموا بعضها (العزى) اشتقاقًا لها من اسم الله الذي هو (العزيز)»[5].

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١١/ ١١٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣١٣.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٣٠٤.
(٥) جامع البيان ١٣/ ٢٨٢.

قال ابن السكيت: «الملحد هو: المائل عن الحق، المدخل فيه ما ليس منه. والإلحاد في اللغة: هو الزيغ والميل والذهاب عن سنن الصواب، ومنه يمسي الملحد ملحدًا؛ لأنه مال عن طريق الحق»[1].

قال ابن القيم رحمه الله[2]:

أسماؤه أوصاف مدح كلها
مشتقة قد حملت لمعان

إياك والإلحاد فيها إنه
كفر معاذ الله من كفران

وحقيقة الإلحاد فيها الميل
بالإشراك والتعطيل والكفران

صور الإلحاد في أسماء الله

هناك عدة صور للإلحاد في أسماء الله عز وجل، منها:

١. أن تسمي الأصنام بها.

فسمى المشركون الأحجار، والأشجار، والأوثان، التي كانوا يعبدونها (آلهة)، وسموا اللات من (الإله)، والعزى من (العزيز)، ومناة من (المنان)، فهذا إلحاد؛ لأنهم عدلوا ومالوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

٢. وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص.

كقول اليهود عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة: «إنه فقير»، وقولهم: «إنه استراح بعد أن خلق الخلق»، وقولهم: «يد الله مغلولة».

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

٣. تسمية الله عز وجل بما لم يسمِ به نفسه.

كأن يطلق بعض الناس على الله اسم (الموجود)، أو (المقصود)، أو (المهدي)، وكذلك اسم (العال)، ولكن الذي ورد (العلي، والأعلى، والمتعال)، كذلك

(١) غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٣٥٢.
(٢) الكافية الشافية ص ٢١٦.

(الونيس)، و(المتجلي)، أو كما يدعي الجهلاء من عباد القبور أن من أسمائه كلمة (هو)، و(هو) معلوم أنه ضمير قد يضاف إلى أي غائب، وهو ليس من أسماء الله تبارك وتعالى.

إنكار شيء من الأسماء، أو مما دلت عليه من الصفات، ومثاله: من ينكر أن اسم (الرحمن) من أسماء الله تعالى كما فعل أهل الجاهلية، أو يثبت الأسماء، ولكن ينكر ما تضمنته من الصفات، كما يقول بعض المبتدعة: إن الله تعالى رحيم بلا رحمة، وسميع بلا سمع[1].

(١) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه، ابن عثيمين ص ٢٦.

ثمرات الإيمان بأسماء الله الحسنى

إن للتعبد بالأسماء والصفات فضائل وثمرات كثيرة على قلب العبد وعمله.

قال العز بن عبد السلام: «اعلم أن معرفة الذات والصفات مثمرة لجميع الخيرات العاجلة والآجلة، ومعرفة كل صفة من الصفات تثمر حالًا علية، وأقوالًا سنية، وأفعالًا رضية، ومراتب دنيوية، ودرجاتٍ أخروية، فمثل معرفة الذات والصفات كشجرة طيبة أصلها -وهو معرفة الذات- ثابت بالحجة والبرهان، وفرعها -وهو معرفة الصفات- في السماء مجدًا وشرفًا ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

وهو خالقها؛ إذ لا يحصل شيء من ثمارها إلا بإذنه وتوفيقه، منبت هذه الشجرة القلب الذي إن صلح بالمعرفة والأحوال صلح الجسد كله»[2].

وفيما يلي بعض الفضائل والثمرات للإيمان بأسماء الله تعالى:

١ . الخشية من الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

يقول البحر ابن عباس رضي الله عنه

(٢) شجرة المعارف والأحوال، ص ١٤-١٥.

في معنى الآية: «إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني»[1]، وقال الطبري: «إنما يخاف الله فيتقي عقابه بطاعته - العلماء بقدرته على ما يشاء من شيء، وأنه يفعل ما يريد»[2].

وقال ابن كثير: «إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم، القدير، العليم، الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى -كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، وكانت الخشية له أعظم وأكثر»[3].

٢. التوكل عليه سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

أي: ومن يكل أمره إلى الله، ويثق به ينصره سبحانه على أعدائه، فإنه عز وجل عزيز لا يغلبه شيء، حكيم فيما يدبر من أمر خلقه[4]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

أي: ومن يفوض أمره إلى الله تعالى ويتوكل عليه وحده، فهو سبحانه كافيه في جميع أموره[5].

إن من أجل ما يثمره التعبد بالأسماء والصفات أن يعتمد القلب على الله، ويخلص في تفويض أمره إليه، وذلك حقيقة التوكل على الله.

والتوكل من أعظم العبادات تعلقًا بالأسماء والصفات، ذلك أن مبناه على أصلين عظيمين:

الأول: علم القلب، وهو يقينه بعلم الله وكفايته، وكمال قيامه بشأن خلقه، فهو القيوم سبحانه الذي كفى عباده شئونهم، فبه يقومون وله يصمدون.

والثاني: عمل القلب، وهو سكونه إلى العظيم الفعال لما يريد، وطمأنينته إليه، وتفويض أمره إليه، ورضاه وتسليمه بتصرفه وفعله؛ إذ كل شيء يمضي ويكون فبحكمه وحكمته وقدرته وعلمه، لا ينفذ شيء في الأرض ولا في السماء عن قدرته، فله الحكم كله، وإليه يرجع الأمر كله[6].

٣. الإخلاص له تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

إن إدراك معاني الأسماء يحمل العبد على إفراد الله بالقصد، والابتعاد عن صرف شيء من العبادة لغيره تعالى، ولذا كان من أعظم ما يخلص العبد من دنس الرياء ملاحظة أسماء الله وصفاته، فمن لاحظ من

(١) زاد المسير، ٣/ ٥١٠.
(٢) جامع البيان ٢٢/ ٨٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٥٤٣.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٢٣.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ٢٦٣.
(٦) انظر: طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٤٢٦.

أسماء الله الغني دفعه ذلك إلى الإخلاص، لغنى الله تعالى عن عمله وفقره هو إلى الله عز وجل، قال الله تبارك وتعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[1].

ومن تأمل اسم الله العليم، فإنه يعلم أن ما أخفاه عن أعين الناس من ملاحظة الخلق لا يخفى على الله لعلمه التام بكل شيء، ومن تأمل اسم الله (الحفيظ) حمله ذلك على ترك الرياء؛ لأن كل ما يفعله العبد محفوظ عليه سيوافى به يوم القيامة.

٤ . محبته عز وجل .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلًا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤].

فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟) فسألوه، فقال: «لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أخبروه أن الله يحبه)[2].

فمن تأمل أسماء الله وصفاته وتعلق قلبه بها طرحه ذلك على باب المحبة، وفتح له من المعارف والعلوم أمورًا لا يعبر عنها[3]، وإن من عرف الله أورثه ذلك المحبة له سبحانه وتعالى.

قال ابن الجوزي: «فينبغي الاجتهاد في طلب المعرفة بالأدلة، ثم العمل بمقتضى المعرفة بالجد في الخدمة، لعل ذلك يورث المحبة، ذلك الغنى الأكبر»[4].

ومراده أن من عرف الله أحبه، ومن أحب الله أحبه الله، وذلك والله هو الفوز العظيم والجنة والنعيم، والمحبة هي المنزلة التي «فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبوب، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال، والتي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه»[5].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم ٢٩٨٥، ٤/ ٢٢٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٧٣٧٥، ٩/ ١١٥.

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٨٦.

(٤) صيد الخاطر، ١/ ١١٠.

(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٨.

دعاء الله بأسمائه الحسنى أعظم أسباب تفريج الكروب وزوال الهموم:

عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما أصاب أحدًا قط همٌّ ولا حزنٌ، فقال: «اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي» إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدل مكانه فرحًا)، فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: (بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها)[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو عند الكرب يقول: (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم)[2].

من عرف الأسماء الحسنى كما ينبغي فقد عرف حقيقة الأشياء:

إن أسماء الله الحسنى كلها حسن وبركة، ومن حسنها أنها تعرفك بكل شيء على حقيقته من غير إفراطٍ ولا تفريط، فمن عرف أن الله عز وجل هو الخالق، عرف أن كل ما دونه مخلوق.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

ومن عرف أن الله عز وجل هو الرزاق علم أن كل ما دونه مرزوق.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وكذلك يعلم أنه لا يملك الرزق سواه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٤].

ومن عرف أن الله تبارك وتعالى هو الملك، عرف أن كل ما دونه مملوك.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٧].

فمن عرف الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، علم أنه بالكمال موصوف، وبالإحسان والجمال والجلال معروف، وعرف أيضًا نفسه بكل نقص وعيب، إلا أن يرزقه الله عز وجل كمال الإيمان وصالح الأعمال فيورث له ذلك عبوديةً صادقةً بالانكسار بين يدي الجبار تبارك وتعالى، فيذل لعزته ويخضع لقوته.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، رقم ٣٧١٢، ٦/ ٢٤٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٣٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب، رقم ٦٣٤٥، ٨/ ٧٥.

٥. التلذذ بالعبادات.

إن من أعظم ما يحصل به لذة العبادة هو تأمل الأسماء والصفات وتعبد الله بها، ومراعاتها في كل عبادة يأتي بها العبد أو يتركها.

فإذا تصدق العبد بالقليل مستشعرًا أن الله شكور لا يضيع عمله، بل يبارك له فيه -ولو كان قليلًا- كان ذلك مدخلًا على قلبه الفرح والسرور بربه، ووجد في قلبه حلاوةً عظيمةً لعمله.

ومن صلى لله تعالى متذكرًا حينما قام لله صافًا قدميه، تذكر قيومية الله تعالى، وأن الله قائم بذاته وعباده لا يقومون إلا به- سبحانه وتعالى-، ثم إذا كبر ورفع يديه استشعر أن الله أكبر من كل شيء، وشاهد كبرياء الله وعظمته وجلاله، ثم إذا قرأ دعاء الاستفتاح استشعر ما فيه من تنزيه الرب عن كل نقص، وإذا استعاذ وبسمل التجأ بقلبه إلى الركن الركين، وتبرأ من كل حول، واعتصم بالله من عدوه واستعان به لا بغيره، ثم إذا قرأ الفاتحة استشعر ما فيها من استحقاق الله لكل المحامد وألوهيته وربوبيته ورحمته بخلقه وملكه لكل شيء، واستحضر أنه يناجي ربه، وأن ربه يجيبه على مناجاته كما في الصحيح: **قال الله تعالى: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾. قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾. قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾. قال: مجدني عبدي، فإذا قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾. قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل)**[1].

وكل عبادة يقدم عليها العبد مستشعرًا هذه المعاني، وقد امتلأ قلبه بالحب للخالق العظيم، فإنه ولا بد يحصل لذتها والأنس بها، وفي الحديث: **(ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)**[2].

موضوعات ذات صلة:

الألوهية، التوحيد، صفات الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة، رقم ٣٩٥، ١/ ٢٩٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال الإيمان، رقم ٤٣، ١/ ٦٦.





عناصر الموضوع



مفهوم الإصلاح

أولًا: المعنى اللغوي:

الإصلاح لغة مأخوذ من الفعل (صلح)، فالصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد، وصلح كصلح لغتان؛ فالصلاح والصُلُوح بمعنى واحد، يقال: صَلَحَ يَصْلَحُ ويَصْلُحُ صلاحًا وصُلُوحًا فهو صالحٌ وصليحٌ، والجمع صُلَحاءُ وصُلُوحٌ[(١)].

والصلاح: الحصول على الحالة المستقيمة النافعة، والإصلاح جعل الشئ على تلك الحالة، فالإصلاح نقيض الإفساد، وهو يدل على إزالة الفساد، والاستصلاح ضد الاستفساد، وأصلحه ضد أفسده، وقد أصلح الشيء بعد فساده: أقامه، ومصلح اسم فاعل من أصلح، يقال: رجل صالح في نفسه، ومصلح في أعماله[(٢)].

ويغلب استخدام (الإصلاح) في إصلاح ذات البين؛ يقال: أصلح بينهما أو ذات بينهما: أي: أزال ما بينهما من عداوة وشقاء، وإصلاح ذات البين يكون برأب ما تصدع منها، وإزالة الفساد الذي دب إليها بسبب الخصام والتنازع على أمر من أمور الدنيا[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يخضع تعريف الإصلاح اصطلاحًا لنوع الإصلاح المراد؛ فتعريف الإصلاح بأنه ضد الإفساد يختلف عن تعريف الإصلاح بين المتخاصمين، وعن تعريف الإصلاح بمعنى البناء والتقويم، وكذلك يختلف عن تعريف إصلاح دين الناس ومعاشهم، ولذلك ذكر لمصطلح (الإصلاح) تعريفات عديدة، ولا يعنينا هنا جمع تلك التعريفات؛ ويكفي الإشارة إلى بعضها:

فالإصلاح هو: «هو إزالة الخلل والفساد الطارئ على الشيء»[(٤)].

والإصلاح هو: «إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من الفساد»[(٥)].

وكل هذه التعريفات تدور حول معنى إزالة الفساد الذي يطرأ على الشيء، وإعادته إلى ما كان عليه من الصلاح والاعتدال والنفع.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٠٣، المحكم، ابن سيده ٣/ ١٥٢.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ١١٧، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥١٧، تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٤٨.
(٣) انظر: الأضداد، الأنباري ص٧٥، الأخلاق الإسلامية، الميداني ٢/ ٢٣٠.
(٤) الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري ٥/ ٢٣٩.
(٥) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٢١٥.



الاصلاح في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ص ل ح) في القرآن (١٨٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (٤٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٤	﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾[البقرة:١٨٢]
الفعل المضارع	٨	﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾[البقرة:٢٢٤]
فعل الأمر	٦	﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[الأعراف:١٤٢]
المصدر	٩	﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾[البقرة:٢٢٠]
اسم الفاعل	٥	﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾[البقرة:٢٢٠]

وجاء الإصلاح في الاستعمال القرآني بمعنى: إقامة الشيء وتغيير ما به من اعوجاج، والإحسان فيه[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٦٩٩-٧٠٣.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان، ص٩٥-٩٦، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٩٩-٣٠٠، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٣٩٧-٣٩٨، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصلح:

الصلح لغة:

الصلح بالضم هو السلم -بكسر السين وفتحها- من تصالح القوم بينهما، والصلح أيضًا: اسم جماعةٍ متصالحين، يقال: هم لنا صلحٌ، أي: مصالحون[١].

الصلح اصطلاحًا:

عبارة عن عقد وضع لرفع المنازعة بالتراضي[٢].

الصلة بين الصلح والإصلاح:

الصلح يختص بإزالة النفار بين الناس، يقال منه: اصطلحوا وتصالحوا؛ وعلى هذا فإن الصلح إحدى ثمرات الإصلاح بين الناس، وكذلك فإن الإصلاح أعم وأشمل من الصلح.

٢ الصلاح:

الصلاح لغة:

مأخوذ من الفعل (صلح)، والصلاح ضد الفساد[٣].

الصلاح اصطلاحًا:

الصلاح: استقامة الحال وانعدالها، وهو مما يفعله العبد لنفسه[٤]. وهو معنى عام يشمل استواء الخلق والاستقامة على ما توجبه الشريعة، وحصول على الحالة المستقيمة النافعة.

الصلة بين الصلاح والإصلاح:

الصلاح يخص الفرد في ذاته، أما الإصلاح فمتعدٍ، يصلح العبد نفسه، ثم يسعى في إصلاح غيره، فقد يكون الرجل صالحًا في نفسه فقط، وقد يكون صالحًا في نفسه ومصلحًا لغيره، ولا شك أن الأخير أعظم.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٤٨.
(٢) انظر: أنيس الفقهاء، القونوي ص٩١.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٤٧٩.
(٤) انظر: الفرق اللغوية، العسكري ص٣١٧.

٣ الفساد:

الإفساد لغة:

هو ضد الإصلاح[١].

الإفساد اصطلاحًا:

هو جعل الشيء فاسدًا خارجًا عما ينبغي أن يكون عليه وعن كونه منتفعًا به. وفي الحقيقة هو إخراج الشيء عن حالة محمودة لا لغرض صحيح[٢].

الصلة بين الإفساد والإصلاح:

إن الإفساد ضد الإصلاح، وإن الفساد هو موضع الإصلاح، ومحوره الذي يتوجه إليه المصلحون؛ لإصلاح الأرض ومن عليها؛ حتى ينعم الإنسان بخيراتها، ويحقق وظيفته في الاستخلاف في الأرض، والوصول إلى الكمال الإنساني المقدر له؛ فالمصلح هو الذي يسعى لإزالة الفساد، ويحارب الإفساد وأهله.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٣.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي ١/ ١٥٤.

مجالات الإصلاح ومظاهره

تتعدد مجالات الإصلاح كما عرضها القرآن، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الإصلاح في العقيدة:

معالم الإصلاح في العقيدة تظهر من خلال عدد من الأمور:

أولًا: إن العقيدة هي ما يجزم به الإنسان، ويعتقده ويتيقنه في قرارة نفسه يسمى عقيدة، فإن كان هذا الاعتقاد موافقًا للحق، مطابقًا للواقع فهي عقيدة صحيحة، وإن كان مخالفًا للواقع فهي عقيدة فاسدة، والعقيدة هي أساس بناء المجتمعات، فإن كانت عقيدة أفراد المجتمع سليمةً صار مجتمعًا قويًا متماسكًا، وإن كانت عقيدة أفراده منحرفةً صار مجتمعًا متفككًا منهارًا.

ثانيًا: العقيدة السليمة الصحيحة تعصم الدم والمال، والعقيدة الفاسدة تهدر الدم والمال.

قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقال سبحانه : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال عليه الصلاة والسلام: **(من بدل دينه فاقتلوه)**[١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله ٢/ ٢٥١، رقم ٢٨٥٤.

وقال عليه الصلاة والسلام: **(لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه، المفارق للجماعة)**[٢].

فلا يحل دمه ولا ماله ما دام اعتقاده صحيحًا إلا إذا ارتكب واحدة من ثلاث: الزاني بعد الإحصان، والقاتل عمدًا، والمرتد الذي فارق دينه.

ثالثًا: إذا كانت العقيدة صحيحة صحت الأعمال كلها بشروطها، وجميع العبادات صحيحة؛ صحت الصلاة، والزكاة، وصح الصوم، والحج، وإذا فسدت العقيدة فسدت جميع الأعمال، وجميع العبادات؛ إذا دعا الإنسان غير الله، أو ذبح لغير الله، أو نذر لغير الله، أو طاف بغير بيت الله؛ تقربًا لذلك الغير، أو فعل ناقضًا من نواقض الإسلام، أو اعتقد عدم وجوب الصلاة، أو عدم وجوب الزكاة، أو عدم وجوب الحج، أو اعتقد حل الزنا، أو حل الخمر، أو حل الربا، أو حل عقوق الوالدين فسدت العقيدة، وبطلت الأعمال كلها، فلا تصح الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج، فكلها تكون باطلة، كما قال سبحانه : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: (أن النفس بالنفس)، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، رقم ١٦٧٦.

عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

رابعًا: الشعائر التي يفرضها الله على الخلق إنما يريد بها إصلاح قلوبهم ومشاعرهم؛ لإصلاح حياتهم وواقعهم، فالله الواحد القهار في غنى عن العالمين؛ فهو سبحانه لا يريد منهم إلا التقوى والصلاح والعمل والعمارة -وفق منهجه- فيعد لهم هذا كله عبادة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

خامسًا: العقيدة الصحيحة هي الأساس الذي يقوم عليه الدين، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣].

وقال بعدها بآيات: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فأرسل رسله دعاة إلى التوحيد وإخلاص الدين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

سادسًا: بين الله سبحانه مقومات الأمن، وأسبابه التي يتحقق بتوفرها، ويزول بزوالها، وأولها: إصلاح العقيدة؛ بإخلاص العبادة لله، وترك عبادة ما سواه، والبراءة منها، ومن أهلها، وملازمة العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فربط سبحانه حصول هذه المطالب العالية: الاستخلاف في الأرض، والتمكين من الدين، وإبدال الخوف بالأمن بتحقق شيئين، وهما: عبادة الله سبحانه، وترك الإشراك به.

سابعًا: اتجهت جهود الأنبياء والمصلحين إلى إصلاح عقائد المجتمعات قبل كل شيء، كل نبي أرسله الله يدعو قومه إلى إصلاح العقيدة، فأول ما يخاطب قومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود: ٥٠، ٦١، ٨٤، المؤمنون: ٢٣، ٣٢].

وكما أخبر الله عن نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وغيرهم، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم مكث في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو الناس إلى

إصلاح العقيدة، ويقول لقومه: (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)[1].

ثم لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وثبتت العقيدة نزلت بقية التشريعات.

جاء ذلك صريحًا في حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل؛ فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[2].

وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا)[3].

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٥/ ٤٠٥، رقم ١٦٠٢٣، وابن خزيمة في صحيحه، ١/ ٨٢، رقم ١٥٩.
وصححه الألباني في الإرواء رقم ٨٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن رقم ٤٧٠٧.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله،تبارك وتعالى، رقم ٧٣٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، رقم ٣٠.

ثانيًا: الإصلاح في الأخلاق:

إن الإسلام يدعو إلى إصلاح النفس، والتخلص من أمراضها، وهذا يحتاج إلى جهد يبذل، كما يحتاج إلى صبر على مشقات الطريق، أما اتباع الهوى، وما تميله النفس الأمارة بالسوء فإنه سهل ميسور، فالأول مثله مثل: من يصعد بصخرة إلى أعلى الجبل، ومثل الثاني: كمن يهوي من أعلى الجبل إلى أسفله؛ ولذلك كانت الاستجابة للشيطان كثيرة، ووجد دعاة الحق صعوبة في الدعوة إلى الله تعالى.

وأهل الإسلام في باب إصلاح النفس مخالفون للأمم الذين لم يعتنوا بإصلاح الأخلاق؛ وللذين غلوا فابتدعوا طرقًا في إصلاح النفس والأخلاق.

وكلمة (الأخلاق) هذه كلمة عامة، والمقصود منها الصورة الباطنة؛ لأن الخلق هو الإيجاد، من خلق يخلق خلقًا، وهذا المخلوق له صورتان، صورةٌ ظاهرة وهي الخلق، خلقه خلقته، وصورة باطنة وهي خلقه.

المسألة الأولى: تعظيم الشارع الحكيم حسن الخلق في صورٍ وأساليب كثيرة.

أولًا: قال الله جل وعلا لنبيه صلى الله

عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وصح حديث عائشة رضي الله عنها عن خلق المصطفى عليه الصلاة والسلام قالت: (كان خلقه القرآن)[1].

وقال سعد بن هشام رحمه الله قلت: «يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن. قال: فهممت أن أقوم ولا أسأل أحدًا عن شيء حتى أموت»[2].

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[3].

ثانيًا: قال الله عز وجل في حقه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

ثالثًا: وإن تصدير الآية الكريمة بالنداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم﴾ [البقرة: ٢٨٢].

يشير إلى أمرين:

أحدهما: أنه ليس من مقتضى الإيمان أن تلزموا المساجد والصوامع، بل إن الإيمان أن تهذبوا نفوسكم، وترهفوا وجدانكم وتشعروا بمراقبة ربكم؛ لتكون دنياكم فاضلة، ويكون تعاملكم، وإدارة المال بينكم على نهج ديني فاضل، فالمال ليس طلبه ممنوعًا، بل إنه من طريقه الحلال مشروع ومطلوب.

الأمر الثاني: أن الإسلام ليست أوامره مقصورة على العبادات، بل جاء لتنظيم المعاملات، بل إن العبادات فيه طريق لإصلاح التعامل الإنساني وكذلك كل الأديان السماوية، فإنه من الجهل الادعاء بأن الأديان جاءت لتنظيم العلاقة بين العبد والرب فقط، ولا تتدخل في العلاقة بين الإنسان والإنسان[4].

رابعًا: وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

جمعت هذه الآية «بين خطاب جميع العالم، وبين توبيخ عرب الجاهلية على

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٤١/ ١٤٨، رقم ٢٤٦٠١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٨١١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم ٧٤٦.

(٣) أخرجه أحمد في المسند، ١٤/ ٥١٢، رقم ٨٦٥٢.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٤٥.

(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٢/ ١٠٦٧.

التحليل والتحريم بسبب الأهواء والمزاعم، أما الخطاب العام لجميع البشر فمضمونه: يا أيها الناس، قد جاءكم كتاب جامع لكل المواعظ التي يراد بها إصلاح الأخلاق والأعمال، والزجر عن الفواحش، وشفاء الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، والهداية إلى الحق واليقين والطريق القويم المؤدي إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وسمي القرآن الكريم موعظة لأن الوعظ إنما هو بقول يأمر بالمعروف، ويزجر، ويرقق النفوس، ويوعد ويعد، وهذه صفة الكتاب العزيز، وهي موعظة من ربكم لم يختلقها محمد صلى الله عليه وسلم ولا غيره، بل هي من عند الله عز وجل»[(١)].

«وإن من الأعمال العريقة في الخير إنشاء المعاهد لتحفيظ القرآن وتعليم العلم، فإذا اتجه الخيرون إلى إنشاء هذه المعاهد فإن ذلك يكون دليلًا على الأخذ بأسباب الإصلاح المثمرة.

وأحب أن أقول للعاملين على الإصلاح: إن من وسائل الإصلاح الأخلاقي الحاسمة أن ينتشر الوعي الديني في استفاضة، ولن يتأتى ذلك إلا إذا أكثرنا من المعاهد الدينية»[(٢)].

المسألة الثانية: الواجب تجاه إصلاح الأخلاق.

«وقد اتفق الحكماء الذين أكرمهم الله تعالى بوظيفة الأخذ بيد الأمم في بحثهم عن المهلكات والمنجيات على أن فساد الأخلاق يخرج الأمم عن أن تكون قابلة للخطاب، وأن معاناة إصلاح الأخلاق من أصعب الأمور وأحوجها إلى الحكمة البالغة، والعزم القوي، وذكروا أن فساد الأخلاق يعم المستبد وأعوانه وعماله، ثم يدخل بالعدوى إلى كل البيوت، ولاسيما بيوت الطبقات العليا التي تتمثل بها السفلى، وهكذا يغشو الفساد، وتمسي الأمة يبكيها المحب، ويشمت بها العدو، وتبيت وداؤها عياء يتعاصى على الدواء.

وقد سلك الأنبياء عليه السلام في إنقاذ الأمم من فساد الأخلاق مسلك الابتداء أولًا بفك العقول من تعظيم غير الله، والإذعان لسواه؛ وذلك بتقوية حسن الإيمان المفطور عليه وجدان كل إنسان، ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته؛ أي حريته في أفكاره، واختياره في أعماله، وبذلك هدموا حصون الاستبداد، وسدوا منابع الفساد.

ثم بعد إطلاق زمام العقول صاروا ينظرون إلى الإنسان بأنه مكلف بقانون الإنسانية، ومطالب بحسن الأخلاق،

---

(١) الوسيط، الزحيلي ٢/ ٩٨٣.
(٢) فتاوى عبد الحليم محمود ص١٣٢٩.



فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقنع وبث التربية التهذيبية.

والحكماء السياسيون الأقدمون اتبعوا الأنبياء عليه السلام في سلوك هذا الطريق وهذا الترتيب؛ أي بالابتداء من نقطة دينية فطرية تؤدي إلى تحرير الضمائر، ثم باتباع طريق التربية والتهذيب بدون فتورٍ ولا انقطاع»[1].

ثانيًا: الإصلاح بين الناس:

قال ابن حجر رحمه الله : «والصلح أقسام: صلح المسلم مع الكافر، والصلح بين الفئة الباغية والعادلة، والصلح بين المتغاضبين كالزوجين، والصلح في الجراح كالعفو على مال، والصلح لقطع الخصومة إذا وقعت المزاحمة في الأملاك»[2].

وقال ابن قدامة: «والصلح يتنوع أنواعًا: صلح بين المسلمين وأهل الحرب، وصلح بين أهل العدل وأهل البغي، وصلح بين الزوجين إذا خيف الشقاق بينهما»[3].

وهذا الإصلاح قد يكون فرديًا وجماعيًا: فالفردي مثلًا: كالإصلاح بين اثنين (صديقين أو زوجين أو أخوين أو أختين) ونحو ذلك.

ومن الإصلاح الجماعي مثلًا: الإصلاح بين قبيلتين أو حزبين أو جماعتين، وقد يكون بين شعبين أو دولتين.

وقد يجمع بينهما مثل: الإصلاح بين الإمام والمأمومين، والإصلاح بين الراعي والرعية، فيكون أحد الطرفين فرديًا والآخر جماعيًا.

وسيتم هنا تناول مجموعة من أنواع الإصلاح:

النوع الأول: الإصلاح بين الزوجين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

إن السعادة الأسرية والاستقرار العائلي مطلب ضروري من ضروريات هذه الحياة، وهو سنة الله سبحانه وتعالى في الأرض، فالهدف من الأسرة هو السكن والمودة والرحمة بكل ما تحمله هذه الكلمات من معاني.

ولقد كثر وقوع المنازعات والخلافات الأسرية والعائلية التي تؤدي إلى الفرقة والشقاق خصوصًا في هذا الوقت الذي بعد فيه الناس عن شرع الله وأوامره، وليس هذا

(١) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص١٠٦.
(٢) فتح الباري ٥/ ٣٥١.
(٣) الشرح الكبير ١٣/ ١٢٣.

في المجتمعات الإسلامية فحسب، بل لا يكاد يسلم مجتمع من هذه الخلافات التي تؤدي في أسوأ الأحوال إلى حل رابطة الرحم، فيتفرق أفراد الأسرة والعائلة، فيترتب على ذلك كراهية وخصام بين العوائل والأسر المختلفة، وتشيع القطيعة بين أفراد الأسرة جميعًا.

وهنا نعرض منهج القرآن في الإصلاح بين أفراد الأسرة والعائلة، محاولة للدعوة للإصلاح وفق منهج رباني متكامل مستنبط من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: طرق القرآن في الإصلاح بين الزوجين.

لقد أمر الله سبحانه بالإصلاح، وحث عليه، وشرع الله سبحانه وتعالى بعض التنظيمات التي تكفل الحفاظ على الحياة الزوجية قبل حدوث الخلاف، وفي أثناء الخلاف، وحتى بعد فراق الزوجين لبعضهما؛ فقد شرع الله بعض التوجيهات والأوامر التي هي محاولة لرد الزوجين إلى حياتهما الطبيعية في المجتمع.

ويمكن عرض المنهج القرآني في الإصلاح بين الزوجين في النقاط التالية:

١. الإصلاح بين الزوجين عند نشوز المرأة.

إن أشهر آيتين في كتاب الله في الإصلاح بين الزوجين آيتا سورة النساء:

قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤- ٣٥].

النشوز هو: «استعلاء النساء على أزواجهن، وارتفاعهن عن فرشهم بالمعصية منهن، فالنشوز هو: البغض ومعصية الزوج، وإرادة فراق الزوج»[(١)].

تبدأ عملية الإصلاح بين ركني الأسرة في قضية النشوز باتخاذ إجراءات إصلاحية، وفق ترتيب إلهي حكيم، وبوصف نبوي كريم، فمن تعدى تلك الترتيبات، أو جاوز تلك الأوصاف المقننة لتلك الإجراءات فقد ظلم وتعدى؛ ولذا جاء التحذير واضحًا في ختام الآية الأولى: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا﴾ بأي نوع من البغي، سواء كان بالقول أو الفعل فضلًا عن اليد أو السوط، وتتمثل تلك الإجراءات في النقاط

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٦٩٨.

التالية:

- **الموعظة والنصيحة.**

قال تعالى: ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «عظوهن بكتاب الله. قال: أمره الله إذا نشزت أن يعظها ويذكرها الله، ويعظم حقه عليها»(١).

وقال مجاهد: «إذا نشزت المرأة عن فراش زوجها يقول لها: اتقي الله وارجعي إلى فراشك، فإن أطاعته فلا سبيل له عليها»(٢). وقال الحسن: «يأمرها بتقوى الله وبطاعته»(٣).

- **الهجران في المضاجع.**

قال تعالى: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤].

أي: «فإن أبين مراجعة الحق في ذلك والواجب عليهن لكم بعد الموعظة، فاهجروهن بترك جماعهن في مضاجعتكم إياهن»(٤).

على أن هناك أدبًا في الهجر في المضاجع، وهو ألا يكون هجرًا ظاهرًا في غير مكان خلوة الزوجين، فلا يكون أمام الأطفال، فيورث في نفوسهم شرًا وفسادًا، ولا أمام الأهل أو الغرباء يذل الزوجة، أو يستثير كرامتها، فتزداد نشوزًا، فالمقصود علاج النشوز، لا إذلال الزوجة(٥).

فعن معاوية ابن حيدة القشيري رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه؟ قال: (**أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت**)(٦).

ثم قال ابن حجر: «والحق أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال، فربما كان الهجران في البيوت أشد من الهجران في غيرها، وبالعكس، بل الغالب أن الهجران في غير البيوت آلم للنفوس، وخصوصًا النساء لضعف نفوسهن»(٧).

- **الضرب.**

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].

وهذا إجراء ثالث أكبر من سابقيه، ولكنه أهون وأصغر من تحطيم العلاقة الزوجية بالنشوز، وهذا الإجراء مع أنه أشد، لكنه بحدود، فقد ورد في تفسير الضرب أن يكون الضرب غير مبرحٍ ولا مؤثرٍ، لقول

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٩٤٢٥.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ٦٩٨.
(٤) المصدر السابق ٦/ ٧٠٠.

(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٥٤.
(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب حق المرأة على زوجها، رقم ٢١٤٢، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج، رقم ١٨٥٠.
وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم ١٨٧٦، والسلسلة الصحيحة، رقم ٦٨٧.
(٧) فتح الباري ٩/ ١١٢.

النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: (ولكم عليهن أن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك، فاضربوهن ضربًا غير مبرح)[١].

وقال صلى الله عليه وسلم: (فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح)[٢].

هذه الإجراءات جاءت لمعالجة أعراض النشوز، وأحيطت بالتحذيرات من سوء استعمالها فور تقريرها وإباحتها، وتولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنته العملية في بيته مع أهله وبتوجيهاته علاج الغلو وتصحيح المفهومات[٣].

وفي السنة: (ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت)[٤].

«فإن حصل المقصود بواحدة من هذه الأمور وأطعنكم، فاتركوا معاتبتها على الأمور الماضية، والتنقيب على العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببها الشر»[٥].

ولكن إذا استشرى النشوز جيء بالمصلحين.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

قال سعيد بن جبير: «الحكم أن يعظها أولًا، فإن قبلت وإلا هجرها، فإن هي قبلت وإلا ضربها، فإن هي قبلت وإلا بعث الحاكم حكمًا من أهله، وحكمًا من أهلها»[٦].

ومعنى الآية: «وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة حتى يكون كل واحد منهما في شق، فابعثوا حكمين: واحد من أهل الزوجة، وواحد من أهل الزوج، مكلفين مسلمين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق»[٧].

٢. الإصلاح عند نشوز الزوج.

قال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «هو الرجل يرى من امرأته ما لا يعجبه كبرًا أو غيره، فيريد فراقها، فتقول: أمسكني، واقسم لي ما شئت. قالت: ولا بأس إذا تراضيا»[٨].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حج النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم ١١٦٣.
وصححه الألباني في الإرواء ٧/ ٩٦.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٥٤-٦٥٥.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٧٧.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٧٥.

(٧) تيسر الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٧٧.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح،



وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (خشيت سودة أن يطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، لا تطلقني وامسكني، واجعل يومي لعائشة، ففعل، ونزلت هذه الآية: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾)[1].

فإذا خشيت المرأة أن تصبح مجفوة؛ أو أن تؤدي هذه الجفوة إلى الطلاق، أو إلى الإعراض، فليس هنالك حرج عليها ولا على زوجها أن تتنازل له عن شيء من فرائضها المالية، أو فرائضها الحيوية، كأن تترك له جزءًا، أو كلًّا من نفقتها الواجبة عليه، أو أن تترك له قسمتها وليلتها، إن كانت له زوجة أخرى، وكانت هي قد فقدت حيويتها للعشرة الزوجية أو جاذبيتها.. هذا كله إذا رأت هي -بكامل اختيارها وتقديرها لجميع ظروفها- أن ذلك خير لها، وأكرم من طلاقها[2]. أي: «أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج، وقبول الزوج ذلك، خير من المفارقة بالكلية»[3].

ثم يعقب سبحانه بأن الصلح إطلاقًا خير من الشقاق والجفوة والنشوز والطلاق، فيقول تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ثم يذكر المانع من الصلح وهو الشح، فيقول تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾.

ثم ينبه سبحانه في ختام هذه الآية على ما يعين ويساعد في حل المشكلة بقوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

أي: «وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن، تقسموا لهن أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء»[4].

٣. الإصلاح عند عدم رغبة الزوجة في زوجها.

قال تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ولقد سلك الشارع الحكيم عددًا من الأمور لإبقاء العصمة الزوجية ومنها:

- نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوعد المرأة التي تطلب الطلاق من زوجها بغير سبب، وهذه هي الطريقة

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة النساء، رقم ٣٠٤٠. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم ٢٤٣٤.
باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾، رقم ٢٦٩٤.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٦٩-٧٧٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣٠.
(٤) المصدر السابق.

الأولى لعلاج عدم رغبة الزوجة في زوجها.

❁ عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيما امرأة سألت زوجها طلاقًا في غير ما بأس، فحرامٌ عليها رائحة الجنة)[1]، وهذا من باب المحافظة على رابطة الزوجية والرابطة الأسرية في المجتمع.

❁ إذا استفحل الأمر، وأحست الزوجة بسوء عشرة زوجها جاز لها أن تطلب الطلاق منه، وأن تعوضه عن ذلك برد الصداق الذي أمهرها إياه أو بعضه؛ لتعصم نفسها من معصية الله، وتعدي حدوده، وهذا ما يسمى الخلع أو الفداء.

فالخلع هو: فراق الزوجة على عوض، فالآية تدل بإطلاقها على جواز الافتداء مطلقًا، ولو بكل المال، أما قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ٢٠].

فهذه الآية محمولة على الأخذ جبرًا بغير رضاها، أو التحايل على ذلك.

والخلع مكروه إلا في حالة مخافة ألا يقيما -أو واحد منهما- ما أمر الله به، وقد ينشأ ذلك عن كراهة العشرة، إما لسوء خلق أو خلق[2]، وقد يكون لغير ذلك كما في قصة الصحابية الجليلة امرأة ثابت ابن قيس.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة ثابت بن قيس رضي الله عنه أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتردين عليه حديقته؟)، قالت: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقبل الحديقة، وطلقها طلقة)[3].

٤. الإصلاح عند ظلم الرجل لزوجاته.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

[النساء: ١٢٩].

يخبر تعالى أنه ليس في قدرة الأزواج العدل التام بين زوجاتهم، فإن العدل التام يقتضي أن يكون الداعي والحب على السواء، والميل القلبي على السواء؛ ويقتضي مع ذلك الإيمان الصادق والرغبة في مكارم الأخلاق للعمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن؛ فلذلك عذر الله

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب الخلع، رقم ٢٢٢٦.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم ١٩٤٧.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٩/ ٣٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق فيه، رقم ٥٢٧٣.

الأزواج، وعفا عنهم عما لا يقدرون عليه، ولكنه أمرهم بالعدل الممكن فقال: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: لا تميلوا إلى إحداهن عن الأخرى ميلًا كثيرًا، بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا مستطاعكم من العدل في النفقة والكسوة والقسم في المبيت والفراش، ونحو ذلك مقدور، فعليكم العدل فيها بينهن، بخلاف الحب والوطء وتوابع ذلك، فإن العبد لا يملك نفسه فعذرهم الله، وقوله: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ يعني: أن الزوج إذا مال عن زوجته، وزهد فيها، ولم يقم بحقوقها الواجبة، فهي كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها، ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ فيما بينكم وبين زوجاتكم بوجه من وجوه الصلح، وبمجاهدة أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس احتسابًا وقيامًا بحق الزوجة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بامتثال أمره، واجتناب نهيه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

وقد أمر الله تعالى بالعدل بين الزوجات، وأمر من لم يستطع العدل أن لا يتزوج أكثر من واحدة، ويمكنه أن يجمع معها ملك اليمين؛ لأنه ليس لها من الحقوق كما للحرة. قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل)**[2]. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعدل بين نسائه في القسم، ويقول: **(اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك)**[3]، واستمر على ذلك حتى في مرضه صلى الله عليه وسلم ، ثم استأذنهن أن يمرض عند عائشة، فأذن له -رضي الله عنهن-[4].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٠٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، رقم ٢١٣٣، والترمذي في سننه، كتاب النكاح، باب في التسوية بين الضرائر، رقم ١١٤١، وابن ماجه في كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، رقم ١٩٦٩ . وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ٣٦٢٦.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، رقم ٢١٣٤، والترمذي في كتاب النكاح، باب في التسوية بين الضرائر رقم ١١٤٠، وابن ماجه في كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، رقم ١٩٦٩. وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ٣٢٣٥.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، باب ذكر ما كان يعالج به النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه، ٦/ ٣٨٣، رقم ٧٠٤٦، وابن ماجه في سننه، كتاب الجنائز، باب جاء في ذكر مرض رسول الله، رقم ١٦١٨ . وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه، رقم

٥. الإصلاح عند وقوع الظهار.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢]: «يعني أن الله تعالى يحرم قول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي»[١]. فهو يحرمها على نفسه كحرمة أمه عليه[٢]. «فمتى شبه زوجته بمن تحرم عليه أو ببعضها إذا أراد الامتناع عن الاستمتاع بها فقد ظاهر من زوجته»[٣]، وإذا ظاهر الرجل امرأته ترتب على ظهاره حرمة إتيان الزوجة حتى يكفر كفارة الظهار ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾[المجادلة: ٣].

ولكن أهل الجاهلية كانوا يعتبرون هذه الكلمة طلاقًا أبديًا، والإسلام اعتبره ظهارًا له كفارة.

فهذه القضية الاجتماعية فيها قسوة على المرأة، وقسوة على الأسرة، بل وقسوة على المجتمع، فبكلمة واحدة كانت المرأة تحرم في الجاهلية، ولكن الإسلام أراد أن يرتقي بالأسرة بالحفاظ عليها من الضياع في ظل منهج ينظم ويقوم حياتها، ويحفظ لها حقها، ويضمن لها سعادتها في دنياها وأخراها من ناحيتين:

- حرم الله سبحانه الظهار؛ لما تضمنه من تحريم ما أحل الله، وأذية للمرأة، وزور من القول والفعل لم يكلفهم الله إياه، بل مضرته غلبت مصلحته؛ ولذا لم يجعل الله فيه خيرًا وبركةً.
- شرع الله سبحانه لمن وقع فيه مخرجًا منه وهو كفارة الظهار؛ فكفارة الظهار على الترتيب الوارد في الآية والحديث.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة: ٣].

فإن لم يجد فيصوم شهرين متتابعين، لا يفرق بين الأيام إلا لعذر شرعي؛ لقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة: ٤].

فإن لم يكن يقدر على الصيام فيطعم ستين مسكينًا؛ لقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤].

٦. طريقة القرآن في الإصلاح عند وقوع الإيلاء.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦ - ٢٢٧].

والإيلاء لغة: الحلف، وفي الشرع:

.١٣١١

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١١٨.
(٢) انظر تفاصيل مسائل الظهار في: المغني، ابن قدامة، ١١/ ٥٤-١١٩، بدائع الصنائع، الكاساني، ٨/ ٢٤-٣٩، فقه السنة، سيد سابق، ٢/ ٤٥٢-٤٥٦.
(٣) الملخص الفقهي، الفوزان، ٢/ ٣٢٢.

الحلف على ترك وطء المرأة[1].

فالله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم حقيقة النفس البشرية، وأهمية بقاء الزوجين مع بعضهما، فنفس عن الزوج والزوجة للمحاولة في الإصلاح بينهما، وعدم بقاء الزوجين في خصام حتى لا تتسع الفجوة، ويطول النزاع، فجعل للزوج الذي يريد أن يصالح زوجته، وأن يراجعها قبل انتهاء مدة التحريم، جعل له كفارة يستطيع إذا فعلها أن يراجع ويصالح زوجته، وهي كفارة اليمين.

وقد جعل الله تعالى للزوجة المطالبة بحقها إذا زاد الإيلاء والبعد عن المدة التي قدرها رب العالمين، وهي أربعة أشهر، فضمن لكل من الطرفين حقه، وأعطاه الفسحة الكافية ليراجع نفسه، ورغبه الشارع في العودة والكفارة، وسهلها عليه تمكينًا وترغيبًا في كسر حاجز القطيعة والبعاد.

«ولكن إذا استمر الرجل في الإيلاء، وجاء وقت انتهاء الفترة التي لا يجوز تجاوزها، فإما أن يراجع الرجل زوجته، أو يفارقها، فإن أبى فالقاضي له حق أن يطلقها منه»[2]، وذلك ليحاول كل واحد منهما أن يبدأ حياة أخرى قد تكون أهدأ وأقل خلافًا من التي قبلها؛ ولذا ختم الله تعالى الحكم بقوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

٧. الإصلاح عندما لا ترضى المرأة بواقع زوجها المعيشي.

قد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بتخيير زوجاته بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩].

فعن جابر رضي الله عنه قال: «قال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد -زوجة عمر- سألتني النفقة آنفًا، فوجأت عنقها، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: (هن حولي يسألنني النفقة). فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها، وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده! فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلن -أي: نساءه-: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده.

قال: وأنزل الله عز وجل الخيار، فبدأ بعائشة، فقال: (إني أذكر لك أمرًا ما أحب أن تتعجلي فيه حتى تستأمري أبويك). قالت: وما هو؟ قالت: فتلا عليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٤١.
(٢) فقه السنة، سيد سابق ٢/ ١٣٣.

﴿النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ﴾. قالت عائشة رضي الله عنها: أفيك أستأمر أبواي! بل أختار الله ورسوله، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت، فقال: (إن الله تعالى لم يبعثني معنفًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها)[1].

فسبب تخيير النبي صلى الله عليه وسلم لزوجاته هو أن زوجاته -رضي الله عنهن جميعًا- سألنه التوسيع عليهن في النفقة، والنبي صلى الله عليه وسلم قد اختار الله له عيشة الكفاف؛ ولذا قال عمر لهما: تسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده؟

وهنا يجب التنبيه على أمور:

قال ابن حجر: «قول عائشة وجمهور الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار هو أن من خير زوجته فاختارته لا يقع عليه بذلك طلاق»[2].

إجراء التخيير من الوسائل التي يتم من خلالها الإصلاح، وذلك بأن ينبه الزوج زوجته على أن هذا واقعه، وهذا مستواه، وهذه حياته، فإن قبلته على هذه الحياة فبها ونعمت، وإن لم تقبله فلا يوجد مجال إلا أن تختار بين البقاء معه والصبر على ما هي فيه، أو يطلقها ويسرحها سراحًا جميلًا ترتاح فيه من الوضع التي هي فيه، ومن ثم يرتاح الرجل من كثرة انتقاد الزوجة من الناحية الاجتماعية، أو من ناحية الطبائع وغيرها، ويرتاحان من الخلافات اليومية بسبب هذا الأمر.

عندما تعلم الزوجة أن الأمر جدٌّ، وأنه لا يوجد حل لها إلا أن تصبر أو تطلق، قد يتغير رأيها للحفاظ على زوجها وبيتها، وتتنازل عن رأيها فتقبل الصبر، وتقبل زوجها، فيحصل الوفاق والصلح بين الزوجين، وهذا هو الذي يرنو إليه الشارع الحكيم.

المحور الثاني: الطرق الإصلاحية لبقاء الحياة الزوجية عند إرادة الطلاق.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

فالإسلام لا يمسك الأزواج بالسلاسل والحبال، ولا بالقيود والأغلال، ولكن يجمعهم بالسكن النفسي وبالمودة والرحمة، أو بالواجب والتحمل الممكن.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١][3].

ومظاهر الإصلاح في حال اختيار طريق

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاق إلا بالنية، رقم ١٤٧٨.

(٢) فتح الباري ٩/ ٢٨١.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢١٩.

الطلاق:

١. الأمر بالمعاشرة بالمعروف والصبر على ذلك.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ففي الآية توجيهات ربانية لكفالة حق الزوجين:

من المعاشرة بالمعروف بالإجمال بالقول، والمبيت والنفقة[1]، وأن يتصنع لها كما تتصنع له[2]، وفتح الله به باب الأمل: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ومهما كانت الأسباب والمبررات فإنه يحرم على الزوج إكراه زوجته على ما لا تطيق، ولا أخذ مالها وإرغامها على ذلك من دون طيبة نفس، بل ونهى عن عضلها بمنعها من حقوقها، ولا إلجائها لتفتدي نفسها بمالها، فإن ذلك كله محرم، وقد استثنى منه ما ورد به الشرع في ذلك على الأوصاف والشروط التي نص عليها أهل العلم في الفقه.

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٨٦، لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٩٩.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٨٦، الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٩٧.

٢. شرع الطلاق السنة، والعدة بعده.

إذا تعذر الوئام بين الزوجين بعد الأخذ بالتوجيهات الإلهية السابقة، أو رأى المصلحون بينهم أن التفريق لهما خير، فقد شرع الله للزوج أن يطلق زوجته طلاق السنة، وهو: أن يطلقها في طهر لم يقع فيه وطء. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١].

وفي هذه الفترة قد تتغير النفوس، وتقر القلوب، وفرصة للنفس ومحاسبتها، والنظر في عواقب الأمر قبل الطلاق وبعده، وليكون وقوع الطلاق في وقت تشتهى فيه الزوجة غالبًا، فيكون دليلًا واقعيًا على عدم الوئام بينهما، وليس مجرد عارضٍ، فقد يقدر الله تعالى الصلح، فلا يقع طلاق.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾[الطلاق: ١].

٣. شرع الطلقة الأولى ثم الثانية، وفي الثالثة تحرم عليه.

قال الله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ففي الطلقة الأولى تجربة يعلم منها الزوجان حقيقة مشاعرهما، ثم تأتي الطلقة الثانية: محاولة أخرى لعدم انقطاع الحياة الزوجة، أما الطلقة الثالثة: فهي دليل على فسادٍ في تلك الحياة الزوجية ﴿فَإِن طَلَّقَهَا

﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

فهذه الإجراءات كلها للحفاظ على الرابطة الزوجية، فالرجل عندما يعلم ذلك الحد، فإنه يفكر ويمسك نفسه.

٤. لا يجوز أن تخرج المرأة من بيتها، أو تخرج في حال الطلقة الرجعية.

قال تعالى: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ [الطلاق: ١].

«وذلك لإتاحة الفرصة للرجعة، واستثارة عواطف المودة، وذكريات الحياة المشتركة، حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين، ويرى زوجته وما يصيبها من تعب وشدة، فيفعل هذا في المشاعر فعله بين الاثنين؛ ليبقى عقد الزوجية، وتبقى الأسرة المسلمة قائمة يشد بعضها بعضًا»(١).

٥. جواز مراجعة الزوجة إذا انقضت العدة في الأولى والثانية بعقد جديد.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

فإن الله سبحانه وتعالى يريد الإصلاح ويحبه، ولو بعد الانفصال وانقضاء الأجل والمهلة، ما لم يبلغ الحد الذي حده الله لعباده من الطلقة الثالثة.

٦. إذا أراد الرجل أن يطلق زوجته لا يأخذ منها ما أعطاها إياه من مهر وغيره.

قال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ۝٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [النساء: ٢٠ - ٢١].

وقال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

«نهوا أن يأخذوا من أزواجهم شيئًا على وجه المضارة، وخص بالذكر ما آتى الأزواج نسائهم؛ لأن العرف بين الناس أن يطلب الرجل عند الشقاق والفساد ما خرج من يده لها من صداق وجهاز»(٢).

فمن الأمور التي تحافظ على بقاء عقد الزوجية أنه إذا أراد الزوج أن يطلق فلا يحل له أن يأخذ شيئًا مما أعطاها إياه، وهذا يجعل الزوج يفكر أكثر من مرة في هذا الأمر؛ لأنه قد يكون أعطاها مالًا كثيرًا، فلا يستطيع أن يتركها من أجل ذلك المال، ثم قد يوفق الله بينهما فيما بعد.

قال تعالى: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: ١].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٩٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ١٣٧.

المحور الثالث: ضوابط الإصلاح الاجتماعي بين الزوجين.

شرع الله سبحانه وتعالى أمورًا في الحياة الزوجية تمنع من حصول أي خلافات بينهما، فإذا حصل خلاف بسبب التفريط في هذه الأمور فإنه بالرجوع إليها يكون الإصلاح، وتنضبط الحياة الأسرية مرة أخرى، ومن هذه الأمور:

١. معرفة كل من الزوجين ما له وما عليه من الحقوق والواجبات.

والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[النساء: ٣٤].

فجمع الله تعالى في هذه الآية ما يجب على الرجال، وجمع ما يجب على الزوجة في قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

فهما نصٌ «في سبيل تنظيم الحياة الزوجية، وتوضيح الاختصاصات التنظيمية فيها؛ لمنع الاحتكاك فيه بين أفرادها، فيحدد أن القوامة في هذه المؤسسة للرجل؛ وذلك لتفضيل الرجل بمقومات القوامة، وما تتطلبه من خصائص ودربة، وتكليفٍ بالإنفاق»[١].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٤٩.

٢. المعاشرة الحسنة بالمعروف.

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

فعلى الزوجين أن يقوما بمعاشرة بعضهما بالمعروف، وخصوصًا الرجل؛ لأنه القيم، فالقول والمعاملة والإنفاق بالمعروف، وكذلك العلاقة العاطفية بينهما تكون بالمعروف، كما وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء خيرًا[٢]، وقوله: (وملاعبة أهله، فإنهن من الحق)[٣].

ومن العشرة الحسنة من المرأة أن تكون: مطيعة لزوجها في غير معصية الله، والاقتصاد والتوسط في النفقة، ورعايتها أسرتها، وتزكية نفسها وتشريفها، ومما يقربها إلى قلب زوجها: إكرام والديه وأقاربه واحترامهم[٤].

٣. صبر الزوج على الزوجة، وغض الطرف عن زلاتها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، رقم ٣٣٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم ١٤٦٨.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، رقم ١٦٣٧.
قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».
وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي، رقم ٢٧٧، وضعيف ابن ماجه، رقم ٢٢٦٧.

(٤) انظر: دليل المرأة المسلمة، علي الغامدي ص١٤٤-١٤٥.

فإن المرأة من طبيعتها الغيرة من كل أحد؛ وغالبًا ما تكون الغيرة سببًا يدفعها إلى فعل ما لا يرضاه الزوج، وإذا انضاف إلى الغيرة ما جبلت عليه من اعوجاج اللسان، كان أدعى للزوج أن يصبر على الأذى، وأن يغض الطرف ما استطاع ويتجاوز عن الهنات والزلات؛ لقوله تعالى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عندما حصلت الغيرة بين بعض زوجاته: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣].

٤. محافظة الزوجين على أسرارهما ومشكلاتهما الداخلية.

إن الزوجين هما الأقدر على حل مشاكلهما؛ لأنهما أعلم بطبيعة بعضهما، وبنقاط الخير فيهما، ويجب أن تهدأ النفوس حتى يأتي الصلح؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

فنص الله تعالى أن يكون الصلح بين الزوجين أولًا.

فإن احتيج لأن يتدخل غيرهما: فينحصر ما يعرفه الأبوان أو الأقارب على المشكلة فقط، ولا يتجاوز ذلك إلى غيره؛ حتى لا تتفرع المشكلة، وتصبح ظلمات بعضها فوق بعض.

فهذه بعض الضوابط الإصلاحية التي تضبط الحياة الاجتماعية بين الزوجين قبل حدوث الخلاف، فإذا وقع الخلاف كان الرجوع لها هو الإصلاح بعينه.

النوع الثاني: الإصلاح مع الوالدين المشركين:

أفردنا الحديث عن الإصلاح مع الوالدين المشركين؛ لأن الله تعالى نص عليه في القرآن، وبينت السنة سبب ذلك النص:

قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣- ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ

وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤١ - ٤٧].

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «أنزلت في هذه الآية: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت: ٨].

قال: كنت رجلًا بارًا بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت! فتعير بي، فيقال: «يا قاتل أمه». فقلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يومًا وليلةً لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يومًا وليلةً أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: تعلمين يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت لا تأكلي، فأكلت»[(١)].

أما قصة إبراهيم عليه السلام فهي واضحة في تطبيق الأمر الإلهي في الآية، فجعل الله قصته مع أبيه مثلًا للمسلمين في الولاء والبراء مع صدق البر والإحسان، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: ٤].

فهذا إبراهيم عليه السلام يدعو أباه إلى الإسلام بأسلوب لا يختلف عن حديث مسلم مع مسلم، ولكن إبراهيم عليه السلام لا يلقى من والده إلا الخصومة والتعنيف.

فمن خلال هذه الآيات يمكن عرض المنهج القرآني في الإصلاح مع الوالدين المشركين:

أولًا: لا تقديم لحق العباد على حق الله:

لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلقنا إلا لعبادته، وما العباد إلا وسيلة للتعايش والخلافة في الأرض، فإذا ضيع السبب الذي خلق الإنسان من أجله، فلن تصطلح حياة البشر مع بعضهم، فإن من ضيع أمانته بينه وبين الله لا يمكن أن يحفظ الأمانة التي بينه وبين الخلق.

ثانيًا: لاستقرار العلاقة بين الآباء والأبناء يأمر الله تعالى عباده بأمور:

- الأمر بإصلاح العلاقة بين البشر وربهم، ثم بين البشر وآبائهم، فالله سبحانه هو الخالق للإنسان؛ ولذا يأتي دائمًا الأمر بعدم الإشراك به قبل الوصية بالوالدين، أما الوالدان فهما السبب الذي جعله الله تعالى في الأرض للتكاثر والوجود، فالله تعالى أولًا يأمر الله العباد بأن يصلحوا فيما بينهم وبين الله، ثم بعد ذلك يصلحوا ما بينهم وبين آبائهم.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣٧.

- النهي عن أي كلام أو تصرف بذيء ولو كان كلمة (أف)؛ لما في ذلك من إفساد العلاقة بين الآباء والأبناء حتى ولو كان الآباء مشركين؛ لأن الخطاب هنا عام».
- النهي عن زجرهما، والتكلم معهما بكلامٍ خشنٍ.
- الأمر بالكلام الطيب الكريم اللين الذي تطمئن به نفوسهما.
- التواضع لهما ذلًّا لهما ورحمةً واحتسابًا للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد.
- الدعاء لهما بالرحمة أحياءً وأمواتًا، جزاءً على تربيتهما إياك صغيرًا[1]، ما لم يكونا مشركين، فإن كانا مشركين فالدعاء لهما بالهداية في حياتهما.

ثالثًا: دعوتهم إذا كانا مشركين، فيجب أن تكون بالحكمة والأدب:

وذلك باستخدام الألفاظ اللينة الحسنة والأسلوب الهادئ المؤدب؛ وإذا قوبلت الدعوة للآباء بالرفض والأذية فلا تقابل بالمثل، كما في قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه.

رابعًا: الاختلاف في العقيدة والأمر بعدم الطاعة في خلافها لا يسقط حق الوالدين في المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة: قال تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

ثالثًا: الإصلاح في المال:

المسألة الأولى: الإصلاح في وصية الميت:

الله سبحانه وتعالى جعل الوصية لمن أراد الإصلاح، وعدم وقوع الخلاف بعد موت الموصي، فإذا وقع وظهر في الوصية ظلم وجور على الحقوق وجب الإصلاح فيها.

والإصلاح في الوصية بإبقاء هدفها ومحتواها هو الخير للموصي له من يتيم ونحوه، وخير لأهل الميت من الورثة، وخير للميت بأن لا يعذب بما أوقع في الوصية من الإجحاف أو الظلم، بل وخير للمجتمع من أن تسود فيه البغضاء والتفرق؛ إذ أن السيئة تأتي بالسيئة، والشر يعم.

وإذا فعل ذلك وأصلح في الوصية فهذا عين الخير وعين الإصلاح، أما المحافظة على حروفها وحدودها وتضييع الهدف المقصود منها فهو عين الإفساد.

وعلى هذا فالإصلاح في الوصية سبب من أسباب الإصلاح بين المسلمين ودفع الفرقة عنهم، روي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: **(إن الرجل ليعمل بعمل**

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٦.

أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته فيختم له بشر عمله، فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنة) قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩][1].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢]، أي: «يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح»[2].

والخطاب بقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ [البقرة: ١٨٢] لجميع المسلمين، قيل لهم: إن خفتم من موصٍ ميلًا في الوصية، وعدولًا عن الحق، ووقوعًا في إثم، ولم يخرجها بالمعروف، وذلك بأن يوصي بالمال إلى زوج ابنته أو لولد ابنته لينصرف المال إلى ابنته، أو إلى ابن ابنه، والغرض أن ينصرف المال إلى ابنه، أو أوصى لبعيد وترك القريب، فبادروا إلى السعي في الإصلاح بينهم، فإذا وقع الصلح سقط الإثم عن المصلح، والإصلاح فرض على الكفاية، فإذا قام أحدهم به سقط عن الباقين، وإن لم يفعلوا أثم الكل[3].

«فالمصلح إذا شاهد الموصي يوصي وظهر منه أمارة الحيف عن طريق الحق، مع ضربٍ من الجهالة، أو مع التأويل، أو شاهد من التعمد في الميل، فعند ظهور أمارة الإفساد في الوصية يأخذ في الإصلاح؛ لأن إصلاح الأمر عند ظهور أمارات فساده، وقبل تقرير فساده يكون أسهل؛ فلذلك علقه تعالى بالخوف دون العلم»[4].

وقال الحسن: «هو أن يوصي للأجانب ويترك الأقارب، فيرد إلى الأقارب. قال: وهذا هو الإصلاح»[5].

«والإصلاح يحتاج إلى الإكثار من القول، وقد يتخلله بعض ما لا ينبغي من قول أو فعل، فبين أن ذلك لا إثم فيه إذا كان لقصد الإصلاح، ودلت الآية على جواز الصلح بين المتنازعين إذا خاف من يريد الصلح إفضاء تلك المنازعة إلى أمر محذور في الشرع»[6].

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قيل: غفور لما كان من الحائف، وقيل: للمصلح ﴿رَحِيمٌ﴾ حيث رخص، وقيل: ﴿غَفُورٌ﴾ للموصي فيما حدث به نفسه من الجنف والخطأ والإثم؛ إذ رجع إلى الحق، ﴿رَحِيمٌ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٣/ ١٦٨، رقم ٧٧٤٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الوصايا، باب الحيف في الوصية، رقم ٢٧٠٤. وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه، رقم ٥٩١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٨٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٧٠.

(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٣٢٦.

(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٢٣.

(٦) المصدر السابق ٢/ ٢٤.

للمصلح[1].

قال تعالى في اليتامى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

«الإصلاح لليتيم يتناول إصلاحه بالتعليم والتأديب، وإصلاح ماله بالتنمية والحفظ»[2].

وهذا «يعني: الإصلاح لأموالهم من غير أجرةٍ خيرٌ وأعظم أجرًا ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ تشاركوهم في أموالهم وتخلطوها بأموالكم، فتصيبوا من أموالهم عوضًا عن قيامكم بأمورهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم، والإخوان يعين بعضهم بعضًا، ويصيب بعضهم من مال بعضٍ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ لأموالهم ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ لها، فاتقوا الله في مال اليتيم، ولا تجعلوا مخالطتكم إياهم ذريعةً إلى إفساد أموالهم وأكلها بغير حقٍ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ لضيق عليكم وآثمكم في مخالطتكم، ومعناه: التذكير بالنعمة في التوسعة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر به»[3].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢].

قال الطبري رحمه الله : «وأولى الأقوال في تأويل الآية أن يكون تأويلها: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ وهو أن يميل إلى غير الحق خطأً منه، أو يتعمد إثمًا في وصيته، بأن يوصي لوالديه وأقربيه الذين لا يرثونه بأكثر مما يجوز له أن يوصي لهم به من ماله، وغير ما أذن الله له به مما جاوز الثلث أو بالثلث كله، وفي المال قلة، وفي الورثة كثرةٌ، فلا بأس على من حضره أن يصلح بين الذين يوصى لهم، وبين ورثة الميت وبين الميت، بأن يأمر الميت في ذلك بالمعروف ويعرفه ما أباح الله له في ذلك، وأذن له فيه من الوصية في ماله، وينهاه أن يجاوز في وصيته المعروف الذي قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وذلك هو «الإصلاح» الذي قال الله: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وكذلك لمن كان في المال فضل وكثرةٌ وفي الورثة قلة، فأراد أن يقتصر في وصيته لوالديه وأقاربه عن ثلثه، فأصلح من حضره بينه وبين ورثته وبين والديه وأقاربه الذين يريد أن يوصى لهم، بأن يأمر المريض أن يزيد في وصيته لهم، ويبلغ بها ما رخص الله فيه من الثلث؛ فذلك أيضًا هو من الإصلاح بينهم بالمعروف».

فما وجه الإصلاح حينئذٍ، والإصلاح إنما يكون بين المختلفين في الشيء؟

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٥.
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٦١.
(٣) الوجيز، الواحدي ص١٦٦.

قيل: إن ذلك وإن كان من معاني الإصلاح فمن الإصلاح الإصلاح بين الفريقين، فيما كان مخوفًا حدوث الاختلاف بينهم فيه، بما يؤمن معه حدوث الاختلاف؛ لأن الإصلاح إنما هو الفعل الذي يكون معه إصلاح ذات البين، فسواء كان ذلك الفعل الذي يكون معه إصلاح ذات البين قبل وقوع الاختلاف أو بعد وقوعه.

فإن قال قائل: فكيف قال: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ ولم يجر للورثة ولا للمختلفين، أو المخوف اختلافهم، ذكرٌ؟

قيل: بل قد جرى ذكر الذين أمر تعالى ذكره بالوصية لهم، وهم والدا الموصي وأقربوه، والذين أمروا بالوصية في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٨٠].

ثم قال تعالى ذكره: ﴿جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ لمن أمرته بالوصية له ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ﴾، وبين من أمرته بالوصية له ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، والإصلاح بينه وبينهم هو إصلاح بينهم وبين ورثة الموصي.

وأما الجنف: فهو الجور والعدول عن الحق في كلام العرب، يقال منه: جنف الرجل على صاحبه يجنف، إذا مال عليه وجار جنفًا[1].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٤٠٣-٤٠٤.

المسألة الثانية: الإصلاح في مال اليتامى:

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

«إن التكافل الاجتماعي هو قاعدة المجتمع الإسلامي والأمة المسلمة مكلفة أن ترعى مصالح الضعفاء فيها واليتامى بفقدهم آباءهم وهم صغار ضعاف أولى برعاية الأمة وحمايتها، رعايتها لنفوسهم وحمايتها لأموالهم، فاليتامى إخوان للأوصياء، كلهم أخوة في الإسلام، أعضاء في الأسرة المسلمة الكبيرة»[2].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ عن مجاهدٍ قال: «يعني: أن الله لا يخفى عليه الذين يريدون منكم الإصلاح لهم، والإفساد عليهم» قال أبو محمدٍ: وروي عن مقاتل بن حيان والسدي نحو ذلك[3]. «فليس المعول عليه هو ظاهر العمل وشكله، ولكن نيته وثمرته»[4].

وقيل: «المراد فعل ما فيه الصلاح بين الموصي والموصى له بأن يأمر بالعدل والرجوع عن الزيادة، وكونها للأغنياء،

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٣٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢/ ١٠٨، رقم ٢١٣٠.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٣٢.

وعليه لا يراد الصلح المرتب على الشقاق، فإن الموصي والموصى له لم يقع بينهما شقاق.

﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٨٢].

في ذلك التبديل؛ لأنه تبديل باطل إلى حق، بخلاف السابق، واستدل بالآية على أنه إذا أوصى بأكثر من الثلث لا تبطل الوصية كلها، خلافًا لزاعمه، وإنما يبطل منها ما زاد عليه؛ لأن الله تعالى لم يبطل الوصية جملة بالجور فيها، بل جعل فيها الوجه الأصلح.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[البقرة: ١٨٢].

تذييل أتى به للوعد بالثواب للمصلح على إصلاحه، وذكر المغفرة مع أن الإصلاح من الطاعات، وهي إنما تليق من فعل ما لا يجوز لتقدم ذكر الإثم الذي تتعلق به المغفرة؛ ولذلك حسن ذكرها، وفائدتها التنبيه على الأعلى بما دونه، يعني أنه تعالى غفور للآثام، فلأن يكون رحيمًا من أطاعه من باب الأولى، ويحتمل أن يكون ذكرها وعدًا للمصلح بمغفرة ما يفرط منه في الإصلاح؛ إذ ربما يحتاج فيه إلى أقوال كاذبة، وأفعال تركها أولى، وقيل: المراد غفورٌ للجنف والإثم الذي وقع من الموصي بواسطة إصلاح الوصي وصيته، أو غفور للموصي بما حدث به نفسه من الخطأ والعمل؛ إذ رجع إلى الحق، أو غفور للمصلح بواسطة إصلاحه بأن يكون الإصلاح مكفرًا لسيئاته، والكل بعيد»[1].

«وهكذا يربط الأمر كله بالله؛ ويشده إلى المحور الأصيل الذي تدور عليه العقيدة، وتدور عليه الحياة، وهذه هي ميزة التشريع الذي يقوم على العقيدة، فضمانة التنفيذ للتشريع لا تجيء أبدًا من الخارج، إن لم تنبثق وتتعمق في أغوار الضمير»[2].

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

«والله لا يريد إحراج المسلمين وإعناتهم والمشقة عليهم فيما يكلفهم، ولو شاء الله لكلفهم هذا العنت، ولكنه لا يريد، وهو العزيز الحكيم، فهو قادر على ما يريد، ولكنه حكيم لا يريد إلا الخير واليسر والصلاح»[3].

رابعًا: الإصلاح في الأرض:

يمكن إجمال منهج القرآن في الإصلاح في الأرض من خلال النقاط التالية:

أولًا: تحريم الفساد في الأرض.

ففي القرآن الكريم تشنيع على الفساد والإفساد، ولعل الآية الكريمة ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

آية جامعة مانعة للنهي عن كل ما يؤدي إلى إفساد الحياة على الأرض، من إفساد

(١) روح المعاني، الألوسي ٢/ ٥٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٣٢.
(٣) المصدر السابق.

مادي أو معنوي، ومثلها ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

أما الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فتؤكد على النهي عن كل أنواع الفساد والإفساد، ففي مجال البيئة المائية اهتم الإسلام بأمرين مهمين، ألا وهما حماية الماء من التلوث، فنهى عن البول في الماء، والحفاظ على مصادر الماء من الاستنزاف والهدر، فحرم الإسراف.

ثانيًا: تحريم الاعتداء على الأعراض.

حرم الزنا، وجعله من الكبائر العظام. وهذا يعتبر من عوامل الوقاية من الوقوع في المشكلة.

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢ - ٣].

وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وجعله تعالى شرطًا للبيعة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وتجلت الوقاية بالوصية بالحجاب، والنهي عن التبرج.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وغض البصر، وحفظ الفرج؛ قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

والبعد عن إظهار الزينة للنساء، والبعد عن العمل على إظهارها.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ

﴿ءَابَآئِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

والأمر بالقرار في البيت: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وتيسير الزواج، فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢].

وحرم القذف، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النور: ٤ - ٧].

ومن الاصلاح فيه: الحث على العفو فيما دون الحد.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وأن يقدم حسن الظن بالأخ المسلم.

قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢].

والتثبت بالبينة والدليل، ولا يتحدث بكل ما سمعه أو ينشره.

قال تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

وقطع الطريق على الفساق الذين يحبون أن تشيع الفاحشة والشر، يقول الله تعالى في ختام قصة الإفك: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧].

وذلك بعدم سماع ما يقوله الكذابون والمنافقون والمغتابون، وأصحاب القلوب المريضة، وعدم الرضا بذلك، كما هو منهج السلف رضوان الله عليهم.

ثالثًا: ومن الإصلاح في الأرض الإصلاح العام عند الاختلاف في الآراء:

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

شرع الله سبحانه وتعالى حدودًا، لا يجوز أن يتعداها المسلم في خلافه عندما يخالفه أحد في آرائه، وفي الآيتين السابقتين الحديث والخلاف دائر مع المسلمين وغيرهم، ويمكن من هاتين الآيتين وغيرهما

معرفة المنهج القرآني للإصلاح وعدم تطور الخلاف عندما يحدث.

«وإن علاقة المسلمين بغيرهم علاقة تعارف، وتعاون، وبر، وعدل، فالله سبحانه يقول في التعارف المفضي إلى التعاون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويقول في البر والعدل: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

والنهي عن موالاة الكافرين يقصد به النهي عن محالفتهم، ومناصرتهم ضد المسلمين، والرضا بما هم فيه من كفر؛ إذ فيه ضرر بالغ بالمسلمين، وإضعاف لقوة الجماعة المؤمنة، وأما الموالاة بمعنى المسالمة، والمعاملة بالحسنى، وتبادل المصالح، والتعاون على أمور البر، فهذا مما دعا إليه الإسلام».

مواقف الناس من الإصلاح

عرض القرآن مواقف الناس من الإصلاح، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: المجرمون وادعاؤهم الإصلاح:

إن منهج الإسلام الأساس في الإصلاح هو: إحقاق الحق، وتثبيت معالمه وصرحه، وإبطال الشر، وهدم معاقله وحصونه، وليس هناك أخطر على الأمة من تشويه عقيدتها، وتحريف كتاب الله، وتأويل الكلام تأويلًا باطلًا، وليس هناك أيضًا أضر على الإنسان من الشرك والوثنية، واتخاذ الأرباب مع الله ظلمًا وزورًا، وافتراءً وبهتانًا.

وقد ضل جماعة من علماء أهل الكتاب وأحبارهم، فلووا ألسنتهم في كتاب الله؛ ليميلوها عن الآيات المنزلة الصحيحة إلى العبارات المبدلة المحرفة، فزادوا في كلام الله، أو نقصوا، أو حرفوا الكلم عن مواضعه، أو قرأوا كلامهم بأنغام وتراتيل؛ ليوهموا الناس بأنه من التوراة، وأن الكتاب جاء بذلك ليحسبه المسلمون حقًا وصدقًا، والواقع أنه ليس من كلام الله، ويقولون على الله الكذب، وهم يعلمون أنه مخترع مبدل محرف، ليس من عند الله، وإنما هو من عند الشيطان والهوى، وهذا ليس تلميحًا أو إيماءً، وإنما يصرحون بذلك لقسوة قلوبهم، وجرأتهم على الله.

قال الله تعالى مبينًا هذا الموقف: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨][1].

وهذا شأن كل متألهٍ منحرف عن الصراط المستقيم، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

فما يزعمه المتألهون من الهداية دعوى تحتاج إلى بينة وبرهان: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١، والنمل: ٦٤].

فكم من كافر عتيد، جبار عنيد، يدعي الإيمان والهداية وهو رأس في الكفر والضلالة، كما أخبر الله عن اليهود والنصارى في قوله: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقوله في وصف أهل الضلال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧].

وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وعن فرعون في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وغرض فرعون بهذا القول: التدليس والتمويه على قومه، وأنه ما يريد إلا منفعتهم، مع أن الدافع الحقيقي لقوله هذا هو: التخلص من موسى عليه السلام؛ حتى يخلو له الجو في تأليه نفسه على جهلة قومه، فإنهم كانوا كما قال تعالى في شأنهم: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وقد حذرنا ربنا هذا المسلك.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فالخيانة تعني في مفهوم الإسلام والمسلمين: موالاة العدو وتوليه، وخيانة كل الفضائل والمبادئ التي جاء بها الإسلام، وطبيعي أن يعدل الناس الذين ابتعدوا عن مفهوم الإسلام عن استعمال التعبير القرآني في أقوالهم وأفعالهم؛ لأنهم يعلمون أن التعبير القرآني يشتمل على ما لا يريدون من مفاهيم تتنافى وسلوكهم العملي في واقع الحياة، ولذلك فهم يصفون موالاتهم

(١) الوسيط، الزحيلي ١/ ٢٠٦.

للأعداء وتوليهم لهم، وخيانتهم لله ورسوله والمؤمنين، بأوصاف الصلاح والإصلاح، وهم في الحقيقة إنما يلبسون باطلهم ثوب الحق، وينفذون مؤامراتهم وخياناتهم مع أعداء الإسلام تحت هذه الأغطية الجوفاء، فقد قتلوا المسلمين الغيورين على دينهم باسم حفظ مصالح الأمة وأمنها، وهم أول البائعين لمصالح الأمة باسم التعاون المشترك والمصالح المشتركة، وباعوا بلاد المسلمين بمن فيها من المسلمين تحت شعار المصالح القومية للأمة العربية، إلى آخر ما حواه قاموس أولئك الخونة الأنذال من ألفاظ الدجل والتضليل، وهم بهذا النهج لم يأتوا بجديد، إنما هم يسيرون على طريق أسلافهم، من طواغيت الأرض ومجرميها، فهذا فرعون كما يذكر عنه القرآن الكريم قد سبق هؤلاء على هذا الأسلوب من التحريف والتزييف.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني عن موسى رسول الله عليه السلام: ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]؟

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع والتضليل الماكر الخبيث؛ لإثارة دهماء الناس في وجه الحق وأهله، وعبر الزمان والمكان تتكرر كلما تقابل الحق مع الباطل، والإيمان مع الكفر[١].

ثم يقول الله عز وجل عن فرعون هذا في موضع آخر: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] انظر كيف يتحدث فرعون عن نفسه حديث المخلص لقومه، الساعي لمصلحتهم، فيقول: إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابًا، وأعتقده نافعًا، وهل يرى الطغاة أفعالهم إلا أنها الخير والرشاد؟ فالخير والرشاد في مفهوم أولئك المجرمين أن ينالوا شهواتهم وملذاتهم كاملة دون نقص، ولو فنيت الأمة كلها، أما لو كانوا يسعون في مصلحة الأمة كما يدعون لسمحوا للأمة أن تقول لهم: أنتم مخطئون، وأنتم غير صالحين للقيادة فتنحوا عنها، وأعطوا القوس باريها، ولكن الحاصل من الطغاة من فرعون الغابر إلى فراعنة العصر الحاضر أنهم لا يسمحون لأحد أن يرى رأيًا يخالف رأيهم، أو أن يقول كلامًا يخالف قصدهم، ولو لم يكونوا بهذا الوصف لما كانوا طغاة مستبدين، وفراعنة

(١) انظر: في ظلال القرآن سيد قطب ٢٤/ ١٧٨.

مجرمين[1].

ثانيًا: المنافقون وادعاؤهم الإصلاح:

المنافقون يدعون الإصلاح، لكن الله تعالى حكم عليهم بالإفساد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

فليس مصلحًا كل من ادعى الإصلاح، وليس مفسدًا كل من رمي بالفساد، بل يعرض ذلك على الكتاب والسنة حتى ينجلي الأمر، ويبين الحق للمؤمنين، وأما المستكبرون من الكفار والمنافقين، فإنهم لا يرضون عن الحق مهما بسط لهم من الأدلة والبراهين ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

ومن قبل قال فرعون وملؤه لموسى عليه السلام: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]

وانقلاب الموازين لا يضفي الشرعية على الباطل، ولا يقلبه إلى حق، ولا يجعل الفساد إصلاحًا، فالمنافقون يوالون الكافرين، ويكشفون عوارات المسلمين لهم يقولون: «إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب»[2] ويقسمون أنهم مصلحون «فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهار أنه ليس بإفساد، بل هو إصلاح، قلبًا للحقائق»[3].

وتركوا التحاكم إلى الله ورسوله، وراحوا يقسمون بالله أنهم ما فعلوا ذلك إلا إحسانًا وتوفيقًا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦١ - ٦٢].

والغريب أن كل الدعوات التي خرجت في واقعنا المعاصر ترتدي ثوب الإصلاح، وترفع كلمة المنافقين الأول، فالعبرة بالأفعال لا بالأقوال ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

ونطقت نفوس مريضة بالإيمان فكذبت. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨].

صوروا إفسادهم بصورة الإصلاح لما في قلوبهم من المرض، كما في قوله تعالى:

(١) انظر: المصدر السابق ٢٤/ ١٨٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٩٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤][1].

وبين الله أن الناصحين قد أمروهم بالمعروف بعد أن نهوهم عن المنكر، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٣].

ويذكرنا ذلك بقول فرعون لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

أما عن نفسه فيقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. ففرعون يظن نفسه مصلحًا، وموسى عليه السلام مفسدًا. والله المستعان.

ولقد علم المسلمون الحقائق الشرعية للإصلاح فعظمت قلوبهم منزلة القرآن والسنة، فما حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حرمه الله، وما أحله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أحله الله؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن ربه، ومظهر لأحكامه، وظل المسلمون على هذا الفهم قرونًا طويلة، وأزمانًا مديدة، فإذا ظهر من يخالفه ويعارضه لم يلبث إلا قليلًا حتى يعلم الحق، وينقاد له، أو يطويه الزمن، وتنقرض شبهته.

وجاء العصر الحديث وقد ضعف المسلمون، وذهبت ريحهم، وضاعت هيبتهم، فبدأ أعداء الإسلام يثيرون الشبه، ويحيون ما قضى عليه علماء المسلمين من ضلالات؛ رغبةً منهم في تشكيك المسلمين بدينهم أولًا، ولينشغلوا بالرد على مخالفيهم ثانيًا، فلا يجدون فرصةً لنشر دينهم، وإيصال تعاليمه إلى العالم أجمع، كما أمرهم ربهم.

وساعدهم على ذلك ضعف المسلمين المادي، وإحساسهم بالنقص تجاه أعدائهم، مع جهل كثيرٍ من المسلمين بدينهم، وتقاعس بعض العلماء والحكام عن القيام بدورهم في حماية الدين وحياطته، ودفع الشبهات عنه.

وأخذ بعض المسلمين يردد شبهات المستشرقين بجهل حينًا، وبعلم حينًا، إما رغبة في المخالفة، وحرصًا على الشهرة التي تنشأ من مخالفة معتقدات الناس وثوابتهم، أو ادعاءً للحرية، ونبذًا لما تعارف عليه الناس، فأصبحوا أبواقًا للمستشرقين يلوكون ما مضغه غيرهم، وينشرون أفكارهم.

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ١٠٠.

فأصبح الإسلام يحارب في معسكرين، وأصبحت السنة في مواجهة خصمين:

خصم خارجي قوي، يلبس لبوس العلماء، ويدعي الحياد، وهو لا يرقب في المسلمين إلّا ولا ذمة، يحرفون الكلم عن مواضعه، ويؤولون النصوص لتناسب ادعاءاتهم.

وخصم داخلي يلبس لبوس الحرص على الإسلام وتنقيته، والدفاع عنه، ويحمل معاول الهدم، وأسلحة الطعن، ويوهم الآخرين أنها آلات بناء وتنوير وإصلاح.

ولذلك عظم الخطب، وادلهم الأمر، واحتاج العلماء المحققون والأئمة المجتهدون أن يوضحوا من الحقائق ما كان ينبغي أن يكون أوضح من الشمس في رابعة النهار.

فأظهروا أهمية تعظيم الشريعة وحجيتها، ومكانتها من الإسلام، وأنه لا يمكن الاستغناء عنها، وأن لها قواعد حاكمة، وضوابط مقررة لا ينبغي الغفلة عنها.

والشبهات إنما تدخل على البعض بسببين:

الأول: التأويل الفاسد لكلام الله تعالى، والأحاديث الموضوعة التي شاعت وذاعت في أوساط المسلمين، فأفسدت أذواقهم، وهدمت ثوابت الإسلام في نفوسهم، واتخذها أعداء الإسلام مرتكزًا لشبهاتهم.

الثاني: سوء فهم النصوص الصحيحة، وتفسيرها على غير ما يحتمله نصها.

والتحديات والشبهات التي تواجه الشريعة بعضها قديم أحياه أعداؤها، وآخر حديث أفرزه ضعف المسلمين، وجهل كثير من أتباعه بحقائقه، وانسياقهم وراء أعداء الإسلام، وانخداعهم بهم، ومن الملاحظ أن هؤلاء -الذين ينخدعون من المسلمين ويرددون شبهات المستشرقين من أعداء الشريعة- إنما أوقعهم في الفخ الذي نصبه لهم هؤلاء أحد هذه الأمور غالبًا:

١. إما جهلهم بحقائق التراث الإسلامي، وعدم اطلاعهم عليه من ينابيعه الصافية.

٢. وإما انخداعهم بالأسلوب العلمي المزعوم الذي يدعيه أعداء الإسلام.

٣. وإما رغبتهم في الشهرة والتظاهر بالتحرر الفكري من ربقة التقليد كما يدعونه.

٤. وإما وقوعهم تحت تأثير أهواء أو انحرافات فكرية، لا يجدون مجالًا للتعبير عنها إلا بالتستر وراء أولئك المستشرقين[1].

٥. وإما إنه نتيجة طبيعية للانهزام النفسي، والإحساس بالنقص أمام الحضارة

(١) انظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي ص٤- ٥.

الغربية مع الخواء الروحي، والجهل الشرعي، فيجتمع من ذلك رغبة في تجديد الدين بحيث تتوافق تشريعاته وأحكامه مع الحضارة الغربية، والأفكار المعاصرة.

والخلاصة: أنه إذا كان للإصلاح أهله ودعاته فإن له مدعين وأدعياء، ليسوا منه في العير ولا في النفير، ولا هو منهم في قليل ولا كثير، لكنهم مع ذلك يتسبون إليه بالبنوة زورًا.

والإصلاح عند هؤلاء الأدعياء له معانٍ أخرى لا علاقة لها به، فإذا كان الإصلاح بمعناه الشرعي الصحيح يعني: تطبيق مراد الله تعالى في الأرض، فإن الإصلاح عند الأدعياء: موافقة أهواء الأنفس، ومراد الطواغيت والكفار.

فمن الأول؛ موافقة أهواء الأنفس: ما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

فإن من الناس من لا يرى الإصلاح إلا فيما يوافق هوى نفسه، فينصبها معبودًا له، ويجعل هواها هو الميزان الذي يتحاكم إليه في تمييز القبيح من الحسن، فما وافق هوى نفسه هو الصلاح والإصلاح، وما خالف هوى نفسه هو الفساد والإفساد، وصدق الله في وصفهم: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ومن الثاني؛ موافقة مراد الطواغيت: ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

فمفهوم الإصلاح عند قوم فرعون: موافقة مراد فرعون؛ ولذلك اعتبروا ما يدعو إليه نبي الله موسى عليه الصلاة السلام إفسادًا؛ لما رأوا في دعوته من المخالفة لدعوة فرعون ودينه، ومعلوم أن الطاغوت هو كل من نصب نفسه معبودًا من دون الله، ومعلوم أن فرعون قال لقومه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وقال لموسى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

فاستحق بذلك وصف (الطاغوت).

ومن الثالث؛ موافقة مراد الكفار: ما حكاه الله تعالى عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

فتظاهروا بموافقة أهل الإيمان، وهم في واقع أمرهم يوافقون الكفار، ويرون

أن موافقة الكفار على مرادهم هو عين الإصلاح؛ ولهذا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

وبناء على هذا يتضح جليًا أن مفهوم الإصلاح الذي تروج له وسائل الإعلام العلمانية يراد به الإصلاح بالمفهوم والمنظور الغربي، وبعبارة أخرى: «موافقة مراد الغرب»، وليس «موافقة مراد الرب».

فتبرج المرأة عندهم إصلاح، والاختلاط بين الجنسين في المدارس ومقرات العمل إصلاح، والسماح للشواذ بممارسة شذوذهم إصلاح، وفي المقابل تطبيق شرع الله تعالى عندهم فساد ووحشية، وحجاب المرأة المسلمة فساد ورجعية، ومنع الخمور والزنى فساد وقمع للحرية، وأي حرية؟! إنها الحرية الغربية كما يراها الغرب.

فأدعياء الإصلاح من المفسدين استعاروا أعين غيرهم، وعقول غيرهم، معطلين حواسهم وعقولهم، غافلين أو متغافلين عن كونهم ينتمون في الأصل إلى أمة ذات حضارة تليدة، ومرجعية أصيلة، فما أكثر أدعياء الإصلاح، وما أقل دعاته، فحسبنا أن نقول كما أمر الله نبينا أن يقول: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك: ٢٩].

ولاينحصر الأدعياء بهؤلاء أو بغيرهم، بل مناوأة الحق سنة كونية مستمرة للابتلاء والاختبار، وفيهم يظهر الجهاد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٠ - ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

الأسلوب القرآن في الدعوة إلى الإصلاح

تنوعت أساليب القرآن في الدعوة إلى الإصلاح، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أسلوب الأمر:

١ . أمر الله سبحانه وتعالى بالإصلاح بين المسلمين، ورتب الرحمة في الدنيا والآخرة على ذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

«خافوا الله أيها الناس بأداء فرائضه عليكم في الإصلاح بين المقتتلين من أهل الإيمان بالعدل، وفي غير ذلك من فرائضه، واجتناب معاصيه؛ ليرحمكم ربكم، فيصفح لكم عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه، واتبعتم أمره ونهيه، واتقيتموه بطاعته»[١].

«وإذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة»[٢].

ومن الرحمة: «أن لا يتصدع بنيانكم، ولا تتشتت أمتكم، وتصبح جماعات وطوائف متعادية، يقتل بعضها بعضًا؛ ولما لم يتق المؤمنون الله في الإصلاح الفوري

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٩٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٠١.

بين الطوائف الإسلامية المتنازعة حصل من الفساد والشر ما الله به عليم في الغرب الإسلامي والشرق»[٣].

وأيضًا من معاني الرحمة في الدنيا والآخرة «أن تجري أحوالكم على استقامة وصلاح، وإنما اختيرت الرحمة لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة، فيكون الجزاء عليها من جنسها»[٤].

٢ . أمر الله بالإصلاح بين المسلمين وجعله شرط الإيمان.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

«أي: أحوال بينكم، يعني: ما بينكم من الأحوال، ألفة ومحبة واتفاق»[٥]. «وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح، بحسب المقام؛ وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة»[٦].

٣. أمر الله تعالى بالقول الحسن المعروف السديد.

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٢٩٤.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٤٥.
(٥) تحفة الأحوذي، المباركفوري ٧/ ١٧٩.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٣.

قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

فالإصلاح بين الناس من القول المعروف.

قال الضحاك: «نزلت في إصلاح ذات البين»[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

ومن معاني القول السديد: «الإصلاح بين المتشاجرين»[2].

٤. أمر الله تعالى بالعفو والصفح، وحث عليه.

والعفو والمسامحة من أوسع أبواب الإصلاح.

قال تعالى آمرًا بالعفو الصفح: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٣٩ - ٤٠].

وقال: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

والآيات التي تحث على ذلك كثيرة ومشهورة.

٥. أمر الله تعالى بالإصلاح من خلال الدخول في السلم وعدم المخاصمة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ أي: الإيمان الذي هو ملزم لسهولة الانقياد إلى كل خير، وهو في الأصل بالفتح، والكسر: الموادعة في الظاهر بالقول والفعل، أي: يا من آمن بلسانه -كهذا الألد- ليكن الإيمان أو الاستسلام بكلية الباطن والظاهر؛ ظرفًا محيطٌ بكم من جميع الجوانب، فيحيط بالقلب والقالب -كما أحاط باللسان- ولا يكون لغرامة الجهل وجلافة الكفر إليكم سبيل ﴿كَافَّةً﴾، أي: وليكن جميعكم في ذلك شرعًا واحدًا سواءً، كهذا الذي يشري نفسه، ولا تتقسموا فيكون بعضكم هكذا وبعضكم كذلك الألد؛ فإن ذلك دليل الكذب في دعوى الإيمان.

ولما كان الإباء والعناد الذي يحمل عليه

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٢٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٥٣.

الأنفة والكبر فعل الشيطان، وثمرة كونه من نار.

قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ أي: تكلفوا أنفسكم من أمر الضلال ضد ما فطرها الله تعالى عليه، وسهله لها من الهدى ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرق المبعد المحترق في الكبر عن الحق.

قال الحرالي: فيه إشعار وإنذار بما وقع في هذه الأمة، وهو واقع، وسيقع من خروجهم من السلم إلى الاحتراب بوقوع الفتنة في الألسنة والأسنة على أمر الدنيا، وعودهم إلى أمور جاهليتهم؛ لأن الدنيا أقطاع الشيطان، كما أن الآخرة خلاصة الرحمن، فكان ابتداء الفتنة منذ كسر الباب الموصد على السلم، وهو عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، «فلم يزل الهرج ولا يزال إلى أن تضع الحرب أوزارها»[(١)].

ثانيًا: الثناء على المصلحين:

١. أن الله سبحانه وتعالى رتب الأجر العظيم على الإصلاح بين الناس.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

أي: لا خير في كثير من المتناجين من الناس إلا فيمن أمر بصدقة، أو معروف أو إصلاح بين الناس، فإن أولئك فيهم الخير[(٢)].

«وخص الله سبحانه الصدقة والإصلاح بين الناس بالذكر من بين ما شمله هذا العام إيذانًا بالاعتناء بهما لما في الأول: من بذل المال الذي هو شقيق الروح، وما في الثاني: من إزالة فساد ذات البين، وهي الحالقة للدين كما في الخبر»[(٣)].

وعن أبي ثابت قال: «كنت جالسًا عند محمد بن كعب القرظي فأتاه رجل، فقال له القوم: أين كنت؟ فقال: أصلحت بين قوم، فقال محمد بن كعب: أصبت، لك من أجر المجاهدين، ثم قرأ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]»[(٤)].

قال الأوزاعي: «ما خطوة أحب إلى الله عز وجل من خطوة في إصلاح ذات البين، ومن أصلح بين اثنين كتب الله له براءة من

---

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١/ ٣١٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٨١-٤٨٢.

(٣) روح المعاني، الألوسي ٥/ ١٤٤-١٤٥.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في مداراة الناس، باب الإصلاح بين الناس رقم ١٥١، ص١٢٠.

النار»[1].

٢. حث الله تعالى على الشفاعة الحسنة، وأنها من الإصلاح الذي يؤدي للخير.

قال تعالى: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة هي المشي بالنميمة بين الناس»[2].

قال القرطبي رحمه الله: «فمن شفع شفاعة حسنة ليصلح بين اثنين استوجب الأجر، ومن سعى بالنميمة والغيبة أثم»[3].

ثالثًا: العرض القصصي:

نماذج قرآنية موجزة في الإصلاح:

١. درس من القرآن في قصة ابني آدم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣١].

يمكننا استخلاص بعض الفوائد من مشهد الخصومة بين فردين أخوين، ومنها:

١. المسلم رباني حتى في خصومته، يحرص على مرضاة الله، ورضوان الله لا يتحقق بمخالفة أمره، أو بالتمادي في الخصومة أو بتطويرها إلى حالة فجور، وظلم وبغي على الآخرين.

٢. عدم مقابلة السيئة بالسيئة: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٣. تذكير المخطئ بالله، وعدم الإفساد، والبعد عن الخصومة: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٤. عند إظهار الخصومة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٨٥.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٥٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٩٥.

٥. إذا كانت خصومة ابني آدم قد انتهت بمقتل الطرف الطيب التقـي، فالتشريع ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم أوجد فقهًا وطريقـةً، وأسلوبًا للتصدي لفجار الخصومات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

٢. قصة موسى والقبطي الذي أراد موسى أن يقتله.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٤ - ١٩].

فوائد للإصلاح في القصة:

١. أغاث موسى عليه السلام الذي من شيعته؛ لأن نصرة المظلوم دين في الملل كلها، وفرض في جميع الشرائع[(١)]، فهو الإصلاح بنصرة المظلوم على الظالم، وإرجاع حقه له، وإن لم يفعل ذلك لانتشر الظلم والفساد الذي يؤدي إلى فساد علاقة الناس ببعضهم.

٢. وكز موسى عليه السلام للمعتدي كان للزجر؛ ولذلك قال: ﴿هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

٣. «أن من قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطي: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾»[(٢)]. فعلى المصلح أن يدفع الخلاف والقتال بالتي هي أحسن: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص ١٩]. أي: «فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن»[(٣)].

٤. وأن يكون متصفًا بكظم الغيظ، كما

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٦٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٨.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٢٨٧.

قال: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]. «وما تريد أن تكون من المصلحين في كظم الغيظ»[١]، ولقد كظم موسى عليه السلام غيظه ولم يقتله.

٥. ويجب على المصلح أن يسعى بالصلح بين الخصمين بالتراضي بينهما. قال ابن عاشور: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]. أي: «إنك تحاول أن تكون متصرفًا بالانتقام وبالشدة، ولا تحاول أن تكون من المصلحين بين الخصمين بأن تسعى في التراضي بينهما»[٢].

٦. أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، على وجه التحذير له من شر يقع فيه، لا يكون ذلك نميمة -بل قد يكون واجبًا- كما أخبر ذلك الرجل لموسى عليه السلام ناصحًا له ومحذرًا.

٧. أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، فإنه لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، كما فعل موسى عليه السلام.

٨. وفعله عليه السلام ودعاؤه يفيد أن النعم تقتضي فعل الخير، وترك الشر والإفساد[٣].

٩. على المصلح أن يكون حياديًا في الإصلاح، وفي الحديث مع المختصمين، فلما استغاثه الذي من شيعته مرة أخرى علم أنه رجل كثير المخاصمة، فقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨].

١٠. أن يتقبل المصلح الوعظ والتذكير من أي أحد إذا كان فيهما خير للناس والمجتمع. قال تعالى عن القبطي: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

١١. يجب حفظ المصلح من أن يمسه أذى. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

٣. موقف موسى مع أخيه هارون عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ولكن القوم غيروا: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٣١.
(٢) التحرير والتنوير ٢٠/ ٩٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦١٨.

لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨ - ١٥١].

الفوائد الإصلاحية عند اختلاف الآراء من القصة:

١. أن يعلم خلفيات الموضوع: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٢ - ٩٣]. ألم أقل لك بقولي: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

٢. أن ينبه خصمه على كف أذاه، وعدم الاستعجال عليه؛ ليبين حجته: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ [طه: ٩٤].

٣. ترقيق الكلام والتأدب مع المخالف: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾، «فهذا ترقيق لأخيه، بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه»[1].

٤. بيان وجهة النظر بوضوح: ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ [الأعراف: ١٥٠]. و: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: ٩٤].

٥. تذكير الأخوة بما يفرح الأعداء: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. «بنهرك لي، ومسك إياي»[2].

٦. التنبيه على الفرق في المعاملة: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. «فتعاملني معاملتهم»[3].

٧. دعاء الأخوة المختلفين لبعضهم: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

٤. قصة داود مع الخصمين.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠٤.

﴿لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢١ - ٢٦].

أرسل الله سبحانه وتعالى لنبيه داود عليه السلام ملكين للامتحان، فدخلا عليه من غير باب المحراب، ففزع منهم نبي الله داود عليه السلام؛ لدخولهما عليه من غير الباب[(١)] والوقت[(٢)].

وقد ذكر المفسرون فوائد في قضية الإصلاح عند تفسيرهم الآية، منها:

١. أن المنصوح وإن كان كبير القدر جليل العلم لا يغضب ولا يشمئز، بل يبادر بالقبول والشكر والعدل.

٢. استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، وأن لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم، فعليه أن يلتزم ضبط النفس، ويتغاضى، ويلتزم الحلم والعفو، ويحكم بالعدل.

٣. نص الله تعالى على الأخوة، فإن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة المتعلقات الدنيوية والمالية موجبة للتعدي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور بالإيمان والعمل الصالح[(٣)].

٤. على المصلح أن يتروى في الحكم قبل إصداره، ولا ينفعل فيه تحت تأثير قوة كلام خصم ما، وألا يأخذ بظاهر قول واحد، قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته[(٤)].

٥. «وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق، ولا يعدلوا عنه فيضلوا»[(٥)]، «ولا يتم العدل إلا بعلمٍ بالواجب، وعلمٍ بالواقع، وقدرةٍ على تنفيذ الحق»[(٦)].

٦. «يحدد التوجيه المقصود من الله لعبده الذي ولاه القضاء والحكم بين الناس، فهي الخلافة في الأرض، والحكم بين الناس بالحق، وعدم اتباع الهوى، والتزام التريث والتثبت والتبين»[(٧)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٣-٥٤.

(٢) قال الشيخ السعدي: «وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله تعالى، لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها».
انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٧١٢.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٧١١-٧١٣.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٣٠١٨.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٦٣.

(٦) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧١٢.

(٧) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠١٨.

٥. نموذج قصة المجادلة.

هذا النموذج يقص علينا الحق سبحانه وتعالى أحداث خلاف حياتي أسري بين زوجين مسلمين، فأنزل الله سبحانه وتعالى الحكم قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة؛ ليبقى الحل الشامل الكامل خالدًا.

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ١ - ٤].

وقد جاءت بتفصيلاتها في السنة[١].

فمن الفوائد الإصلاحية في قصة المجادلة[٢]:

١. الاهتمام بالحياة الزوجية: فالتربية القرآنية الربانية والمتحصلة من قراءة وتدبر القرآن تقوم بدور عظيم يحافظ على كيان الأسرة والعلاقات الزوجية بالإصلاح والتربية والصبر والاستقرار.

٢. بيان المشكلة وسببها بوضوح: ذكرت رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبب هذه المشكلة، وهي أنها راجعت زوجها أوس بن الصامت في شيء مما أثار غضبه.

٣. القدرة على استيعاب المشكلة الزوجية وإدارتها: فخولة رضي الله عنها لم تتفوه بكلمة تغضب الله ورسوله، بل سألت عن أفضل الحلول التي تتفق مع ظروفها، وظروف بيتها وزوجها، وهذا يؤكد على المسؤولية في استيعاب الخلاف العائلي بحكمة خاصة.

٤. الورع والخوف من الله تعالى: كان موقف خولة رضي الله عنها عظيمًا وفريدًا، فأحداث تلك الواقعة، والملابسات الداخلية التي حدثت بين زوجين داخل بيتهما، ميزت سلوكها الراقي الورع الذي استوعب أخطاء الزوج من أجل عدم الوقوع فيما يغضب الله عز وجل، وفهمت الهدف العظيم الذي يرنو إليه أي زوجين، وهو: حماية كيان الأسرة، من غير إضاعة عبادة الله.

---

(١) أخرجها أحمد في المسند، ٦/ ٤١٠، رقم ٢٧٣٦، وأبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم ٢٢١٤، ٢٢١٥.
وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم ٢٢١٤.

(٢) انظر: بحث قيم حول قصة المجادلة، كتبه الدكتور حمدي شعيب، مجلة البيان، عدد ٢٠٦، شوال سنة ١٤٢٥هـ.

٥. الفقه للمرجعية في الإصلاح: جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تكلمه، ومن في ناحية البيت لا يسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١].

٦. صفات المصلح: إن تصرفه صلى الله عليه وسلم مع خولة ومشكلتها يضع أمامنا الضوابط المطلوب توفرها في كل مصلح، فمن تلك الصفات: اهتمام المصلح بالموضوع وصاحبه، التواضع، الحيادية، والتروي، والعدل، والرفق بالرعية.

٧. إرادتها الصلح، وهذا يتضح من خلال سعيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تريد منه الحل في المشكلة.

أثر الإصلاح في الفرد والمجتمع

بين الوحي الإلهي أثر الإصلاح على الفرد والمجتمع، ومن تلك الآثار ما يأتي:

١. مدافعة الشر عن الناس بعضهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فبين الله تعالى أن من فضله ورحمته أنه يدفع الشر عن الناس ببعضهم، ولا شك أن الفرقة والخلاف شر بين المسلمين، فإذا لم تدفع ببعض جهود بعضهم ظهر الفساد في الأرض.

٢. الالتئام وعدم التفرق والتمزق.

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وجه الشاهد: «لما عاب سبحانه وتعالى الكفار بالضلال ثم بالإضلال، أمر المؤمنين بالهدى في أنفسهم، وأتبعه الأمر بالاجتماع، وكان الأمر بالاجتماع المؤكد بالنهي عن التفرق، ربما أفهم الوجوب لتفرد الجميع في كل جزئية من جزئيات العبادة في كل وقت على سبيل الاجتماع، مع الإعراض عن كل عائق عن ذلك سواء كان وسيلة أو

لا، بالنسبة إلى كل فرد فرد؛ أتبعه بقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

أي: جماعة تصلح لأن يقصدها غيرها، ويكون بعضها قاصدًا بعضًا، حتى تكون أشد شيء ائتلافًا واجتماعًا في كل وقت من الأوقات»[١].

٣. قوة هيبتهم وعدم فشلهم وذهاب هيبتهم.

فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وهل أخر المسلمين اليوم في هذه الأوقات إلا تفرقهم والتعادي بينهم وخورهم، وتقاعدهم عن مصالحهم والقيام بشؤونهم، حتى صاروا عالةً على غيرهم.

٤. أن الإصلاح يغيظ الكفار والمنافقين.

إن أهل الشر يحاولون أن يوقعوا المسلمين في التهلكة بإيجاد الفتنة والإفساد بينهم.

قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

أي: «بخروجهم معكم لن يزيدوكم ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ إلا فسادًا وشرًا ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ ولسعوا بينكم بالتضريب والنمائم، وإفساد ذات البين»[٢].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

«فنبه تعالى على كثرة فساده بقوله: ﴿سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: كلها بفعله وقوله: ﴿لِيُفْسِدَ﴾، أي: ليوقع الفساد، وهو: اسم لجميع المعاصي ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض، في ذات البين لأجل الإهلاك، والناس أسرع شيء إليه، فيصير له مشاركون في أفعال الفساد»[٣].

وقال تعالى حكاية عن أهل النار: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص: ٦٢].

الأشرار أي: «الأراذل الذين لا خير فيهم؛ بأنهم قد قطعوا الرحم، وفرقوا بين العشيرة، وأفسدوا ذات البين»[٤].

ولما يحصل في الخصومات والمشادات من الأضرار العظيمة من سفك الدماء، وذهاب الحقوق، وتجشم العداوات، والإساءة والإيذاء.

فكل ما سبق من الأدلة دافع إلى الحرص على الصلح بين الناس، وحل المشاكل المتأزمة بينهم، فعلى كل مسلم أن يكون رجلًا مجاهدًا حريصًا على أمته من التشتت

(١) نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٩٤.

(٢) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٤٧.

(٣) نظم الدرر، البقاعي ١/ ٣٠٨.

(٤) المصدر السابق ٧/ ٢٠٨.

والضياع، فيسعى بالصلح بين كل من تحصل بينه وبين أخيه شحناء إذا وجد نار الغضب تتأجج بالخلافات والمنازعات فيما بينهما، فليحاول التدخل بالصلح؛ ليكون حكمًا عدلًا مصلحًا بأقواله، وباذلًا في ذلك ما يستطيعه من جاهٍ، أو فعلٍ أو مالٍ إذا تطلب الأمر ذلك؛ حتى يطفئ تلك النار الملتهبة، أو المشاكل المعقدة، ويحل بدلها الصلح والسلام والوئام، ولا يقول هذا لا يعنيني! فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أخبر بأن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة.

قال: (اذهبوا بنا نصلح بينهم)[1].

وعلى كل مسلم أن يكون مشاركًا فاعلًا في هذه الحياة بنفع إخوانه، مسابقًا في ميادين الإصلاح والعمل المثمر، مسارعًا إلى ما يؤلف القلوب، ويرفع مستوى أمته، فيسمو بين الورى بحسن الثناء، ويسعد في آخرته عند الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فكم علاقة بين إخوة في الله كادت أن تتمزق، وكاد أن يقع القتال بسبب خلاف سهل، فإذا بهذا المصلح بكلمة طيبة، ونصيحة غالية، ومال مبذول، يعيد المياه إلى مجاريها، والحياة إلى طبيعتها.

٥. دفع حركة الدعوة إلى الله تعالى وقوتها.

فالدعوة إلى الله تحتاج إلى جهد كل مسلم آمن بالله ربًا لكي يتم الله هذا الأمر، وإذا حصل خلافٌ أو خصومة بين أفراد المجتمع -وهم جزءٌ من المجتمع- يتأثر المجتمع بما يحصل بينهم من خير أو شر، وصرفت طاقات وأفكار وأموال وأوقات في هذا الخلاف، ثم مثلها وأكثر منها لكي يعوض هذا الخلل، ويرأب الصدع، وأقل ضرره تعطيل سير الدعوة إلى الله والإنتاجية النافعة إلى أن يصطلحا.

ولذا فالإصلاح بين الناس واجب إذا تنازعوا، وواجب لابد منه لتستقيم الحياة، فقد قال الله تعالى آمرًا بالإصلاح: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

موضوعات ذات صلة:

التغيير، الصلاح، الفساد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب قول الإمام لأصحابه: اذهبوا بنا نصلح بينهم، رقم ٢٦٩٣.